
رواية
دار العشاق
ناصر عراق
الدار المصرية اللبنانية

دار العشاق

رواية

عراق، ناصر .

دار العشاق: رواية /ناصر عراق .- ط 1.-

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2018.

360 ص؛ 20سم .

تدمك : 978 - 977 - 795 - 188 - 3

1- القصص العربية .

ب-العنوان . 813

رقم الإيداع : 2018/ 11474

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون : 23910250 202 +

فاكس : 23909618 202 + - ص. ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www. almasriah.com

الطبعة الأولى: مايو 2018م

الدار المصرية اللبنانية

رواية



ناصر عراق

الدار المصرية اللبنانية

دار العشاق

رواية

ناصر عراق

إهداء

إلى أبنائي الأعزاء :

هديل وعمر وباسم

ناصر

1

عثروا على جثة الخواجة أندرياس ملقاة أمام الخمارة على بعد أمتار قليلة من بركة الأزبكية . السقاء أمين الدواخلي أول من رآها، فصرخ مذعورًا ممزِّقا عذرية الخيوط الأولى للنور، فهرع نحوه نفر قليل من عابري السبيل، ووقفوا أمام الجثة ذاهلين، يتأملون بقع الدم المتجمد التي تلطخ صدره ووجهه، حيث ترددت الأصوات معلنة عن حزنهم لمقتل الخواجة اليوناني :

- فليرحمه الله ... كان طيبًا ورحيمًا .

- وكان لطيفا مع الصغار .

- وودودًا مع الكبار .

- كم فك ضائقة المحتاجين .

- من قتله يا ترى؟

- لعله واحد من المخمورين ليلة أمس .

- فليدخله اللّه الجنة .

وانطلق صوت حاد معترضًا :

- وهل يمكن لمسيحي يوناني أن ينعم بالجنة أو حتى يشمّ ريحها؟

- معك حق ... الجنة للمسلمين فقط، كما قال اللّه عز وجلّ (ومن يبتغِ غير الإسلام دينا فلن يُقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين).

- فلنبلغ كبير الشرطة، أو الوالي شخصيًا .

- هل تريد من محمد علي باشا أن يهتم لمقتل يوناني؟

- كلامك مضبوط، فبعد أن قتل المماليك جميعا في مارس الماضي، لن يهتم بمقتل أحد !

وانتشر النور في سماء القاهرة بكثافة، فتجرأ الحضور وانكفأوا فوق الجثة

يتأملونها بقلوب مضطربة، أما السقاء أمين الدواخلي فأسرع الخطى نحو دار كبير الشرطة بالدرب الأحمر .

2

في الطريق سار يوزع خبر الجريمة مع المياه على الدور التي يمر بها، كما لم يبخل على المارة، رغم قلتهم، وهمس في أذن كل واحد منهم بخبر عن جثة الخواجة أندرياس المنطرحة على قارعة الطريق عند حافة البركة بالأزبكية، فأثار فضول بعضهم فهرعوا لرؤية بقايا المشهد الدموي . ترامت إلى مسامعه دعوات بالرحمة على القتيل، مصحوبة بقليل من اللعنات وكثير من اللامبالاة . وعند مدخل الدرب الأحمر لمح الدار المهيبة لكبير الشرطة محاطة بسياج من الأشجار المعمرة، وعلى بابها يقف حراس من الجنود الأرناؤوط بملابسهم الفضفاضة الزرقاء . من ملامحه أدركوا أن ثمة شيئا خطيرًا، فأمين الدواخلي صاحب وجه معروف لدى رجال الأمن، فهو الذي يمدهم بما يتناجى به الناس في الأسواق والمقاهي والخمارات من أخبار وآراء وأفكار ونوايا . استقبله كبير الشرطة بمزاج

عكر في هذا الوقت المبكر، لكنه تصرف بسرعة وبحزم، وأمر حراسه بمرافقته على الفور نحو مسرح الجريمة، بينما مضى السقاء يوزع المياه وخبر الجريمة معًا بهمة ونشاط على أهالي المغربلين والدرب الأحمر .

3

بعد ساعة استيقظ عصفور الحداد مذعورًا على صوت طرقات عنيفة متواصلة على الباب . دهمته الوساوس بشأن أبيه، فمضى نحو غرفته ليطمئن على عودته، فوجده غارقا في النوم، بينما والدته متسمرة أمام الفرن تعتريها رجفة . هرول الشاب العفيّ نحو الباب ليفتحه، فاقتحم الجنود الأرناؤوط البيت مع أشعة شمس الصباح ودفعوه بكعوب بنادقهم، فاستشاط غضبًا وتراجع إلى الوراء قليلا . في حين هبّت والدته تاركة الخبز يحترق وهرعت نحو أطفالها النائمين لتصنع حاجزا بينهم وبين الزائرين غير المرغوبين . وقبل أن يستفسر عصفور عن سر الهجمة صرخ قائدهم بلكنة مصرية متكسرة :

- أين أبوك سليمان الحداد؟

لم ينتظروا الإجابة، حيث وجدوه نائما على حصيرة في الغرفة الأخرى، فانهالوا عليه

ضربا وصفعا، فلم يفق، فتوجه اثنان من الجنود إلى الزير الكائن في زاوية قصية وحملاه وسكبا ما به من ماء فوق الرجل وسط صراخ زوجته وهياج ابنه . وفي لمح البصر خرج الجنود حاملين سليمان الحداد كبهيمة وهو يرنو إليهم بعينين ثقيلتين بينما قطرات الماء تتساقط من شعره الأشعث الغزير، ورائحة الخمر تفوح من فيه !

سرعان ما تطاير الخبر المشؤوم في درب الجماميز (سليمان الحداد قتل الخواجة أندرياس) ، وانطلقت من مقهى المعلم فجلة الأصوات العالية في نبرات من الحدة والعصبية والشفقة :

- لا يمكن ... الحداد رجل طيب !

- وهو ابن حينا الذي نعرفه ونعاشره من زمن بعيد .

- لكن الخمر قادرة على اللعب بالرؤوس !

- إنه لا يرتاد الخمارة إلا مرة واحدة في الأسبوع !

- لحظة سكر واحدة قد تكون القاضية، وقد تدفع صاحبها إلى ارتكاب الكبائر .

- ربما اشتبك معه بسبب الديون !

- وهل كان يستدين من الخواجة أندرياس؟

- أجل ... أكثر من مرة كما أخبرني، لكنه كان حريصا على سداد الدين في الوقت المحدد، رغم أنه لا يتوقف عن كيل السباب له ويصف الخواجة بأنه مرابٍ وظالم !.

- إذن ... من الجائز أنه الجاني؟

- ومن الجائز غيره !

- مَنْ يدري؟

- ولكن من لأبنائه الصغار يرعاهم وينفق عليهم !

- البركة في الابن البكر عصفور، فهو ساعده الأيمن في الورشة !

- إنكم تتحدثون كأن الرجل قد مات ودفن !

- وهل عاد أحد حيًا إذا ما اقتادته الشرطة إلى سجون الوالي؟

- إذن، فلنذهب إلى كبير الشرطة

لنستفسر لعل وعسى !

- هذا الأرمني المخيف لن يرحمه ولن يرحم من يسأل عنه !

ساد صمت وترقب، ومع ذلك قرر بعض الرجال الذهاب وهم يرددون بأفواههم (الطف يا رب) ، بينما قلوبهم ترتجف وجلا وعيونهم ترشق المتخاذلين والمتقاعسين بنظرات احتقار !

5

زجر الحارس الأرناؤوطي ذو الهيئة المرعبة الشاب الوديع عصفور الحداد وهدده بالقبض عليه إذا لم يبتعد عن بوابة القلعة . ورغم أن عصفور حاول أن يشرح للحارس بكل وسيلة أن والده مقبوض عليه ظلما بتهمة قتل الخواجة أندرياس، غير أن الحارس كان فظا غليظا ولم يسمح له بالدخول لتقديم مظلمته إلى الوالي .

تحت أشعة شمس حادة جلس عصفور في ميدان الرميلة لا يعرف ماذا يفعل؟ لقد انفجر تحت قدميه بركان، فمنذ أن اقتحم العسس منزلهم قبل ثلاثة أيام واعتقلوا أباه، ووالدته تبكي بصمت مؤلم وتحرق خديها دموع ساخنة كل ليلة، ورجال درب الجماميز عادوا من عند كبير الشرطة مطأطئي الرؤوس تشي وجوههم بالإخفاق، حيث مضى بعضهم يلهج بالدعاء ويردد (حسبنا الله ونعم الوكيل) ، وأمس قال له شيخ الأزهر مواسيًا :

- يا عصفور يا بني ... لقد استأذنت وقابلت الوالي وكلمته شخصيًا، لكنه رفض أن يفرج عن أي ممن ألقي القبض عليهم على سبيل الاشتباه كإجراء احترازي حتى يتم القبض على المجرم الحقيقي .

ثم أضاف الرجل المعمم وهو يهم لأداء صلاة الظهر :

- القنصل الفرنسي مستاء جدًا من هذه الجريمة، ويتهم حكومة الوالي بالعجز والتقصير، ويبدو أن محمد علي باشا يقلق كثيرًا من غضب القناصل الأوروبيين أو استيائهم .

- وما علاقة القنصل الفرنسي بالخواجة أندرياس اليوناني؟ أليست اليونان إحدى ولايات السلطان العثماني مثلٍ مصر تمامًا، ما يعني خضوع رعاياهم جميعًا للوالي؟ .

- يا بني ... إن اليونانيين مسيحيون مثل الفرنساوية، وكلهم أبناء أوروبا، وأظن أن

ثمة مصالح مشتركة بين تجار البلدين المقيمين في مصر .

هذا، وعصفور مازال يجلس في ميدان الرميلة عاجزا، يعبث بشاربه الصغير من فرط التوتر ويرنو إلى القلعة بأسوارها الشاهقة، فيعتصره الألم ويتساءل بوجع : أين أنت يا أبي؟ كيف تكون الحياة وراء هذه الأسوار المخيفة العالية؟ ثم يرفع راحتيه بالدعاء قائلا بصوت مسموع : اللهم ارحم أبي من بطش الوالي، اللهم امحق كبير الشرطة وكل العسس الجبارين، ثم ينهض متوجهًا نحو بيته غير مبالٍ بالصخب المصاحب لزفة عروس تخترق الميدان .

6

انطلق صراخ مخيف زلزل أركان القلعة، فجفلت البهائم في حظائرها، ونبحت كلاب الحراسة بجنون، وأسرع الخدم والعبيد نحو جناح الوالي، لكن ابنه إبراهيم باشا تلقاهم أمام الباب وسط كوكبة من حراسه ونهرهم قائلا :

- لماذا تركتم أعمالكم؟ أوَ هذه أول مرة تسمعون فيها هذا الصراخ؟ هيا ... عودوا إلى أشغالكم أيها الحيوانات .

ثم همس لشقيقه الأصغر الأمير أحمد طوسون الذي وصل الجناح متأخرًا :

- مرّ أكثر من شهر على المذبحة، ومازال أبونا يصارع الكوابيس كل ليلة ... تبًّا لهذه الحياة .

بعد لحظات خرج الوالي من غرفته مكفهرّ الوجه مرتديًا ملابسه الرسمية، من رأسه

ذات العمامة الخضراء المحبوكة حتى أخمص قدميه ذوي النعلين الجلد المكسو بالفرو والقطيفة الأرجوانية اللامعة . فتعجب ابناه وتبادلا نظرات استفهام دون أن يجرؤ أحدهما على الكلام . وبحركة سريعة توجه الرجل نحو البهو الرئيس في القلعة، فتبعه الشابان بخطى مرتبكة، وما إن استقر في مجلسه المعتاد، حتى أحضر الخادم الشيشة، بينما وقف ابناه أمامه بأدب جم، فحطّ صمت ثقيل لم يقطعه سوى صوت قرقرة الشيشة، وفجأة سأل الباشا وهو يرمق ابنه الأكبر :

- ماذا فعلتم في قضية السيد أندرياس؟ هل أمسكتم بالمجرم؟

فقال إبراهيم :

- مازال كبير الشرطة يواصل تحقيقاته مع المشتبه بهم .

- أريد القاتل سريعًا لينال جزاءه، فالقنصل

الفرنسي زارني مرتين ويلح في ذلك، وأنتما تعرفان عمق الروابط بين الفرنسيين واليونانيين هنا في مصر .

فواصل إبراهيم :

- سأبلغه بأوامر سموكم بضرورة الوصول إلى الجاني في أقرب وقت .

ثم تجرأ إبراهيم وقال بصوت هامس :

- يا أبتي ... لا بد من استدعاء طبيب من فرنسا ... فالحالة تتفاقم ... وصراخك الليلي يمزق الأفئدة .

رنا إليه محمد علي باشا بعينين مجهدتين، حيث استرخى على أريكة ترتفع بقوائمها قليلا عن الأرض، وقد غطيت ببساط من الحرير الهندي . أجل ... أجل ... وشت ملامحه المنهكة بأن عمره قد زاد عشر سنوات في خلال شهر ونصف هي عمر مذبحة القلعة . مضى يجذب أنفاس

الشيشة بنهم، بينما تولى ثلاثة من الخدم السود مهمة جلب الهواء إلى الحجرة الرسمية بمراوحهم الضخمة ذوات الأذرع الطويلة .

تأمل الوالي ابنه قليلا بعد أن ضيّق عينيه البنيتين تجنبًا للسعة الدخان المتطاير من أنفه وقال بصوت أجش :

- يا إبراهيم ... لماذا من فرنسا؟ وما فائدة الطبيب الإيطالي المرابض هنا إذن؟

تردد الشاب ثم قال :

- لقد اعترف الطبيب الإيطالي بعجزه عن صدّ أشباح المماليك الذين يتجولون في غرفتك كل ليلة فيفسدون عليك لذة النوم العميق .

لوى الوالي شفتيه يأسًا، وعاد ليسأل ابنه :

- وما رأي كبير السحرة؟ هل أسرّ لك

بشيء؟ هل توصل إلى العلاج، أم أعلن عن عجزه مثل الطبيب الإيطالي؟

فهتف الشاب المرتبك :

- لا لا ... لم يعلن عن عجزه، لكنه طلب السماح له بليلة أخرى للتشاور مع زملائه . لقد نفذنا أوامركم يا أبتي وأتينا بكل ساحر عليم، ومع ذلك استمر بل زاد ظهور هذه الأشباح الملعونة كل ليلة، ولكن حتى اللحظة لم يخبرونا ما الحل؟ وأمس مررت على كبير السحرة شركان الناغي لأستفهم منه، لكنه أخبرني أن الأمر لم يتضح بعد، وأنه لا يألو جهدًا للوصول إلى نتيجة قاطعة .

فصاح الباشا بعصبية :

- إذن ... استدعِ كبير السحرة فورًا .

7

بعد ساعة استأذن إبراهيم باشا وشقيقه طوسون في الدخول على والدهما، وقد اصطحبا معهما الرجل المطلوب . وقف كبير السحرة شركان الناغي بهيئته الأسطورية بين يدي الوالي . بدا مُسنًا نحيف القوام ذا لحية رمادية كثة وعينين سوداوين براقتين . فوق رأسه طاقية سوداء، وفي يمينه عصا أبنوس، أما بشرته الحنطية فغابة من التجاعيد . سأله الباشا وهو يوزع ناظريه بين ابنيه :

- هل توصلتم إلى حل؟

فأجاب الرجل بأدب ونبرة الفوز تشع من عينيه :

- كنت سأطلب الإذن بالمثول بين يديكم اليوم لأبشركم بالحل الناجع لهذه المشكلة .

فتهلل وجه الوالي وشجعه على المواصلة بهزة من رأسه :

- سيدي الوالي ... بعد مناقشات طويلة مع زملائي السحرة وتحليل الكوابيس الليلية التي تنغص عليكم حياتكم، تيقنا أنكم تعرضتم منذ سنتين لسحر أسود ذي تأثير بطيء، لكنه شديد ومخيف، وفكّ هذا السحر وإبطاله يستلزم وقتا طويلا، وبخاصة أن من حاك لكم هذا السحر الملعون رجل مجرم فاجر من المماليك قُتل في القلعة مع المجرمين الآخرين في مطلع مارس الماضي .

صاح الباشا وهو يضغط براحته على لاي الشيشة :

- إذن هو المملوك أردوغان الذي صرخ وتوعدني بالويل والهلاك كما أخبروني قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بالرصاصة القاضية، ولكن ما الحل؟

تنحنح الناغي وقال بصوت رفيع حاد :

- سموكم يعرف أن السحر مذكور في القرآن الكريم، وبالتالي سيصبح لزامًا عليكم إصدار أمر بتلاوة آيات االذكر الحكيم في جميع غرف القلعة في الصباح والمساء لمدة ساعة يوميًا، كما يتحتم إطلاق البخور في غرفة نومك مرتين كل يوم، الأولى بعد أذان الفجر، والثانية قبل أذان العشاء .

ثم سكت فجأة، فشعر الباشا أن ثمة أمرًا مهمًا يتردد الرجل في قوله، فشجعه بابتسامة وقال :

- وماذا بعد يا كبير السحرة؟

تنهد الرجل قليلا وألقى نظرة سريعة إلى ولديّ الباشا ليستمد منهما الشجاعة وقال :

- على سموكم أن يأكل كبدًا نيئة لذئب

بنيّ اللون عقب صلاة الجمعة مباشرة من كل أسبوع .

اعتدل الباشا في جلسته وهمّ بجذعه إلى الأمام وصاح مستهجنا باشمئزاز :

- ماذا؟ قلت ماذا؟ كبد ذئب نيئة !

- للأسف يا مولانا ... هذا النوع من السحر الأسود لا يمكن إبطاله إلا بتناول كبد الذئب النيئة ! شريطة أن يكون الذئب بنيّ اللون .

قرف لم يكن في الحسبان، لكن لا مفرّ أمام لعنة الكوابيس وعذابات الأرق، ونمّت استعادة الوالي لجلسته المسترخية عن رضوخه التام، وتساءل بيأس :

- إلى متى سأظل أتناول هذه الكبد الملعونة؟

- إلى أن يقضي الله أمرًا كان مفعولا ... إلى ما شاء الله يا مولاي !

تكدس الغم في عينيّ الوالي، ورنا إلى ابنيه بأسى، فندت عن طوسون نظرة إشفاق، بينما لاذ إبراهيم بالأرض يدفن فيها عينيه . ولما ثقل الصمت على الحضور قطعه شركان الناغي وواصل عرض أساليب القضاء على الأشباح، إذ قال بصوت الواثق :

- كما يجب أن تدعك عينيك وجبينك بجناح طاووس عمره شهران تم إنضاجه في مياه مغلية مزودة بتوابل هندية، على أن تتمّ عملية الدعك كل ليلة بعد صلاة العشاء لمدة أسبوعين .

ما أتعس الرجل المسحور أو المريض بالسحر، وما أشقى المرء الذي تتحكم في مصيره أكباد الذئاب النيئة وأجنحة الطواويس المغلية، وبيأس المستسلم للمقادير شد الوالي نفسًا عميقًا من الشيشة وقال بصوت حزين :

- وماذا بعد يا ناغي؟

فقال الرجل بأداء الختام :

- ألّا يتوقف أحباؤك المخلصون الأتقياء الأنقياء عن الدعاء لك عقب كل صلاة فيبتهلوا إلى المولى أن يتم عليك نعمته بالشفاء العاجل والانتصار المظفر في معركتك اليومية مع النوم .

ثم رفع راحته اليمنى إلى السماء وهتف بلهجة النهاية :

- والله هو الشافي من قبل ومن بعد .

تمتم الشقيقان مؤيدين كلام كبيرٍ السحرة الذي تراجع بظهره وانحنى مودعًا، فنفحه الأمير طوسون كيسًا مملوءة بريالات الفضة، وعاد الباشا يتساءل باهتمام شديد :

- وهل تتوقعان أن ينجح الطبيب الفرنسي في قتل هذه الأشباح الليلية؟ إن كبير السحرة يؤكد خطورة الأمر كما سمعتما !

فأجاب الابن البكر قصير القامة ذو البنية القوية :

- لو أنها يمكن قتلها ما احتجنا إلى أحد، فنحن - أخي وأنا – كفيلان بها، ولكن المشكلة أنها عدو لا نراه ولا نحسه، ومع ذلك لن نخسر شيئا إذا استدعينا الطبيب الفرنسي واستعنا به .

وأردف طوسون باشا ذو الوجه الأبيض المستدير معززًا قول شقيقه :

- صحتك يا أبي هي أغلى ما نملك في هذه الحياة .

فابتسم الباشا في وجه ابنه الأصغر الذي يكنّ له عاطفة أبوية جياشة، ثم طأطأ رأسه مستسلمًا وقال :

- إذن ... استدعيا طبيبًا فرنسيًا .

فانشرح وجه إبراهيم وقال وهو ينحني أمام والده تأدبًا :

- سأفاوض الطبيب حتى أحصل على أقل سعر !

فرفع الوالي سبابته مؤكدًا ومحذرًا :

- ولكن لا تتوقفا ولا تتأخرا لحظة عن تنفيذ أوامر كبير السحرة، فالسحر مذكور في القرآن الكريم .

وقال لنفسه مشمئزا : (رغم أن تناول الكبد النيئة للذئب أمر مقرف ومزعج، إلا أن الفوز بالنوم العميق يستحق هذه المعاناة).
ونظر إلى ابنه البكر وقال في سريرته متعجبًا ... ممّن تعلم البخل هذا الفتى إبراهيم؟

ثم أردف بلهجة آمرة :

- بلغ كبير الشرطة أنني أريد معرفة قاتل السيد أندرياس بأقصى سرعة .

حرّك الابن رأسه استجابة للأمر، بينما مرّت على وجه الوالي غمامة ضيق عندما تذكر

غضب القنصل الفرنسي وهو يطالبه مشددًّا بالوصول إلى الجاني سريعًا .

8

تأمل كبير الشرطة بعينيه الزرقاوين الشرستين وشاربه الكث المبروم عشرة رجال وقفوا أمامه خانعين مكبلة أذرعهم خلف ظهورهم بسلسلة حديدية واحدة، وقد فاحت من أجسادهم رائحة اللحم المشوي بعد التعذيب والكي بالنار، وتلطخت وجوههم بآثار الضرب المبرح، بينما وقف الترجمان السوري بجوار الرجل المهيب ينتظر الأوامر ليبدأ بالترجمة . أمسك كبير الشرطة بيمناه سوطا، ولاح في ملابسه الفضفاضة ذات الألوان الحمراء والشرائط الزرقاء وسيفه الذي يستريح في غمده كمن يقود معركة حربية . ظل يدور ويلفّ حول الرجال المنهكين يصفع هذا ويلكز ذاك وسط صمت مرعب، ثم هتف فجأة :

- يا أولاد الأفاعي ... أمامكم حتى المغرب لتعترفوا من منكم قتل الخواجة أندرياس؟

تولى الترجمان نقل تهديد السيد ذي البشرة الحمراء إلى اللغة العربية بسرعة وبلهجة أكثر حدة، لكن دون أن يتحرك من مكانه . للحظات لم يجب أحد، لكن سليمان الحداد تجرأ وقال بصوت واهن :

- سيدي ... نحن مصريون غلابة ... نعمل من أجل لقمة العيش التي نحصل عليها بصعوبة ... وليس لنا صلة بالخواجة أندرياس، ولا نتعامل معه .

بعد ترجمة كلامه، أقدم كبير الشرطة نحوه، ورمقه بنظرة حادة وهوى براحته الغليظة على وجهه وصاح :

- اخرس يا ربيب الحانات ... أنت أنت القاتل لا غيرك .

ثم انهال بالسوط على الرجل حتى تقوّض بنيانه من الإغماء، فتعثر رفاقه المكبلون معه وسقطوا جميعًا فوقه مشكّلين هرمًا من اللحم البشري المهترئ !

لم تدم فترة النوم التي نالها سليمان الحداد أكثر من نصف ساعة، إذ سرعان ما استيقظ مذعورًا على شخير أحد الذين حُشروا معه في هذا القبو المعتم . للحظة اعتقد أنه يسير على حبل من نار، وأن الصوت المنفّر المصاحب لحركته المرتبكة فوق الحبل يأمره بالقفز إلى بئر ذات قاع مشتعل، لكنه اكتشف أن هذا الصوت ما هو إلا شخير أحد رفقاء السجن . وأنه كان ضحية كابوس مزعج . فرك عينيه فلم ير أي وجه من وجوه المكوّمين معه في الزنزانة، لكنه همس (هل من رجل جافاه النوم؟) فتلقت أذناه إجابات مضطربة واهنة، خُتمت بدعاء (ربنا انصرنا على القومِ الظالمين) وقبل أن يردد «آمين » سُمعَ صرير كأنه صوت حيوان يكابد آلام النزع الأخير من النفوق، وفتح باب السجن فسقط شعاع ضوء قوي من المشعل الذي يحمله أحد الجنود الذين وقفوا خلف كبيرهم . ارتبكت عيون المساجين ذوي الحظ السيء . خطا كبير الشرطة خطوتين

داخل الزنزانة وتأمل وجوه المعذبين في الأرض، ثم صاح بصوت مزلزل :

- ها يا حيوانات ... ألن تعترفوا؟

لم يجرؤ أحد على الكلام، فصاح بنبرة منذرة مخلوطة بفرح غريب :

- إذن ...اسكبوا الزيت المغلي فوق رؤوس هؤلاء الحيوانات .

ثم أضاف متهكمًا :

- واهتموا أكثر بسليمان الحداد، فهو القاتل .

وفي لمح البصر انفجر صراخ جماعي من الرجال ليمزق أستار الظلام !

10

في غرفة متقشفة بدرب الجماميز جلست والدة عصفور الحداد شاردة الخاطر تسيل من عينيها أنهار همٍّ ثقيل، بينما أطفالها الثلاثة الصغار يلهون ويمرحون ويتشاغبون أمامها ببراءة شديدة . بين الحين والآخر ترفع دعاءها على الظالم بصوت مبحوح فتئن له جدران البيت الحزين، فلما دخل عليها عصفور تسربل بالكذب وزعم أنهم سيفرجون عن والده قريبًا، إلا أنها أطلقت في وجهه عبارة دمرته تدميرًا :

- لم نسمع أبدًا عن أحد دخل سجون الوالي وخرج حيًا !

ثم أكدت وساوسها قائلة :

- ألم يأمر بنفي السيد عمر مكرم إلى دمياط قبل عامين؟ رغم توسلات بعض المشايخ، ورغم حب الناس للسيد عمر، ورغم أنه من أجلسه أو ممن أجلسوه على عرش مصر قبل ستة أعوام؟ ألم يعتقل العسس التابعون له كل طلعة

شمس الشباب الغاضب من سوء الأحوال المعيشية وارتفاع الأسعار، فلا يعودوا إلى أهاليهم أبدًا؟

- بلى يا أمي، ولكن والدي مظلوم ... والكل يعرف مدى طيبته، فكيف يقدم على قتل الخواجة أندرياس؟

فقالت بحسرة :

- كم حذرته من تناول الخمر ومن ارتياد خمارات الأجانب .

فأبدى اهتمامًا ملحوظا وسألها :

- فماذا كان يقول لك؟

- يعدني بأنه لن يفعلها مرة أخرى، ثم يعاود الكرّة كلما هلت ليلة الجمعة، أي الخميس ليلا، فكنت أرثي له وأشفق عليه وأسكت، أو أدعو له سرًّا أن يتوب الله عليه .

- لماذا كنت تسكتين؟

- يا بني ... هذه هي الفرصة الوحيدة التي كان يروّح بها أبوك عن نفسه، فطوال أيام الأسبوع وهو يشقى في الورشة من أجلكم !

صاح بعصبية :

- ولكن من قال إن الترويح عن النفس لا يتم إلا بتجرع الخمور؟

لم تعلق والدته، إنما رمته بنظرة إشفاق، فعاد يقول بأسى شديد :

- على كلٍ فذهابه للحانة كل خميس لا يعني أنه قتل الخواجة أندرياس ... هذا ظلم !

لم ترد المرأة الموجوعة، وغمغمت (المظلومون في بلادنا بلا عدد وبلا ظهر) ثم قامت لتشعل الكانون لتعد طعام الغداء لأبنائها الأربعة، وإذا بطرقات عنيفة تدق

الباب، وصياح ينطلق من أفواه ونساء ورجال ملأوا فراغ الباب مرددين :

- يا أم عصفور ... يا أم عصفور ... البقية في حياتك ... إنهم يقولون إن زوجك مات في سجن القلعة !

11

بكت آماليا بحرقة كطفلة تيتمت توًا ... بكت رغم أنها تجاوزت الخمسين، وكم رأت طائر الموت يرفرف حولها غير مرة، وقالت لوصيفتها الجديدة وهي أسيرة ذكريات حميمة :

- أعرف الخواجة أندرياس منذ غادرت أثينا وأتيت إلى القاهرة قبل ثلاثين عامًا ... كان حبيبي السري سنين طويلة، وهو الذي ساعدني في تأسيس دار المتعة هذه . وبنصائحه الثمينة عرفت كيف أطور من عملي، حتى زاد تعداد زوار الحب عن 500 مرتاد في الشهر .

- وهل كلهم يونانيون مثلكِ يا مدام؟

- لا ... من كل الدول ... من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأسبانيا وقبرص ومالطة ... كل رجال أوروبا المقيمين في مصر لا غبار عليهم في مسائل الحب، لذا فداري

مفتوحة للمحرومين والمستزيدين على السواء، أما الفلاحون المصريون فلا وألف لا .

فتعجبت الفتاة وسألتها :

- لماذا يا سيدتي؟

- لأن المصريين لا يعرفون الذوق، إنهم مجموعة من الفلاحين الأجلاف كما وصفهم بحق الوالي محمد علي باشا .

- إذن ... فالذي قتل السيد أندرياس واحد من هؤلاء المصريين الأجلاف كما أعلن كبير الشرطة .

لوت شفتيها بتقزز وغممغمت بنبرة واثقة :

- بكل تأكيد ... فنحن أبناء أوروبا لا نرتكب جرائم قتل بشعة كهذه .

في ذلك الوقت امتلأ قوام مدام آماليا بالشحم واللحم نسبيًا، وقد تمتعت بعينين

خضراوين واسعتين، وشفتين رقيقتين وشعر أصفر ناعم منسدل على كتفيها كفتاة شابة . فجأة هبت واقفة وقالت وهي تتناول كأسًا من الويسكي باليمنى وتجفف دمعة باليسرى :

- هل تعلمين أن أندرياس هو الذي دفع نصف ثمن هذه الدار التي نقيم بها هنا في الحي الإفرنجي بالأزبكية؟

- متى حدث ذلك؟

- بعد وصول بونابرت للقاهرة بعام واحد؟

- فليغفر له الرب وليقدّس روحه .

- وهو الذي أطلق عليها اسم (خان الملذات) وأصر على طلائها من الخارج باللون الأحمر .

ابتسمت الفتاة وقالت :

- لذا يبدو منظرها عجيبًا وسط دور وبيوت

وحوانيت الحي الإفرنجي .

واصلت آماليا :

- وهو الذي أهداني العبد هلال الأسود قبل أسبوع من وفاته .

وأشارت إلى العملاق الذي يتولى تنظيف المكان قريبًا منهما، لكن الفتاة أوضحت قائلة :

- تقصدين مقتله !

فغمغمت آماليا بكلمات غير مفهومة، فعادت الوصيفة وسألتها :

- وهل رزقه الرب بالذرية؟

شردت قليلا، وقالت :

- له ابنة واحدة اسمها هيلين لا تتجاوز الثامنة عشرة سنة، كانت تساعده في إدارة الحانة بعد وفاة زوجته قبل خمس

سنوات .

- فليمنحها الرب الصبر والسلوى، وليدخله في ملكوته يا مدام آماليا .

ثم نهضت الوصيفة لتنثر العطور في غرف الخان الفسيحة استعداداً لاستقبال العشاق العابرين .

12

بعد انصراف آخر زبائن اللذة المسروقة، أغلقت آماليا باب غرفتها على نفسها كما تفعل كل ليلة، وأخرجت الكيس الأبيض المخملي من جيب فستانها الوردي، حيث تحتفظ فيه بموارد الليلة، ومضت تعدّ النقود التي ربحتها والسعادة تقفز من عينيها الخضراوين، وإذا بطرقات خفيفة على الباب، والوصيفة الجديدة تصيح :

- معذرة يا مادام ... عازف البيانو يطلب لقاءك فورًا .

بدت الدهشة على السيدة الخمسينية ذات الأنف الذكوري المعقوف، وقالت لنفسها (لقد أعطيته أجره الأسبوعي أمس، فماذا جرى؟) ثم نهضت متأففة ودسّت الكيس داخل صندوق خشبي صغير تحتفظ به تحت سريرها، إذ لا يفسد مزاجها شيء أكثر من قطع شهوتها عن مواصلة عد النقود . ثم توجهت نحو الصالة،

فلمحت العبد هلال الأسود يرنو نحوها باهتمام وهو يستند بهيكله العملاق على الجدار المواجه للحمام، في حين وقف الرجل الشاحب واضعًا راحته اليمنى بحنان فوق جسد البيانو المعطوب . قال والحيرة تطلّ من عينيه :

- أنا آسف جدًا مدام، لكن أوتار البيانو في حاجة إلى تصليح سريع .

فقطبت جبينها وهتفت بانزعاج :

- لقد قلت لي هذا الكلام قبل يومين، وأخبرتك باستدعاء من يفهم في هذه الأمور .

عاد الرجل يقول بهدوء يليق بعازف بيانو تجاوز الستين :

- ثمة رجلان فقط في القاهرة كلها يعرفان كيفية إصلاح البيانو وصيانته . الأول يوناني، وأسعاره معقولة، والثاني إيطالي

أكثر مهارة بمراحل، لكنه سيطلب مبلغًا كبيرًا .

تفكرت آماليا مليًا ثم صاحت :

- وليكن ... استدع الإيطالي، وليأخذ ما يشاء، المهم ألا يتوقف البيانو عن إصدار الأصوات الجميلة كل ليلة ولو للحظة واحدة .

ثم سألته بنبرة تشي بانتهاء الحديث :

- أين تقع ورشته؟

- قريبًا من هنا بالحي الإفرنجي، خلف خمارة الراحل أندرياس .

اعترتها نوبة حزن عندما صكت أذنيها كلمة الراحل، فهزت رأسها دون أن تتكلم، وعادت إلى غرفتها لتواصل حساب أرباح الليلة .

13

في صباح اليوم التالي دخل بوغوص بك يوسفيان بأدب شديد غرفة محمد علي باشا حاملا ملف الرسائل والخطابات والبريد المؤشر عليه «سري للغاية» وممنوع فتحه والاطلاع عليه إلا بمعرفة الوالي شخصيًا . وضع الرجل الملف فوق مكتب صغير قريب من مجلس الوالي المعتاد . كان القيظ شديدًا، والعرق يتصبب من الرجل الشاحب النحيل، بينما الرجال المكلفون بجلب الهواء بمراوحهم الضخمة حول الباشا يمارسون مهامهم بجدية شديدة وبالتناوب الذي يحسدون عليه . انحنى بوغوص بك أمام صاحب الهيلمان وقال :

- سيدي الوالي ... بعد إذن سموكم، فقد سمحت لنفسي بحكم منصبي بدعوة القنصل الفرنسي ليتشرف بلقائكم، وهو بالخارج ينتظر الإذن له بالدخول، بصحبة نجلكم الأكبر إبراهيم باشا .

تعجب الوالي للحظات، وشرع يعبث بخنجره قليلا، ثم ألقى نظرة سريعة على محتويات الملف من رسائل وخطابات، وابتسم قائلا :

- أنت أرمني خبيث يا بوغوص !

هز رأسه موافقا . وما إن دخل القنصل الفرنسي خلف ابن الوالي حتى أدى التحية الواجبة ثم صاح بابتسامة دبلوماسية :

- حسنا سيدي الوالي ... ستقلع سفينة البريد غدًا من الإسكندرية، وبها استدعاء سريع للسيد رينيه فريدمان أشهر طبيب في باريس متخصص في القضاء على الكوابيس الليلية .

ابتسم الباشا شاكرًا ورمق بوغوص بك بنظرة ماكرة مبطنة بشكر وامتنان تكشف عمق العلاقة بين الرجلين، فالسيد بوغوص بك يعمل في خدمة الوالي منذ

خمس سنوات رئيسا لخزانة جمارك دمياط، ونظرًا لكفاءته ونزاهته أصدر محمد علي قرارًا بتعيينه ناظرًا للتجارة والأمور الإفرنجية، ومن يومها وهو ذراعه اليمنى فيما يخص جميع العلاقات مع دول أوروبا بكل تخصصاتها . اعتدل الباشا في جلسته فوق الأريكة المكسوة بسجادة فارسية ذات زخارف نباتية وحيوانية آسرة، ثم سأل القنصل، بينما يرنو بعينيه إلى بوغوص وإبراهيم لحثهما على الإنصات لرد الزائر الدبلوماسي :

- أين وصلت جيوش الامبراطور بونابرت الآن؟

فأجاب القنصل بفخار :

- إنه يحقق الانتصار تلو الانتصار في أوروبا كلها، وقريبًا سيمحق قيصر روسيا المتغطرس نيقولا الثاني ويقتحم موسكو .

ثم أردف منافقا :

- هل تعلم سموكم أن الامبراطور العظيم بونابرت مولود في العام نفسه الذي ولدتم فيه؟ أي في عام 1769 لذا فهو محظوظ والرب يرعاه في ملكوته .

(أهلا بالنفاق الرخيص أيها القنصل) قال الباشا لنفسه، ومع ذلك فقد انفرجت أساريره وعبث بلحيته الكثة كعادته كلما أطرب مسامعه ثناء أو تقريظ، وتساءل مرة أخرى :

- ألا يجد معارضة لقراراته الجريئة وحروبه العديدة؟

اندهش إبراهيم من سؤال والده، وتبادل مع القنصل نظرة استفهام سريعة قبل أن يجيب الأخير :

- أبدًا سيدي الوالي ... فالشعب الفرنسي كله يحب بونابرت، بالضبط كما يحبك هنا الفلاحون المصريون وكل من يقيم بالقاهرة والإسكندرية والصعيد من بني

أوروبا . أنتما تصنعان التقدم والحضارة في العالم كله ... وسيذكر التاريخ بكل تيه وإعجاب أن مطلع القرن التاسع عشر قد حظي بأهم قيادتين منذ عهد الإسكندر الأكبر .

ازدادت بشرة الوالي احمرارًا من فرط المديح، وأمر خادمه بتقديم كأس نبيذ للقنصل الذي انتهز الفرصة وخاطب الوالي وعيناه تطلبان المساعدة من بوغوص بك :

- أرجو أن تسمحوا لي سموكم بافتتاح محل بالأزهر لاستيراد الأثاث الفرنسي وبيعه .

وافق الوالي على الفور وأمر ناظر التجارة قائلا :

- يا بوغوص ... لا تفرضوا أي ضرائب على سعادة القنصل لمدة خمس سنوات .

وزاد بأن قال :

- وسوف أكون أول من يقتني منك عدة قطع من الأثاث الفرنسي الفاخر، فزوجتنا أمينة هانم مغرمة بما يبدعه الفنان الفرنسي من ابتكارات في عالم المفروشات والأثاث والرياش .

انحنى القنصل شاكرًا، وبالغ في انحنائه ليقبل طرف السجادة الفارسية التي يجلس عليها الباشا كما هو معمول به في البروتوكول العثماني، ثم انصرف مغادرًا .

14

عقب انصراف القنصل، نهض محمد علي من مكانه بتثاقل وتوجه نحو النافذة، فتوقف الخدم عن ممارسة عملهم المجهد البليد في جلب الهواء، إذ كانوا يدركون أنه قد يظل هناك ما يزيد عن نصف ساعة يرنو إلى الأفق بتركيز شديد . لقد اعتاد الوالي على معانقة الذكريات كلما ألمّ به شيء كريه في منفاه الاختياري هذا كما كان يطلق على مصر عادة . استند بساعديه على حافة النافذة وتأمل سفح جبل المقطم الرابض أمامه كجسد هائل لحيوان خرافي لا يعرف الرحمة . أزعجته قسوته اللانهائية ولونه الترابي المحروم من الخضرة، فاستعاد منظر جبال «قولة » بالأناضول حيث كان يمرح ويلهو وهو طفل مشمول برعاية والديه وعطفهما، فانتابته غصة حنين، ورأى نفسه في مرآة الماضي صبيًا ماهرًا في صعود الجبال متفوقا على منافسيه الصبيان لبراعته في التسلل بين غابات الأشجار الكثيفة، وتعجب لماذا يبدو

المقطم قاحلا محرومًا من الاخضرار؟ لقد كانت جبال «قولة » مكسوة بالأشجار المزدهرة التي تنعش الروح، فكيف يطيب العيش في مدينة بلا جبل أخضر؟ ثم دهمه خاطر غريب ... أية مقادير ملعونة انتشلته من حضن الجبال الخضر والمراعي الشاسعة على شاطئ البحر في مدينته الأوروبية وقذفت به إلى مصر بجفافها وصحرائها وصراعاتها الدموية؟ هل يمكن أن يأمر بزراعة هذا الجبل الموحش القاسي؟ هل سيأتي يوم يطلّ فيه من نافذة قصره فتصافح عيناه الخضرة في كل مكان؟ ألا يمكن أن يكون هذا الجبل مأوى لأشباح المماليك الليلية التي تطارده كل ليلة منذ المذبحة؟ وهل ستنجح خطة شركان الناغي وأكباد الذئاب النيئة في محق هذه الأشباح واصطياد النوم الهانئ؟ تفكر مليًّا وغمغم بصوت غير مسموع ... يومًا ما سأصدر أوامري بزراعة جبل المقطم .

15

بعد منتصف ليل ذلك اليوم استيقظ بوغوص بك مذعورًا عندما وصله رسول من الوالي يطالبه بالذهاب فورًا لمقابلته في القلعة، نفض غبار النوم عن عينيه بحركة عصبية من ظهر يده فركهما به، وأمر خادمه بإخراج الفرس من الحظيرة وإعدادها سريعًا للانطلاق، بينما باطنه يتساءل بقلق وهو يحشر جسده في سروال من القطيفة السوداء (ماذا جدّ حتى يستدعيني الوالي من داري بالحي الإفرنجي في الثالثة صباحًا؟ هل ظهرت الأشباح المملوكية بكثافة فسرقت منه النوم؟ هل وصل فرمان من الباب العالي بإقالته؟ هل يعاني من حُمّى مفاجئة؟).

ممتطيًا فرسه وسط ظلمة حالكة اخترق بوغوص بك الطريق المترب من الأزبكية حتى القلعة في أقل من عشر دقائق، إذ غمز الفرس غير مرة لتسرع الخطى

وتمضي في ركضها، وقد تلقى تيارات هواء بارد رغم أن أبريل يستعد للرحيل، وما إن أدخله الحراس إلى الصالة الرئيسية حتى فوجئ بمحمد علي يقطعها ذهابًا وإيابًا بوجه مكفهر وأعصاب مضطربة وراحته تقبض بقوة على خنجره ذي المقبض العاجي الثمين، بينما يتساقط الضوء المنبعث من المشاعل المثبتة على ارتفاع قريب من الأرض على وجه الباشا فيزيده غموضًا وإثارة . وشعر بوغوص أن النار اشتعلت في القلعة !

كان الباشا مرتديًا سروالا بنيًا من القطيفة وحزامًا من الحرير الدمشقي ومعطفا أسود ... ورغم عناكب الأرق التي تنهش كيانه، إلا أن عينيه لم تفقدا بريقهما الحاد . استقبله دون مصافحة أو تحية وابتدره قائلا بلهجة عصبية :

- يا بوغوص ... آن لنا أن ننفذ أوامر الباب العالي ونشنّ حربًا على ابن عبد الوهاب وأتباعه في شبه الجزيرة ... إنهم عصابة

من رجالٍ أشداء غلاظ القلوب سيطروا على مكةَ المكرمة والمدينة المنوّرة، وفرضوا آراءهم المتعصبة على الناس وأعلنوا العصيان على السلطان العثماني .

ثم بلهجة أقل عصبية :

- أنت تعرف أنني ماطلت الأستانة طويلا، لأنني لم أكن مستعدًا، وهذا أزعج السلطان العثماني كثيرًا بكل تأكيد، والآن ... لا مفر من تنفيذ الأوامر بعد أن استتب الأمر لي في مصر المحروسة .

تنهد ناظر المالية ارتياحًا، وحبك عمامته البيضاء جيدًا، وهمس بنبرة خشوع :

- سموكم تأمرون ونحن ننفذ .

- إنها حرب طويلة ومكلفة، فمن أين لنا تدبير المال والسلاح والعتاد؟ وأنت تعرف أن مصر ليس بها مصنع سلاح واحد !

وقبل أن يرد هتف الباشا :

- أريد تدبير 70 ألف بورصة في أسرع وقت !

- هل نفرض ضرائب جديدة؟

فأجاب بلا تردد :

- أجل ... فلنقرر ضرائب على كل فئات الشعب، ومن يرفض الدفع فلا رأفة معه حتى لو كان شيخ الأزهر أو شاهبندر التجار !

تفكر بوغوص بك مليًّا، ثم قال :

- ما رأيكم لو نزيد نسبة الضرائب على التجار الأقباط؟

فابتسم الوالي للمرة الأولى، وقال :

- رغم أنك مسيحي يا بوغوص، إلا أنك ناظر مالية ذكي ... فعندما يرضخ الأثرياء الأقباط، ستنصاع الأغلبية المسلمة من الأغنياء والفقراء ... هيا ... اكتب لي قرارًا بذلك، وليعلق على مداخل الحارات،

ولينطلق به المنادون في الشوارع والأحياء وعلى المنابر في المساجد والصلوات في الكنائس .

انتشى بوغوص بالمديح، وواصل اقتراحاته ليستزيد من رضا الوالي، فقال وهو يرمق أحد الحراس العبيد :

- ما رأي سموكم لو أعدنا تشغيل مصنع الزوارق الحربية ببولاق، فنحن لا نملك أي أسطول حربي؟

اندهش الباشا، واقترب من الرجل ووضع يده على كتفه وقال وهو يدرك صحة كلامه :

- تقصد المصنع الذي أسسه بونابرت وأغلق بعد رحيله؟

- أجل يا سيدي ... بناه المهندس الفرنسي «فيرو » ، وسوف يتولى صناعة الزوارق التي تحتاجونها في حربكم الظافرة

المقبلة في شبه الجزيرة، ثم تنقل هذه الزوارق أجزاءً أجزاءً على ظهور الإبل حتى السويس على البحر الأحمر، ليتم تجميعها هناك وتنزل البحر مثلما كان يفعل بونابرت وجنوده !

هز الوالي رأسه موافقا وخيلاء الانتصار المقبل تدغدغ مشاعره وأمره قائلا :

- إذن ... استدع المهندس الفرنسي الذي شيّده وأجزل له العطاء !

قال الوالي لنفسه (بوغوص كنز لن أفرط فيه أبدًا). وفجأة دلف أحد الحراس ليخبر الوالي أن كبير الشرطة في الخارج ينتظر المثول بين يدي الباشا، فتعجب بوغوص بك من توقيت الزيارة، لكن الوالي ابتسم وأذن له بالدخول، فكبير الشرطة هو الوحيد الذي يتمتع بحق الدخول أو المثول أمام الوالي دون موعد أو إذن سابق . أيقن بوغوص أن هناك أمرًا ما، وإذا بكبير الشرطة ذي العينين الزرقاوين يتقدم أربعة

رجال من أتباعه وقد حملوا مقطفين كبيرين غطي كل منهما بخرقة سوداء من قماش ثقيل، في حين فاحت منهما روائح دم ساخن، وبحركة مسرحية تلوح بالانتصار انحنى الرجل وقال :

- سيدي الوالي ... يشرفني أن أتقدم لسموكم بأخلص التهاني وأضع بين أيديكم رؤوس ستين مجرمًا من بقايا المماليك وأتباعهم من البدو الذين حاولوا التمرد على حكمكم الرشيد .

ثم أمر رجاله برفع الغطاء عن كل مقطف، فاقترب الوالي قليلا وألقى نظرة سريعة على الرؤوس المقطوعة، فتقلصت ملامحه للحظة، وتردد في مسامعه صدى موجع لطلقات رصاص أبادت خصومه كلهم في ليلة واحدة، فانقبض فؤاده وأشاح بيده بحركة لا إرادية وابتعد، آمرا بتعليق الرؤوس على الحراب في الطريق المؤدي إلى الأزبكية بعد قطع أذانها وإرسالها إلى اسطنبول، حتى يعلم القاصي والداني

المصير الأسود لكل من يفكر في التمرد على الوالي !

ثم توجه نحو الأريكة الرئيسية، وتمدد بهدوء، وقد لانت قسمات وجهه وشرد للحظات قبل أن يشير إلى أحد الخدم طالبًا إعداد طعام الإفطار والشيشة وإحضار الملف المختوم بالشمع الأحمر من فوق المكتب، بينما يرمق ناظر ماليته بامتنان ويردد في سريرته (بوغوص كنز لن أفرط فيه أبدًا) ثم قال له :

- هذا الملف يجب تصديره مع سفينة البريد المتجهة إلى الإسكندرية اليوم، ومنها إلى سكرتارية الصدر الأعظم في اسطنبول مغلقا كما هو طبعًا .

16

انقض عويس الفرارجي على عصفور الحداد وأسقطه أرضًا قبل أن يدنو من دار كبير الشرطة بالدرب الأحمر . وهمس في أذنه وهو منكفئ فوقه :

- هل أنت مجنون يا عصفور؟ تريد أن تقتل كبير الشرطة؟ هات هذا السكين !

لم يدرك عصفور أن شرر الانتقام الذي أطل من عينيه هذا النهار نبّه صديقه الحميم، الذي ظل يراقب صاحبه بعد أن غادرا المقهى . لقد باح عصفور لعويس بالنار المتأججة في صدره عندما قال :

- إن أبي مات ظلمًا تحت وطأة التعذيب الشديد .

فأردف عويس وهو يتناول الخروب :

- الظلم صار سحابة سوداء تجثم على

سماء المحروسة منذ جلس الباشا على عرشها .

- هل لأن والدي يمرّ على الخمارة كل أسبوع يصبح متهمًا بقتل الخواجة أندرياس؟

- من سوء حظه أنه كان هناك في الليلة المشؤومة .

فاحتد عصفور وصاح :

- لم يكن بمفرده، كان هناك أجانب كثر وحفنة من المصريين، فلماذا أمسكوا به وحده هو فقط؟

بنظرة شفقة وعينين عسليتين همس عويس الفرارجي :

- هوّن عليك يا عصفور ... لقد اعتقلت الشرطة ستة من رواد الخمارة في هذه الليلة وأربعة آخرين كانوا يتعاملون مع الخواجة أندرياس .

- لكن لا يوجد بينهم أجنبي واحد ... كلهم مصريون !

فعقب عويس ساخرًا :

- هم الملائكة ونحن الشياطين !

فقال عصفور بعصبية :

- لكنهم أفرجوا عن الجميع إلا أبي .

- حظهم طيب، فمن النادر جدًا أن يخرج أحد من سجون الوالي حيًا، رغم أنهم خرجوا محطمين ومشوهين من شدة التعذيب كما سمعت من السقاء أمين الدواخلي .

عاد عصفور وقال بتصميم حاد :

- سأقتل كبير الشرطة ... والله العظيم سأقتله ... هذا الأرمني المسيحي المجرم الذي ألصق بأبي تهمة القتل ظلمًا !

هبت رياح ساخنة مفاجئة عكّرت صفو النهار، لكنها لم تؤثر في قرار عويس بمراقبة عصفور، فلما حلّت ساعة التنفيذ تمكن عويس من الإمساك بصديقه قبل أن يرتكب حماقة تودي به إلى التهلكة .

17

ودّع عصفور صديقه شاكرًا ومضى ساهمًا نحو مقابر باب النصر، حيث دفنوا جثة أبيه قبل يومين . لا يأبه بنباح الكلاب الهائجة في تلك الليلة المظلمة، ولا يهتم بصيحات السهرانين في المقاهي . يتلقى دفقات طرية من هواء بارد إلى حد ما بالنسبة إلى هذا الوقت من مايو، فتنتعش قليلا روحه المعذبة . جلس القرفصاء مستندًا بظهره إلى جدار المقبرة متأملا النجوم الساهرة في السماء مستسلمًا لتيار الذكريات المفعمة بالأسى والشجن . مستعيدًا لقطات سريعة من تاريخ علاقته بأبيه . تذكّر كيف كان يُقرئه القرآن الكريم قبل أن يذهب به إلى الكتّاب وهو لم يكمل الخامسة بعد، ثم كيف ألحقه بالأزهر الشريف مشددًا ومتمنيًا أن يصبح أحد علمائه الأفاضل مرددًا (ولتكن يا بنيّ مثل الشيخ عبد الله الشرقاوي أو حسن العطار). تذكر كيف علّمه حرفة الحدادة وفنونها . تذكّر حنان والده السخيّ ونصيحته الدائمة

(الطيب ينال الحسنيين ... في الدنيا والآخرة يا عصفور، فلتكن الطيبة شعارك في تعاملك مع الناس) وتساءل مستنكرًا بغضب : هل ممكن أن يرتكب إنسان رقيق مثله جريمة قتل كهذه؟ ثم تعجب كيف لرجل مثله كان يحفظ القرآن ويواظب على الصلاة في المسجد، ويقتصد ما تيسر من ماله ليحقق حلم حياته بالذهاب إلى الحج، ومع ذلك لا يتردد في معاقرة الخمر كل أسبوع حتى يفقد الرشد . وكم قال له مبررًا (أنا لا أرتاد الخمارة إلا كل خميس لأطفئ فيها نار غضبي من الظلم المستشري في حياتنا، لكن أقسم لك يا عصفور أنني لن أتناول الخمر مطلقا عندما يمنحني الله نعمة الحج إلى بيته الحرام بمكة المكرمة، وأنعش روحي بزيارة روضة الرسول الكريم بالمدينة المنورة). يتذكر بحسرة ... ويبكي بصمت، ويدسّ رأسه بين ركبتيه يائسًا، فيستسلم لغفوة قصيرة يرى فيها أباه ممتطيًا جملا ذا أجنحة أضخم من جبل المقطم يرتفع به نحو السماء، فيهتف مناديًا (أبي ... أبي ... لا تتركنا)

فيجيئه صوت أبيه مغلفا بالصدى والندى (يا عصفور ... انتظرني عند بركة الأزبكية ومعك أدوات الحدادة، لنفتح ورشة جديدة هناك).

18

في ظهيرة أحد أيام شهر مايو استأذن إبراهيم باشا وبوغوص بك في مقابلة الوالي، حيث قال الثاني بصوته الهامس :

- سيدي الوالي ... القنصل الفرنسي وبصحبته كبير تجار اليونان بمصر يريدان التشرف بالمثول بين أيدي سموكم .

أذن لهما محمد علي، وما إن دخل الرجلان حتى انحنى كل منهما أمام مجلس الوالي، وبادر القنصل الفرنسي قائلا بأدب :

- ألف ألف شكر سموكم ... هكذا تجري العدالة في ظل حكمكم النبيل لولاية مصر .

ثم أشار إلى مرافقه ليقدمه :

- هذا السيد قسطنتين كبير التجار

اليونانيين بمصر جاء ليقدم لكم جزيل الشكر والعرفان .

فابتسم محمد علي باشا، وهو يوزع نظراته بين ابنه إبراهيم وبوغوص بك، حيث لاحظ أن بدانة السيد قسطنتين تفوق التصور، بينما تولى أحد الخدم تبديل جمرات الشيشة، ثم قال الباشا بأداء مسرحي وصوت فخيم :

- فلتعلم يا سعادة القنصل ولتعلم يا سيد قسطنتين أنني لم أكن أستطيع النوم قبل أن نعرف من قتل المرحوم أندرياس ... لقد أبلغني بوغوص بك بالخبر المشؤوم، فأصدرت أوامري إلى كبير الشرطة بسرعة القبض على الجاني . وبالفعل أبلى رجال الشرطة عندي بلاءً حسنًا، وفي ظرف أسبوعين اثنين فقط توصلوا إلى القاتل المجرم، وهكذا أصدرنا أوامرنا بإعدامه فورًا .

حرّك القنصل الفرنسي رأسه إعجابًا، وقد

تزيّن صدره بنياشين وأوسمة نالها من الإمبراطور بونابرت شخصيًا :

- أعرف ذلك سموكم، ولنشكر الرب الذي ألهم كبير الشرطة القبض على القاتل سليمان الحداد بسرعة، لذا جئت أقدم لكم شكر حكومتي وشكري الخاص، فسموكم يعلم عمق الروابط التي تجمع أهل اليونان مع فرنسا .

فقال الوالي بنبرة العليم بكل شيء :

- أعرف طبعا، فالتجار الفرنسيون يتعاونون مع تجار اليونان في أمور كثير هنا في بلدي .

فعقب القنصل سريعًا :

- هذا من فضل سموكم ورعايتكم لنا، وقد تبدى ذلك جليا في قضية مسيو أندرياس .

ثم استدار نحو إبراهيم باشا الذي وقف خاشعًا في حضرة الوالي، وهمس :

- لقد كان نجلكم إبراهيم باشا يبلغني تطورات التحقيق في هذه الجريمة البشعة أولا بأول، ويؤكد لي حرص سموكم على الوصول إلى الجاني في أقرب وقت ممكن رغم ظروف وغموض وملابسات الجريمة .

فعقب بوغوص مؤكدًا وهو يشير إلى الابن والأب :

- هذا الشبل من ذاك الأسد .

فهزّ الباشا رأسه مؤكدًا وقال مفاخرًا بعد أن جذب نفسًا عميقا من الشيشة :

- ابننا إبراهيم باشا شاب موهوب جدير بالثقة .

ثم توجه نحو كبير التجار اليونانيين قائلا :

- أرجوك يا سيد قسطنتين أن تبلغ عزائي إلى كل اليونانيين في مصر وإلى أسرة المرحوم أندرياس .

بهذه العبارة أدرك القنصل الفرنسي أن المقابلة انتهت، فأشار إلى رفيقه البدين، حيث انحنيا ليقبلا طرف السجادة وانصرفا شاكرين، بينما تابع محمد علي بعينيه مستغربًا حركة إليتي كبير التجار اليونانيين وهما تهتزان كنهدي امرأة بدينة، فأطلق حينئذ ضحكة عالية وسط ذهول بوغوص وإبراهيم !

19

امتلأ خان الملذات عن آخره هذه الليلة، وتولت بعض الخادمات فتح النوافذ وإشعال المزيد من الشموع ومصابيح الكيروسين، وحملت إحداهن الفازة الزجاجية وغسلتها وغيّرت ما بها من ماء ووضعت فيها زهورًا جديدة ثم أعادتها إلى مكانها المعتاد فوق البيانو الرابض في الجانب الأيسر من الصالة الرئيسية بعد أن نفضت عنه آثار الأتربة والدخان . كما أقدمت أخريات على فتح عدد كبير من زجاجات النبيذ والويسكي، وبدا العبد هلال الأسود في وقفته المهيبة أمام المطبخ كحارس خيالي لزوّار الخان، وفرحت مدام آماليا بالزحام والأموال التي تتدفق إلى جيبها كلما صُبّت الخمر في الكؤوس، لكن النقاش والجدال حول مقتل الخواجة أندرياس عطلا قليلا إقدام الزبائن على اصطحاب العاهرات إلى الغرف المغلقة، وفوجئت صاحبة الخان بالشعبية الكبيرة التي تمتع بها القتيل، وهتفت بحسرة

وهي تتوسط الزبائن في الصالة الواسعة المستطيلة :

- لم أكن أعلم أن السيد أندرياس معروف للجميع هكذا .

فأطلق التاجر باباندريو ضحكة ساخرة مقتضبة وقال :

- معروف للجميع نعم يا مدام آماليا ... لكن محبوب من الكل ... أظن لا !

أبدت سيدة الخان انزعاجًا تجلّى في نظرتها المتحدية وخاطبته وهي تتناول كأسًا من النبيذ :

- لم؟ ألم يكن رجلا كريمًا؟ ألم ينقذ تجارتك هنا في القاهرة يومًا ما يا سيد باباندريو؟ أم نسيت؟

فأقبل التاجر ذو الوجه النحيف والأنف المدبب نحو صاحبة الدار وهمس :

- بلى ولكنه كان يقرضنا بفوائد باهظة، فهل يعقل أن يعطيني 1000 تالاري اليوم، ويأخذها ألفين بعد عام؟ إنه شيلوك اليونان الحديث .

فتدخل أحد الحضور قائلا :

- يا جماعة ... فلندعُ بأن يغفر له الرب، وقد نال المجرم عقابه وأعدمه الباشا كما أبلغنا سعادة القنصل الفرنسي وكبير تجارنا السيد قسطنتين .

فتساءل باباندريو بخبث وبنبرة تحدٍّ :

- وهل صدقتم الرجلين؟ إذن ... أين أموال أندرياس؟ ألم تؤكد هيلين ابنته الوحيدة أنها لم تجد الكيس الذي يحتفظ فيه بالنقود؟ كما لم تعثر على أي أثر للصندوق الخشبي الذي كان يخبئه في خمارته، والذي يمتلئ بالجواهر والذهب والعملات الفضية كما أعلنت ابنته؟

علت همهمات، وانطلقت استفهامات وتخمينات، ووجهت اتهامات لكبير الشرطة وأعوانه، وقالت مدام آماليا إنها ستتوجه للسيد قسطنتين والقنصل الفرنسي لتطلب منهما الاستفسار عن أموال أندرياس ومقتنياته الثمينة وهل تم استرجاعها، أم أن القاتل أخفاها؟ وفجأة شعرت بنظرة شبقة تنطلق من عيني العبد هلال تخترق الجموع وترتشق كالسهم بنهديها، ففرحت بها، لكنها كتمت مشاعرها وتيقنت بأن غريزتها الأنثوية لم تكذب، فالعملاق الأسود مفتون بها في صمت، وقالت لنفسها بثقة (العبد العاشق خادم أمين وسلاح فتاك عند الضرورة). ثم أشارت بيدها إلى عازف البيانو المُسنّ ذي البشرة الصفراء، فانبعثت الموسيقى الناعمة في البداية، فأدركت آماليا أن البيانو صار في أفضل حال بعد التصليح والضبط، ثم تحوّل فجأة إلى عزف سوناتا «ضوء القمر » لبيتهوفن، فانفعل الحضور وتوهجت أجسادهم بحركات نشيطة، وبادر باباندريو فصاح وهو يرفع كأسه

مخاطبًا العازف بنشوة :

- برافووو يا فناننا الكبير ... هذه أول مرة تُعزَف فيها سوناتا «ضوء القمر » في القاهرة رغم أن بيتهوفن أبدعها منذ عشر سنوات !

فهمس أحدهم في أذنه وتساءل متهكمًا :

- وهل تظن أن المصريين يعرفون عن بيتهوفن وسوناتاته شيئا؟

فقهقه باباندريو، وقبل أن يعلق مرت بجواره عاهرة فقرصها في مؤخرتها فأطلقت ضحكة ماجنة، ولعبت الخمر بالرؤوس، واشتعلت الشهوة في الأبدان على إيقاعات الموسيقى، وطوق الرجال البغايا بنهم وساروا بهن إلى المخادع، فتراجع شبح أندرياس إلى آخر زاوية في خان الملذات !

20

مع انتصاف شهر مايو، وبعد عدة أيام من إعلان خبر إعدام سليمان الحداد، اخترقت شارع بين القصرين ساعة الأصيل عربة كارو تجرها بغلة عجوز تحمل أغراض رجل فرنسي . كل من رأى العربة وما تحمله من متاع تأكد أن الغريب القادم ليس عابر سبيل، وإنما جاء ليقيم، بينما الرجل يرنو إلى البيوت والجوامع والحوانيت والناس بحنان غريب، كأنه يعرفهم ويعرفونه من قبل . وعند الوصول إلى حارة الدرب الأصفر، تصدت للعربة جارية سوداء أوقفتها، ثم صاحت مهللة :

- الخواجة شارل ... ألف حمد للّه على السلامة !

ابتسم الرجل، وقال بلهجة مصرية لا بأس بها :

- ياقوتة ... كيف حالك؟

فتساءلت باهتمام حقيقي :

- متى وصلت؟

- قبل قليل، حيث رست المركب القادمة من الإسكندرية في ميناء بولاق .

قفز من العربة وتوجه نحوها كمن وجد كنزًا .

21

قضى الخواجة شارل ليلته الأولى في داره القديمة المواجهة لبيت السحيمي بحارة الدرب الأصفر، يتزود من مياه الحنين ويستعيد ذكرى الأيام الخوالي . لقد ساعده القنصل الفرنسي في إخلاء الدار وتعويض ساكنها بمبلغ معتبر قبل أن يؤجرها مالكها للرسام الوافد من باريس . وهذا المساء سأله القنصل وهما يتناولان النبيذ الأحمر :

- مسيو شارل ... لماذا أصررت على العودة إلى هذه الدار تحديدًا؟

فابتسم الخواجة شارل وقال :

- لا أتذوق القاهرة إلا إذا كنت مقيمًا بهذه الدار ... أرسم وأقرأ وأستقبل أصدقائي بها، لقد عشت فيها تسع سنوات قبل إجباري على مغادرة مصر قسرًا .

ثم نادى ياقوتة :

- العشاء تأخر يا ياقوته .

ضحك القنصل وقال وهو يحسو رشفة من قدح النبيذ :

- كيف استطعت الحصول على خادمة بهذه السرعة؟

قهقه الخواجة شارل وقال :

- إنها معرفة قديمة قبل أن يخرجني الوالي من هذه البلاد الطيبة دون ذنب جنيت .

ثم استطرد سريعًا :

- أكرر لك شكري الجزيل سعادة القنصل لأنك استطعت إقناع الوالي بالعدول عن قراره السابق والسماح لي بالعودة مرة أخرى إلى قاهرتي العزيزة .

فضحك القنصل ورفع سبابته محذرًا :

- عليك أن تفكر بسرية تامة كما يحلو لك، ولكن إياك والكلام في السياسة مع المصريين مرة أخرى يا فنان !

فأعلن الرجل توبته وصاح وهو يتناول قدح النبيذ :

- لا سياسة ولا يحزنون كما يقول المصريون ... الباقي هو الفن ... فالمجد للفن يا عزيزي القنصل .

22

في صباح يوم حار استدعى محمد علي باشا ابنه إبراهيم إلى مقر الحكم بالقلعة، كان رائق المزاج يجلس في قاعة كبيرة متناسقة التقسيم والمساحات ومزدانة بقطع من الأثاث الفرنسي تتدلى من سقفها نجفة كريستال ضخمة مضاءة بالشموع المصنوعة من شحم الخنزير، وقد اتخذ مجلسه على أريكة مغطاة بأقمشة وثيرة فاخرة منسوجة بخيوط من الذهب، يدخن الشيشة ويتناول بعض فواكه الصيف، وما إن دخل عليه إبراهيم حتى سأله الوالي باهتمام :

- ها ... ما أخبارك؟

- الحمد لله .

- هل أنجزت المهمة؟

فارتبك الابن وتساءل :

- آية مهمة؟

- هل أنجزت صفقة زراعة الأفيون مع القنصل الإنجليزي كما أمرتك؟

تكدر وجه الابن، وارتبك، وأجاب بنبرة المدافع عن نفسه :

- هذا القنصل الإنجليزي طماع وعنيد، ويصر على الحصول على نسبة كبيرة جدًا من قيمة الصفقة .

حدجه الوالي بنظرة قاسية، وقال بحدة :

- وليكن، فتجارة الأفيون مربحة جدًا لي، ويجب أن نزرعه في مصر، ولكن من أين سيجلب القنصل تقاوي الأفيون؟

- من بلاد الأفغان عن طريق شركة الهند الشرقية كما أبلغني .

فتفكر قليلا وقال :

- ولماذا لا يجلبها من مدينة أنطاكية على البحر الأبيض؟ فزراعة الأفيون منتشرة هناك، لأن الأتراك يفضلون تعاطيه وتصديره إلى أوروبا .

نفى إبراهيم بكتفيه قبل شفتيه قائلا :

- لا أدري، ولكن ربما لأن المناطق الحارة بيئة ممتازة لزراعة الأفيون الجيد ذي البذور القوية وفيرة المحصول .

- وإلى ماذا توصلتما؟

غض بصره خجلا وهمس قائلا :

- لا شيء ... لقد توقف النقاش بيننا .

تقلصت ملامح الباشا على غضب مكتوم وغمغم بصوت غير مسموع، ثم أمر الحراس بإشارة من إصبعه بمغادرة القاعة، بمن فيهم أولئك الذين يصطادون لسموه بمراوحهم الضخمة تيار الهواء البارد في النهارات الحارة .

تعجب إبراهيم من سلوك والده واضطرب فؤاده، إذ ظلت نظرة أبيه الحادة بعينيه البنيتين مصدر رعب له، لكن الباشا طلب من ابنه أن يجلس بجواره على الأريكة، ففعل بأدب جم بينما وجيب قلبه يزداد خفقانا . وبعد أن وضع لاي الشيشة جانبًا، قال محمد علي بنبرة الحكيم :

- أنصت جيدًا إلى هذه النصائح الثلاث لتعرف كيف تستمتع بحكم مصر من بعدي دون منغصات أو قلاقل .

تنهد إبراهيم بارتياح وقال لأبيه :

- طول العمر لك يا أبي العزيز .. ومع ذلك كلي آذان مصغية .

اعتدل الباشا قليلا ومال بجذعه نحو ابنه وهمس :

- اسمع يا إبراهيم .. إرضاء القناصل الأوروبية هو الهدف الأول والأهم لتضمن

بقاءك في حكم مصر بهدوء . هذه نصيحتي الأولى، خاصة قناصل الدول القوية المؤثرة مثل إنجلترا وفرنسا وروسيا، تلك الدول التي تستطيع الإطاحة بحكمي إذا أرادت وصممت، فهي تملك الجيوش الجبارة . وقد رأيت بنفسك رد الفعل الإيجابي لقنصل فرنسا عندما أخبرناه أننا أعدمنا المجرم الذي قتل أندرياس حتى يهدأ ويثق بنا . كما شاهدت بنفسك سروره الكبير عندما حققت رجاءه ووافقت على السماح بعودة الرسام الفرنسي شارل إلى القاهرة مرة أخرى رغم أنني أبعدته منذ ست سنوات .

- ولماذا سمحت سموكم بعودته؟

ابتسم الوالي بخبث وقال :

- لقد أمرت بإبعاده في نهايات 1805 ، أي في بداية فترة اعتلائي قمة السلطة في مصر، وكانت الأوضاع آنذاك متوترة جدًا في البلد ككل، فالمماليك يتآمرون ويفسدون،

والإنجليز يمكرون ويتربصون والعثمانيون يرفضون ويعاندون، فالكل كان يعمل ضدي، لذا صار من المحتم أن أواجه أي معارضة أو معارضين لي بالحزم والشدة، وكان الرسام الفرنسي شارل يروّج لأفكار هدامة تطالب بأن يحكم مصر رجل مصري من أبنائها، لكن الآن استتب الأمر لي تمامًا، فلا خطر من شارل أو غيره، لذا عندما طلب مني القنصل الفرنسي إصدار عفو يسمح للرسام بالعودة إلى القاهرة لممارسة عمله لم أتردد، بل وجدتها فرصة ووافقت حتى أضمن ولاءه لي، رغم أنني أخبرت القنصل بضرورة التزام الرسام بعدم الكلام في السياسة مع المصريين .

ثم تنفس بعمق وصمت قليلا، ليعقب بسخرية تشي باعتداد كبير بالنفس :

- وهل يوجد في مصر كلها رجل قادر على حكمها؟ إنهم مجرد فلاحين أو تجار أو رجال دين، لا أكثر ولا أقل، وقيادة شعب مثل المصريين في حاجة إلى رجل يمتلك القوة

والحزم والمهارة والحنكة والدهاء، وهذا الرجل غير متوفر بين المصريين بالمرة، والدليل أنه لم يحكمها أو يحكمهم رجل مصري منذ مئات السنين كما عرفت !

فتودد إبراهيم إلى أبيه مؤكدًا :

- ونعم الحاكم الحازم سموكم يا أبي .

ربت الوالي كتف ابنه بحنان وأكمل حديثه بجدية أشد :

- أما النصيحة الثانية كي تنعم بحكم مصر دون مشكلات، فهي تجنب غضب السلطان العثماني، والتقرب إلى الصدر الأعظم قدر المستطاع، فنحن نحكم ولاية من الولايات العثمانية، حتى لو كانت أهم الولايات وأكبرها وأكثرها غنى، ولا تنسَ أن الأتراك أنفسهم لا يحبونني بل يمقتونني، وأنت تذكر جيدًا كيف استصدروا فرمانا بإقالتي قبل خمسة أعوام وتعيين موسى باشا واليًا على مصر بدلا مني، ولكني

خدعتهم وراوغتهم حتى أسقطت فرمانهم المشؤوم، فأنا فتحت مصر بالسيف، ولن أتخلى عنها إلا بالسيف، واعلم جيدًا يا بنيّ أن الأتراك قوم يمكن شراؤهم بالمال بكل سهولة .

- وأين الشعب المصري من المشهد العام يا والدي؟

قهقه الباشا بصوته الأجش قائلا :

- أي شعب تقصد يا إبراهيم؟ إن المصريين مجموعة من الفلاحين الجهلة . لذا، وهذه هي النصيحة الثالثة، يجب أن تتعامل معهم بوصفهم حيوانات لا تريد سوى الطعام والتناسل، وعليك أن تنهكهم على الدوام وتقمعهم بلا رحمة حتى تستطيع ترويضهم والسيطرة عليهم سيطرة كاملة ودائمة .

- حتى التجار وشيوخ الأزهر؟

- الحاكم القوي يستثمر رجال الدين لصالحه، وهم بطبيعتهم المتوارثة قد اعتادوا على ممالأة السلطان أيًا كانت اتجاهاته ومشاربه، أما التجار الكبار فمصلحتهم مع الحاكم القوي الذي يحافظ على تجارتهم ويزيد من أرباحهم ويضمن لهم أمان رؤوس أموالهم .

- إذن لماذا يا أبي نفيت عمر مكرم قبل عامين، أليس من كبار التجار ونقيب الأشراف؟

- بلى وبكل تأكيد ... لكنه لجأ إلى إثارة العامة ضد قراراتنا ... إنه يحلم بالزعامة ويطالب بالشورى وإشراك المصريين في الحكم والإدارة ... ولكن هيهات ... لقد سقطت مصر في حجر محمد علي باشا وأسرته إلى الأبد ... بفضل عبقرية أبيك .

- ونعم العبقرية الفذة أنت يا أبي .

ابتسم الباشا، ونهض بحركة رشيقة

وتوجه نحو النافذة بخطوات ثابتة واثقة، فتبعه إبراهيم كظله، فالتفت إليه وسأله فجأة :

- ما رأيك في جبل المقطم يا بنيّ؟

ارتبك الابن ولم يعرف بماذا يجيب، فقال مستفسرًا :

- ماذا تقصد يا والدي؟

غمغم محمد علي وقال لنفسه (لن يدرك نعمة اللون الأخضر إلا من تربى في «قولة»)!

ثم رفع سبابته في وجه ابنه وقال بجدية :

- إياك أن تنسى هذه النصائح الثلاث، وصحّح علاقتك بالقنصل الإنجليزي بصفة عامة ولتبرم معه صفقة زراعة الأفيون في مصر بصفة خاصة !

23

- كفاك حزنا يا عصفور ... لن يرجع الحزن الشديد أحبابنا الراحلين .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يكرر فيها عويس الفرارجي تلك النصيحة على المقهى نفسه، حيث اعتادا أن يلتقيا يوميًا قبل المغرب في مقهى المعلم فجلة على ناصية درب الجماميز، لكن عصفور بدلا من أن يرتكن إلى جدار الصمت مثل كل مرة، إذا به يهمس لصاحبه :

- أريدك أن تأتي معي الليلة إلى خمارة أندرياس !

بهت الذي سمع وصاح عويس :

- هل جننت يا عصفور؟ هل تطلب مني أن أدخل خمارة لأشرب الخمر وأرتكب الفواحش؟ هل نسيت إسلامك أيها الأزهري؟ هل تريد أن تشتري الضلالة

بالهدى؟ ما أتعسك، ولولا أنني أعلم قدر حزنك على المرحوم والدك، ما جالستك قط بعد الآن، وهبّ واقفا ليغادر، فأمسك عصفور بجلبابه وأجلسه مرة أخرى وهتف :

- يا أخي ... لن نشرب الخمر ولن نرتكب الفواحش !

فعقب عويس ساخرًا :

- وماذا سنفعل في الخمارة إذن؟ هل سنؤدي صلاة العشاء؟ أم نبسمل ونحوقل حتى يرتفع أذان الفجر؟

بحركة لا إرادية من يده هش الذبابة التي تحوم حول جبينه وقال :

- يا عويس ... عندي شعور أن السر في مقتل الخواجة أندرياس موجود داخل الخمارة، ولابد من اكتشافه حتى أبرئ ذمة أبي، فأهل الحي يتبادلون الغمز

واللمز بأن والدي هو القاتل، ويا لقسوة القدر حينما يتحول الضحية إلى قاتل !

وهبت نسائم يونيو مبشرة بجو لطيف رغم هياج الذباب في المقهى .

24

سارا في اتجاه الأزبكية، اخترقا الحواري والأزقة يتحسسان وقع أقدامهما، فقد استحوذ الظلام على السماء والأرض معًا، وازداد معدل هبوب النسيم المقبل من الحقول القريبة مصحوبًا بأريج الأزهار ونقيق الضفادع المستثارة . مرّا على بعض المقاهي الغارقة في الدخان الخانق . عبرا ترعة صغيرة قبل أن يصلا إلى بركة الأزبكية، ثم انعطفا يمينا حتى بلغا مشارف الحي الإفرنجي .

- هذه هي الخمارة إذن !

قال عصفور بحسرة كمن وجد السر . رمق بابها الخشبي الضخم المزدان بحروف ورموز وعبارات أجنبية لا يعرفها وقال لصاحبه محفزا :

- هيا ...

لكن عويس الفرارجي توقف متسمرًا، رافضا الدخول للحظات، ومع دفعة خفيفة في ظهره من ابن الحداد، أمسيا في صحن الخمارة المضاءة بعدد من الشموع المثبتة فوق شمعدانات كبيرة وضعت في الزوايا والأركان .

لم يأبه عصفور لصخب السكارى الأجانب، ولم يلحظ حفنة من المصريين يتضاحكون بصوت عالٍ، ولم يسمع الموسيقى المنبعثة من بيانو يعزفه يوناني حزين، لكنه انتبه إليها، إذ كانت هناك ... تجلس مكان أبيها المعتاد ... تمحو بأنوثتها الطاغية أي صوت ... يقطر من عينيها الزرقاوين حزن هادئ وينساب من ملامحها الجمال الفتاك ... رآها ... تأملها ... فخرّ عصفور صعقا .

25

تحت شجرة جميز معمّرة جلس مستندًا بظهره إلى جذعها، ومضى يتأمل حاله . كان قد ودّع صديقه على ناصية درب الجماميز بحجة أنه متعب ويرغب في العودة إلى البيت، لكن عصفور واصل طريقه حتى بلغ مشارف الأزهر وسط ليلة مظلمة إلا من التماعات بعض النجوم الساهرة . لا يعرف كيف يتعامل مع طيف هيلين ابنة الخواجة أندرياس، فمنذ ساعة وهو يسير أسير محياها الفاتن . تذكر ماضيه المخجل مع النساء ومع الغريزة المزلزلة التي اقتحمته فجأة قبل سنوات قليلة وتلاطمت في جمجمته الأسئلة، كيف واتته الجرأة قبل عامين ليطارد مبروكة بائعة الخضروات في باب الخلق دون أن يحظى بلمسة يد؟ وكيف حشر نفسه في الخرابة القريبة من جامع البنات السنة الماضية ليقضي وطره مع بائعة هوى نسي اسمها الآن، بينما الظلمة الحالكة تستر الفعل المشين؟ تساءل

متحيرًا لماذا يزرع فينا اللّه تلك الغريزة من غير أن يوفر لنا طريقة سهلة لإشباعها دون خوف من جحيم؟ هل يسعد بتعذيب مخلوقاته؟ استغفر الرحمن، وعاد يسأل ... وهذه الفتاة القادمة من عالم المجهول كيف ستتعامل معه عندما تعرف أنه ابن قاتل أبيها كما يشاع كذبًا؟ هل ستمنحه فرصة الدفاع عن سمعة والده؟ هل ستقرر مغادرة هذا البلد الذي يقتل فيه الناس الأجانب؟ هل سيأتي يوم ويتمكن من لمس يدها؟ هل ستهبه المقادير نعمة تذوّق فواكه الفتاة الأوروبية؟ هل سيتوقف عن ممارسة العادة المجنونة التي تهلك منه الجسد وتعذب فيه الروح؟ أفاق من شروده على صوت صراخ امرأة تتعرض لضرب مبرح من قبل زوجها في البيت المقابل لشجرة الجميز، فنهض منزعجًا، والوجه الأوروبي المرمري يسطو على مخيلته وهو عائد إلى مسكنه مشوش الخاطر سقيم الوجدان .

26

اعتادت آماليا على زيارة القنصل الفرنسي لها في الظهيرة بين الحين والحين، لكن في هذا اليوم تحديدًا، طرق القنصل باب خان الملذات في السابعة صباحًا، فاضطرت أن تفتح له الباب بنفسها، إذ أن النوم العميق قد هزم فريق العاهرات بعد ليلة ماجنة استمرت حتى صياح الديكة، كما أن العبد هلال لم يكن بالخان، فقد ذهب لابتياع الخضروات والفواكه واللحوم من السوق كما يفعل كل صباح . قبّلها القنصل على وجنتيها، فانزعج قليلا من رائحة فمها المضمخة برائحة النبيذ وإفرازات النوم، قال بهمس ليطمئنها :

- لا تقلقي ... لكن عليك التركيز الشديد فيما سأقوله لك .

اضطربت المرأة وهي تهندم نفسها، وسألت بعينين ناعستين شحب لونهما الأخضر :

- خير ... سعادة القنصل؟

لم يجلس، وإنما ظل واقفا يتأمل فوضى الصالة، وابتسم ساخرًا :

- هل جنون الحب بهذه القوة حتى يفرّ من الغرف المغلقة ويدمر الصالة؟

لم تألف آماليا الهزل في مواقف الجد، فكشرت عن غضبها، وصاحت بصوت حاد نسبيًا :

- خير سعادة القنصل ... لقد أربكتني؟

فطوقها بذراعه بمودة أخوية وقال بجدية تليق بدبلوماسي مخضرم :

- اسمعي يا آماليا ... اليوم في تمام الواحدة ظهرًا سأزورك مصطحبًا معي الأمير أحمد طوسون ابن محمد علي باشا !

شهقت المرأة ورفعت حاجبي الدهشة

فتضخم جحوظ عينيها الخضراوين وهتفت :

- يا خبر أبيض ... ابن الوالي شخصيًا؟

- فلتستعدي لاستقباله بأجمل فتاة عندك، ولا تنسي أن أباه يفضله عن بقية أشقائه، فهو أكثرهم رقة ولطفا، ويبدو أن عشقه للموسيقى والغناء والطرب قد أسهم في ترقيق مشاعره !

ضحكت آماليا وقالت بثقة :

- سيذوق عندي عسل أجمل فتاة في أوروبا كلها !

27

فور مغادرته، صعدت إلى الطابق العلوي، طافت بمخادع العاهرات النائمات بقلب يثب من شدة الفرح . تلعب برأسها الأحلام ويراودها الخيال عن المبلغ الذي سيمحنه لها طوسون باشا نظير تمتعه بامرأة . على أطراف أصابعها دخلت الغرفة الأولى ووقفت أمام كل واحدة من النائمات بهدوء تام . تتفرس في جسدها وتتأمل ليونته ودرجة نضارته، كما تتفحص ملامحها وهي غارقة في وادي النوم السحيق . الأمر نفسه فعلته في الغرف الثلاث الأخرى .

كانت العاهرات شبه عرايا من شدة الرطوبة طوال الليل، فساعدها ذلك على عقد مقارنة دقيقة بين أجسادهن المرتخية، وشعورهن المشعثة ورائحة عرقهن، وقد استقر رأيها في نهاية التمحيص والتدقيق على أن صوفيا هي أجمل الهدايا التي تليق بالباشا الشاب، ورغم يقينها أنها ستخسر زبائن كثيرين

يفضلون صوفيا عن بقية أترابها، إلا أن المقام الرفيع لابن والي مصر يستحق أن تهبه أغلى الجواهر التي تمتلكها .

غادرت الطابق العلوي للخان، وهبطت درجات السلم على مهل . اتخذت مجلسها المعتاد في الصالة الرئيسة أمام البيانو . أشعلت سيجارة، وصبت لنفسها كأس نبيذ وهي تتناول قطعة خيار من بقايا طعام تركه زوّار الليلة الماضية . شردت قليلا وعضت شفتها السفلى وهي تتساءل ... آه لو أن أندرياس لا يزال حيًا، كيف كان سيتلقى هذا الخبر المدهش؟

وفرت من عينيها حفنة دموع .

28

اخترق شبح ظلمة الأزبكية . شبح رجل أجنبي تخلص من ملابسه الأوروبية المعتادة وحشر نفسه في ملابس رجل صعيدي كما كان يفعل عندما يقوم بزيارة معشوقته المصرية في الزمن الخالي . سار بحذر في دروب الحي الإفرنجي متجنبًا بقع النور التي ترسلها القناديل المضاءة على رأس الحارات في الأرض أو النجوم الساهرة في السماء . يتناهي إلى مسامعه نقيق الضفادع القادم من بركة الأزبكية . طاف حول البيت العتيق بقلب مترع بالأشواق الملتاعة . تلقى روائح الحقول القريبة من البيت، فتذكر الأيام الخوالي وداعبت خياله ذكريات وأحلام وآمال . فوجئ بوحش العتمة يهجم على أركان عش الغرام القديم . لا نقطة نور ... لا حركة ... لا نأمة ... تشمم رائحة سكانه الأعزاء، فلم يجد لها أثرًا، فتنهد يائسًا وقال لنفسه :

- أين أنتما أيها الحبيبان؟ أين أنت يا محمد؟ أين أنتِ يا مسعدة حجاب يا أم محمد؟ ما أتعس حظوظك يا شارل .

29

عاد إلى داره محزونا، فاستقبلته ياقوتة بمودة وغنج . ساعدته على نزع جلباب الصعيدي المزيف، وبعد أن قضى منها وطرًا، أعلنت بجرأة امرأة مجربة لم ترتوِ :

- ما بك اليوم يا خواجة شارل؟ أنت لست على ما يرام ... أين أيامك ولياليك وشبابك المجنون؟

تذكر شارل كيف كان صراخها من اللذة يفجر المزيد من طاقات الذكورة لديه، فلم يعلق واكتفى بابتسامة قصيرة وطلب منها أن تعد له قدحًا من النبيذ وبعض المقبلات والفواكه، ثم تمدد على الأريكة الكبيرة في الصالة ومضى يتأمل صورتي مسعدة ومحمد اللتين علقهما في مكان بارز على الحائط بجوار مجموعة أخرى من لوحاته عن القاهرة، وتساءل : أين أنت الآن من عالم المكان أيتها الحبيبة؟ وهل سيرفق بنا الدهر ونلتقي؟ ومتى؟

أعدت ياقوتة صينية عامرة بأطيب المأكولات والفواكه، ووضعتها أمام سيدها، ثم تولت القيام ببث أهم الأخبار التي شهدها الحي في غيابه الطويل . حكت له كيف لقي المملوكي إيواظ بك حتفه بعد أن أصابه الجنون، عقب هروب زوجته الثرية أشرف هانم مع شاب فقير يصغرها بعشرين عامًا اسمه شلضم ويعمل سقاء، وقالت له إن الوالي محمد علي باشا غضب من السيد عمر مكرم ونفاه إلى دمياط قبل عامين لأنه كان يدافع عن الغلابة، وأن شيوخ الأزهر والتجار توقفوا عن الدفاع عن أهل البلد وتركوا الوالي يفرض الضرائب على الجميع حتى جأر الناس بالشكوى . أخبرته بما جرى للمماليك من مذابح في القلعة قبل أسابيع، وكيف أن الرعب بات في عظام الناس أيامًا وليالي . وأنها ذاقت المرّ في بيت الشيخ عبد الصمد البسيوني أحد شيوخ الأزهر، حيث كان بخيلا جدًّا ولا يتورع عن التحرش بها في أي مناسبة، رغم أن زوجته سيدة جميلة ومحترمة .

ظلت تحكي وتطيل وتثرثر، والخواجة شارل يعبّ النبيذ برفق وتمهل، ينصت لها باهتمام حينا، ويشرد بعيدًا عن حكاياتها معظم الأحيان، وفجأة، انتفض، وهبّ واقفا كأنما لدغته رقطاء، فوقفت مثله وهي مذهولة، فأمسك وجهها الأسمر براحتيه وسألها متوسلا طامعًا في الأمل :

- ياقوتة ... هل تعرفين امرأة اسمها مسعدة حجاب؟ وأين هي الآن؟

30

انهمك بوغوص بك في تصفح كومة من الأوراق تكدست فوق طاولته، يقرأ هذه ويكتب في تلك ويؤشر في الثالثة، بينما يختلس نظرات خاطفة مضطربة نحو القنصل الإنجليزي الذي يجلس قبالته متربصًا، فالرجل ذو الوجه الأحمر والملابس الإمبراطورية يلحّ في توريد القمح سريعًا إلى بلاده، ويهدد بشكل مستتر لو تأخرت عملية التوريد، وقد وعده الوالي أن ناظر ماليته سيقوم بالمطلوب، لكن بوغوص يتلكأ ويبرر موقفه للقنصل قائلا وهو يحبك عمامته الضخمة البيضاء فوق رأسه :

- سيدي القنصل ... أنت تعرف أن المصريين كسالى، لذا فتحميل 30 سفينة بالقمح مسألة ستستغرق وقتا .

فيهب القنصل غاضبًا، ويجفف عرقه بمنديل معطر برائحة مميزة، ويعلن :

- هل تريد لجنودي أن يموتوا جوعًا يا سيد بوغوص؟ إنني أدفع 90 قرشا ثمنا للأردب الواحد، وأنتم تبيعونه هنا للتجار بعشرين قرشًا فقط، أي أنكم تربحون أموالا طائلة، فلم التلكؤ؟ فلتضربوا المصريين بالسياط كما تفعلون دومًا عندما يتكاسلون، ولتجلبوا المزيد من عمال السخرة ... إنهم لن يكلفوا حكومتكم قرشًا واحدًا .

فينادي بوغوص بك خادمه طالبًا الخروب المثلج للضيف الغاضب، ويؤكد بنبرة واثقة :

- لقد أصدرت الأمر بالفعل لكشّافي البحيرة والغربية والدقهلية للقيام باللازم حتى ننتهي سريعًا من توريد القمح لكم .

ارتخت عضلات الوجه المحتقن وتساءل بهدوء :

- ومتى سينتهون؟

تنهد بوغوص بك ارتياحًا وقال :

- خلال يومين على الأكثر .

انزعج القنصل ورمقه بتوتر، وجاء الخروب . تجرعه بنهم، وقال ساخطا :

- ما أتعس القيظ في القاهرة !

31

ما إن غادر القنصل الإنجليزي، حتى توجه بوغوص بك إلى مقر الوالي المعتاد، حيث خرج من مكتبه وسار في ممر طويل منخفض السقف مضاء على الجانبين يربط بين مكاتب الإدارة ومقر الباشا . استأذن في الدخول، فوجد محمد علي يداعب قطة صغيرة بيضاء مخططة باللون البني أشبه بنمرة صغيرة استكانت في حجره وهو جالس على الأريكة الرئيسية . ابتسم الوالي وقال بسعادة :

- انظر يا بوغوص ... ما رأيك في هذه القطة السيبيرية؟ إنها لطيفة ... أليس كذلك؟ لقد أهداني إياها القنصل الروسي قبل قليل .

فقال بوغوص المتوتر :

- أجل مولاي ... إنها فعلا قطة جميلة .

غمغم الوالي وقال :

- ستفرح بها زوجتنا أمينة هانم لا ريب .

ثم تغيرت ملامحه فجأة وسأل :

- هات ما عندك يا صديقي العزيز .

جفف الرجل عرقه وقال بنبرة جادة غاضبة، لكن بأدب يليق بمقام الجالس على عرش مصر :

- معذرة سموكم ... هذا القنصل الإنجليزي متغطرس وفاقد للذوق، ويظن أننا مجرد خدم عند مليكه صاحب الجلالة !

قطب الوالي جبينه وتساءل :

- ماذا حدث؟

فشرح بوغوص بصوت ذي رنين ضعيف وأداء سريع :

- إنه يلح في طلب القمح ويتهمنا بالتقصير، رغم أنني أمرت بسرعة تنفيذ

طلباته وجارٍ العمل على ذلك بكل همة ونشاط، لكنه لا يتوقف عن التذمر والسخط والتهديد الضمني المستتر .

استرد الوالي بشاشته وداعب القطة قائلا بهدوء :

- هوّن عليك يا حبيبي ... أنت خير من يعرف غطرسة الإنجليز، فلا تهتم . نفذ ما يطلبونه بسرعة، فهم يكرهوننا، ولا نريد لهم أن يتصيدوا لنا أي تقصير أو خطأ .

ثم بنبرة حزينة مكتومة :

- للأسف ... لا نستطيع مقاومة الإنجليز إذا قرروا الاعتداء علينا وإزاحتنا عن السلطة، فهم سادة البحار الآن، ولا تنس اهتمامهم بمحمد بك الألفي ورعايتهم له قبل سنوات قليلة ... لقد كان رجلهم الأول .

حاول بوغوص بك تخفيف الأجواء قائلا :

- ولكن الرب كان بجانبك سيدي طوال

الوقت، فتوفِّي الألفي بك في يناير 1807 ، وأعانك الرب أيضا على هزيمة الإنجليز في رشيد في العام نفسه، ثم وهبك القوة للقضاء على جميع منافسيك، وآخرهم المماليك المجرمون .

تكدّر وجه الباشا لتذكر المذبحة، وقال بلهجة جافة :

- لكن الإنجليز قادرون على إزاحتي إذا شاءوا وخططوا وعملوا بجدية ... إنهم يكرهونني .

- الرب معك سيدي الوالي ... فلا تقلق .

رنا الوالي إلى ناظر ماليته بهدوء وردد خاطره بصمت (لا أحد يعرف مع من يقف الله، فكل منا يظن أن الرحمن يناصره ويؤازره هو فقط) ثم هز رأسه شاكرًا وقال بأداء الختام :

- فلنتق شرورهم قدر الإمكان يا بوغوص ...

نفذ ما يطلبه الإنجليز بأقصى سرعة .

فهم الرجل، وانحنى مودعًا، واستدار ليغادر المكان، لكن محمد علي صاح آمرًا وقد عاد ليداعب قطته بلطف :

- يا ناظري الجميل ... اكتب طلبًا لجلب خمسين قطة سيبيرية جميلة كهذه من روسيا .

32

(ما أجمل البنات ... وما أحلي اليونانيات ... لا أعرف متي سأمتلك الجرأة لأتحدث إليها، ولا متى سأتوقف عن تناول الزهور البيضاء بحثا عن طعمها السحري) هكذا خاطب عصفور الحداد نفسه وهو يدلف من باب خمارة أندرياس لليوم السابع علي التوالي دون انقطاع، وساءل نفسه متحيرًا : أين تلاشت جرأتك؟ أين اختفت عزيمتك الذكورية؟ لقد كنت تتفنن في مطاردة مبروكة بائعة الخضروات حتى لانت واستجابت، وكان ما كان . فلماذا الصمت والذهول الآن؟ في كل يوم منذ رأى هيلين للمرة الأولى، وهو يعقد العزم على أنه سيتحدث إليها الليلة، ينهي عمله في ورشة الحدادة ثم يهرع إلى الخمارة بالحي الإفرنجي، لكن ما إن تصافح عيناه السوداوان وجهها المرمري الأخاذ حتى يرتجف قلبه من فرط جمالها، فتتحطم الحروف على شفتيه، وينصاع إلى قانون السكوت الإجباري .

قال له صديقه عويس الفرارجي ساخرًا :

- يبدو أنك ستموت ظلمًا مثل أبيك !

لم يفهم، وكان قد تناول قدحًا كبيرًا من العرقسوس البارد على مقهى المعلم فجلة، حتى يطفئ نيران يوليو اللاهبة، لكن عويس أوضح سخريته بمزيد من السخرية، وقال :

- أبوك مات ظلمًا يا عصفور بتهمة قتل الخواجة أندرياس، وأنت ستموت غُبنا بتهمة عشق ابنة الخواجة أندرياس !

حدجه بنظرة عتاب، وعبثت أصابعه بشاربه الصغير كما يفعل كلما تعثر في ارتباكه .

33

تحت ضغط عصبي وروحي وجد عصفور نفسه يمضي نحو التغزل فيها شعرًا، راح يقلد ما حفظه من أبيات قيس بن الملوح وجميل بثينة، تلك التي درسها في الأزهر على يد شيخ عاشق كان يؤجل مقرر الفقه وأحكام الشريعة ويتلو عليهم أشعار المحبين والمهجورين على شواطئ الغرام، ولأن هذا الشيخ كان ذا صوت رخيم وأداء مترع بالصدق، فقد فتن عصفور بالشعر وبعذاب العشاق عندما اندلعت نيران الذكورة في أوردته، وهكذا تجرأ وكتب عدة أبيات في مبروكة بائعة الخضروات قبل أن يتذوقها، ثم انقطع تدفقه الشعري العفيف مع الالتحام الجسدي العنيف في الخرابة القريبة من المقابر، وها هو يعود إلى ماضيه الإبداعي، فراح يستعيد ما كتبه الشعراء العشاق في مخطوط يحتفظ به في بيته، يقرؤه مرة ومرات، في الورشة وفي المقهى وقبل النوم، حتى تفجر ينبوع

الشعر هذه الليلة وهو يسير منفردًا بالقرب من خمارة الحبيبة، وها هي هيلين تتألق في قصائد مكسورة الوزن والتفاعيل والعروض والبحور لكنها صادقة الإحساس، تساءل متحسرًا وفخورًا بحبه أيضا (لو كانت تعرف العربية، لذابت من فرط غرامي بها).

34

افترشت ياقوتة الأرض بجوار كوم قمامة عند مدخل الباطنية وأخرجت من صدرها قطعة قماش بسطتها على التراب ووضعت فوقها الخبز والجبن القريش الذي ابتاعته بعشر بارات، ومضت تأكل بنهم، غير عابئة بالقطط والذباب والشحاذين ومعاكسات الصبية والمراهقين وتيار الهواء الساخن . شغلها سؤال : مَنْ مسعدة حجاب هذه؟ (لقد سألت كل سكان الأزهر، فلم أجد لها أثرًا، بعد أن تورمت قدماي من البحث عنها في الحي الإفرنجي وفي الأزبكية كلها).

أجل ... فمنذ أسبوع وياقوتة تخرج من دار الخواجة شارل بعد أن تعد له طعام الإفطار، وتجوب المحروسة تبحث وتستفسر عن مسعدة وابنها محمد . لا تعود إلا مع خمود الشمس في الغروب، وأمس واصلت البحث حتى منيل الروضة بناء على طلب الخواجة شارل، ولما خاب

مسعاها وعادت دون نتيجة، رأت للمرة الأولى الحزن يسيل أنهارًا من معشوقها الفرنسي . حاولت تهدئة خاطره بممارسة الحب، لكنه زهد وابتعد، وانطلق خارجًا من الدار ولم يعد إلا بعد منتصف الليل محطمًا تفوح من فيه رائحة خمر رديئة، فتقيأ واغتسل ونام في الحال .

في الصباح، استيقظ الرسام وقد غزته فكرة غريبة، وهي أن يطلب من القنصل الفرنسي أن يتقدم إلى الوالي برجاء طالبًا منه أن يأمر كبير الشرطة بالبحث عن مسعدة حجاب وابنه محمد، ولينطلق المنادون في الحارات والدروب والأزقة سائلين ومستفسرين، في مصر وإنبابة وبولاق، وحتى في بنها والإسكندرية، لكنه انتبه إلى أنه بذلك سيسبب فضيحة مدوّية للمرأة التي أحبها بعمق ومنحته بسخاء وأنجبت منه دون زواج شرعي أو رسمي، وربما تعرضت للقتل من قبل أهلها أو أناس يرونها مجرمة لأنها أحبت رجلا من ديانة أخرى، فلم يعدل عن فكرته فحسب، وإنما سخر منها أيضا، وفي محاولة لطرد طغيان الذكرى ولوعتها أغرق نفسه في مواصلة العمل بلوحة تصوّر معركة «الأهرام » التي خاضها نابليون بونابرت وجنوده ضد المماليك، إذ كان قد طلبها منه القنصل الفرنسي نظير أجر معلوم، وقال لنفسه

وهو يضع بقعة دم تسيل من صدر ضابط فرنسي جريح : (متى سيختفي العنف من العالم؟)

36

مضى باباندريو يجفف عرقه فور دخوله خان الملذات وهو يلهث من شدة القيظ، وبفضول طفولي لم يحاول إخفاءه سألها وهو يتناول الكونياك :

- مدام آماليا ... هل حقا تشرف هذا الخان المصون بزيارة الأمير طوسون قبل أيام؟

أدركت صاحبة الخان على الفور أن وصيفتها الجديدة لم تحفظ السر، فقررت معاقبتها، ومع ذلك أعلنت بفخار وهي ترنو إلى السائل باستنكار :

- وهل داري لا تناسب الأمراء يا سيد باباندريو؟

قهقه الرجل حتى بانت أسنانه الصفراء من شراهته للتدخين، وقال وهو يصب لنفسه المزيد من الكونياك موزعًا نظره على الحضور :

- دارك ملجؤنا الدائم وواحة لراحة أعصابنا ... إنها مستوع اللذة ... أليس كذلك أيها الأصدقاء؟ !

صدق الحضور على كلامه وأيدوه مرحين، ثم أضاف ساخرًا وإن بنبرة جادة :

- حتى لو جاء الوالي نفسه، فلن يستغرب أحد مدام آماليا ... ولكن أخبريني من فضلك ... هل يمارس الأمراء الحب مثلنا نحن التجار المساكين؟

فابتسمت وقالت ساخرة وهو تشير إلى أسفل بطنه :

- وهل لك أسلحة لا يمتلكها الأمراء أيها التاجر المسكين؟

ضجّ سارقو اللذة بالضحك، حتى عازف البيانو المسن رمقه بنظرة مستخفة وابتسم، فعاجلها مستفسرًا حتى يقطع وصلة السخرية التي استهدفته :

- دعيني أسأل الفتاة التي رافقته إلى الفراش ... فمن هي؟

تبدلت نظرتها في الحال، واستشاطت غضبًا، حتى صاحت :

- سيد باباندريو ... أحذرك من التدخل السافر في عملي أو خصوصيات الخان .

شخصت إليه بتحد، وانتبهت إلى أن نحافته في ازدياد، وأن صلعته أكبر وأملس مما كانت تتخيل، فكتمت ضحكة مجلجلة كادت تفر من فيها !

37

بعد دقائق معدودات اشتعل عراك بالأيدي لأول مرة في خان الملذات، إذ أصر باباندريو على مضاجعة الفتاة التي رأت «السلاح » الخاص للأمير طوسون، وهتف مفاخرًا ورائحة الكونياك تفوح من فيه :

- لست أقل من الأمير، بل أملك «سلاحًا » جبارًا يدفعها للجنون والصراخ من حلاوة اللذة .

وأشار بحركة بذيئة إلى أسفل بطنه، لكن أحد الزبائن طلبها لنفسه متهمًا منافسه بأنه لا يملك ما يشبع الفتاة ويسعدها، لأن «سلاحه » باهت ومرتخ، فاشتبك الاثنان في لحظة، رغم أن آماليا رفضت بشكل قاطع أن تخبرهما من هذه الفتاة أصلا، لكن الرجلين واصلا تبادل الشتائم والسباب والركلات والتباهي بفحولتهما الذابلة تحت تأثير الخمر، ولما فشل الحضور في

التفريق بينهما وإيقاف شلال الألفاظ الفاحشة المنطلق من ألسنتهما اضطرت صاحبة الخان إلى الاستعانة بالعبد هلال الذي أنقذ الموقف كما سينقذها من المصيبة الكبرى فيما بعد، وفي لمح البصر حمل الرجلين معًا كدجاجتين إلى الخارج وسط ذهول الحضور من عملقته الجبارة، وفي محاولة لتجاوز المشهد المؤسف قدمت آماليا، بطريقة مسرحية، اعتذارها الشديد لرواد المكان، وصاحت :

- فلنشرب جميعًا النبيذ في صحة الحب والهدوء والسلام على نفقة خان الملذات .

تهلل الجميع وارتفعت الصيحات شاكرة وممتنة تحت وابل من الموسيقى الصاخبة التي يعزفها رجل البيانو الشاحب !

38

مع شروق الشمس ارتدى الخواجة شارل ملابسه الرسمية وقد بالغ في هندامه وتعطر بأريج هادئ الرائحة، ثم مضى نحو الباب ينتظر قدوم القنصل الفرنسي وفق الموعد المحدد . كررت ياقوتة اعتذراها لأنها لم تتمكن من الوصول إلى مسعدة حجاب، فربت كتفها، وقال بنبرة أسى لكنها تشعّ بيقين عجيب :

- لا عليك يا ياقوتة ... سنجدها يومًا ... المهم أعدّي لنا اليوم طعامًا شهيًا، ولا تنسي الحمام المحشو بالفريك، فالقنصل يعشق الحمام المصري .

- ومتى ستعودان؟

- لا أدري ... لكن أظن أننا لن نمكث عند الوالي أكثر من ثلاث ساعات !

ولما رأى عربة القنصل التي يجرها حصان

أبيض مطهّم تخترق حارة الدرب الأصفر طلب منها أن تحضر له اللوحة والألوان والباليت وحامل الرسم استعدادًا للذهاب .

39

وسط طقس حارق ورطوبة خانقة وصلت العربة إلى البوابة الشرقية للقلعة التي تشرف على ميدان الرميلة، فسمح لها الحراس بالمرور عندما تيقنوا من شخصية القنصل الفرنسي، أما الخواجة شارل فقد لفت انتباهه العدد الضخم من الحراس الأرناؤوط المدججين بالسيوف والخناجر والبنادق والمتواجدين في كل مكان حول القلعة وداخلها، فسأل مرافقه عن السر، فأجاب القنصل :

- أنسيت يا مسيو شارل؟ لم يمر على مذبحة القلعة سوى شهور قليلة، حيث رفرف الرعب في سماء المدينة، وبلع الناس ألسنتهم من شدة الهلع، لقد قتل الوالي نحو خمسمئة من المماليك ونوابهم وأتباعهم في بضع ساعات .

- ولماذا كل هذا العنف؟

ردّ الرجل بنبرة من خبر جوهر السياسة :

- قد يرتكب الحاكم جرائم بلا حصر من أجل الاستحواذ على السلطة منفردًا، أو من أجل مجد مزعوم يسعى إلى بلوغه ! ومن حسن حظك أنك لم تكن هنا، ورغم الأمان الظاهري السائد حاليًا، إلا أنني أظن أن الوالي مازال يخشى غدر وانتقام أنصار هؤلاء المماليك والمتعاطفين معهم !

- ألهذه الدرجة؟

فابتسم وقال بجدية كثفت من احمرار وجنتيه :

- وأكثر ... هل تعلم أن محمد علي لم يعرف طعم النوم العميق منذ تلك الليلة الدموية؟ وأنه يواجه أشباح المماليك كل ليلة في كوابيسه الملعونة؟ وهل تدري أنه استعان بكبير السحرة الذي يُدعى شركان الناغي لينقذه من هذه الأشباح؟

تعجب الرسام وتساءل :

- وكيف عرفت ذلك؟

ضحك القنصل وقال بثقة :

- يا فنان ... إن لنا رجالا داخل القلعة ينقلون لنا الهمس خلف الجدران، ويخبروننا بما يجري داخل الغرف المغلقة ... أم حسبت أن نترك الوالي يخطط ويدير ويحكم مصر بمفرده دون علمنا؟

- وما موقف المصريين من كل ذلك؟

ابتسم القنصل بسخرية وهتف :

- وهل للمصريين موقف أو رأي؟ إنهم مساكين ... لا يريدون من الحياة سوى الأمان واللقمة النظيفة، لذا فهم يكرهون المماليك وبطشهم وقسوتهم وغدرهم، كما يكرهون أيّ غدار مهما بلغت قوته وسلطته !

هزّ شارل رأسه موافقا وغمغم :

- أشكرك سعادة القنصل لأنك وفرت لي فرصة ذهبية لمقابلة الباشا وتصويره بالألوان الزيتية .

فابتسم القنصل مجاملة وهمس :

- مسيو شارل ... أنت تعرف أن الحاكم الشرقي يعشق المديح بجنون، وأنت تعلم أنه لا يوجد في مصر كلها رسام أو نحّات واحد، فالرسم والنحت ضد الإسلام كما يدّعي فقهاؤهم، وعليه فأنت أفضل من يقوم بالمهمة، لتدغدغ مشاعر الباشا وتربح عطفه، فتضمن إقامة دائمة في القاهرة بلا منغصات .

تذكر الرسام بأسى كيف أجبروه على مغادرة البلد في التو واللحظة قبل ستة أعوام، بعد أن اتهموه بتحريض شباب المصريين على العمل ضد وصول محمد علي للسلطة، إذ كان شارل أول من علّم

أيوب السبع ضرورة أن يحكم مصر رجل مصري من أبنائها، قبل أن يكون مسلمًا . تذكر أيضا كيف تلقى نبأ مقتل تلميذه هذا ورفاقه في صحراء الدراسة على يد شرطة الوالي في ليلة شؤم، وكيف أن القنصل الفرنسي آنذاك أظله بحمايته عندما وعد السلطات بأنه سيتولى ترحيله بنفسه خارج البلاد، تذكر وتذكر وهو يدلف من ممر إلى آخر في المبنى العتيد، ثم أفاق على لكزة خفيفة في كتفه من قبل القنصل عندما بلغا مدخل البهو الرئيس في القلعة .

استقبلهما محمد علي بحفاوة في حضور ابنيه إبراهيم وطوسون ووزير ماليته والأمور الإفرنجية بوغوص بك، وقد نفذ الخواجة شارل تعليمات قنصله بالحرف، فانحنى أمام الباشا تأدبًا، وتحدث برفق ممتدحًا حكمته، وشكر سموه على كرمه وسماحه له بالعودة إلى مصر، وتعجب من قدرة بوغوص بك على الترجمة من الفرنسية إلى التركية بسرعة مدهشة،

فالباشا لا يعرف الفرنسية البتة، وفجأة سأله الوالي :

- كم من الوقت ستحتاج لترسمني؟

عاينه شارل بتركيز وقال :

- خمس جلسات فقط في حضرة سموكم، ولن تزيد الجلسة الواحدة عن ثلاث ساعات، ثم أكمل اللوحة في مرسمي .

ابتسم محمد علي وسأل وهو يعبث بلحيته الرمادية :

- وكيف ترى ملامحي أيها الرسام الفرنسي؟

تردد شارل، فلاحظ الباشا، فابتسم ليطمئنه، وقال بنبرة مشجعة وهو يداعب القطة المنزوية بجواره :

- لا تخش شيئا ... نحن نعطيك الأمان ... قل رأيك بصراحة .

بجرأة فاجأت الجميع أعلن شارل :

- عيناك مثل عيني ثعلب ذكي أتعب أسود الغابة !

قهقه محمد علي عاليًا، ووزع نظره بين ابنيه وناظره مباهيًا، ثم أشار بيده :

- إذن ... فلتبدأ العمل فورًا .

40

فوجئ عصفور الحداد بأن هيلين ابنة الخواجة أندرياس تتحدث اللهجة المصرية بشكل جيد، فبعد عشرة أيام من ارتياده الخمارة شعر وكأن حبلا مغناطيسيًا ربط قلبه بصاحبتها . سمعها للمرة الأولى تخاطب أحد الخدم السود لديها بلهجة مصرية طالبة منه تنظيف الحمام . آنذاك استجمع كل شجاعته المكبوتة، ونهض من مكانه وتوجه نحوها متجاوزا عازف البيانو النحيل ذا الشعر الأشعث، وسألها بأدب :

- هل تسمحين لي بكلمة؟

لم تتعجب ذات البشرة الصافية والعينين الزرقاوين والقوام النحيل، وأشارت له بالجلوس، وهي تتفرس في جلبابه الأبيض الناصع القصير الذي يرتديه فوق سروال رمادي واسع، ثم طلبت من النادل أن يحضر له عصير برتقال، وابتسمت قائلة

:

- أعرف أنك لا تتناول الخمور !

ارتج كيانه وارتعشت أطرافه . شعر بأنه عار تمامًا أمامها، وقبل أن يرد، أجهزت على توازنه النفسي بضربة واحدة وهي تقول :

- لا تزعج نفسك ... فأنا أعلم أن أباك ليس له أي علاقة بمقتل والدي !

ارتفعت الموسيقى المنبعثة من عازف البيانو، وتلعثم عصفور، وابتسمت هيلين فانفرج ثغرها عن أسنان منتظمة جميلة !

41

خرج عصفور من الخمارة هائمًا على وجهه، يتلقى نسمات الليل المعطرة بروائح مقبلة من البساتين المنتشرة في الحي الإفرنجي . طاف حول بركة الأزبكية بلا هدف كعاشق وحيد يبحث عن قمر ضائع في السماء . وبخ نفسه بشدة لأنه لم يستطع مواصلة الحديث مع هيلين من هول المفاجأة، إذ تركها بهدوء دون أن يتفوه بكلمة، وتذكر جرأته مع مبروكة فعض أصبعه ندمًا، وقرر العودة إلى اليونانية الفاتنة في الغد ليشرح ويفسر ويفهم . انتابته فرحة مفاجئة عندما زقزق فوق رأسه عصفور شريد ضل الطريق إلى عشه في آخر الليل، وقال معتدًا بذاته ... إنها مهتمة بك يا عصفور، إنها تراقب تصرفاتي، إنها منشغلة بما أشرب وأتناول في خمارتها . سار في اتجاه منزله بدرب الجماميز منتشيًا، لكن نباح كلاب الليل أزعجه بشدة واضطره إلى أن ينحدر نحو الجهة اليسرى من الحي الإفرنجي، حيث

سيقترب كثيرًا من الخمارة، ورنا إلى السماء فوجد أنه مع كل خطوة باتجاه الخمارة تطلق النجوم بريقا أقوى فترتفع دقات قلبه، وتنتفض حواسه كلها، وهتف بصوت مسموع (هيلين ... ما أجملك ... وما أغرب حديثك الذي بلل روحي المعذبة المتشققة بمياه الاطمئنان). وعند منعطف الشارع الرئيس في الحي إذا باثنين من جنود الأرناؤوط ينقضان عليه ويسقطانه أرضا ويكبلانه بالأصفاد وسط ذهول الكائنات الحية في الحي النظيف .

42

لم تصدق مدام آماليا أبدًا أن الأمير طوسون يريد تكرار زيارة خان الملذات مرة أخرى، فالأمراء كما تعلم سريعو الملل، وبالفعل استقبلت رسالة القنصل الفرنسي التي بعثها مع خادمه الخاص بشيء من الشك والريبة والارتباك، لكن عندما وصل الأمير في الواحدة ظهرًا بكامل أبهته وشبابه الأخضر ووجهه البشوش، تيقنت من صدق الرسالة . وبعد أن قدمت الترحاب الواجب لابن الوالي، أقبل نحوها الأمير مبتسمًا وقال بنبرة هادئة :

- مدام آماليا ... أريد صوفيا ... الفتاة الجورجية التي رأيتها المرة الماضية !

أجابت وهي تلمح ألق العشق يبرق في العينين الواسعتين :

- حالا ستكون مستعدة لاستقبال سموك في غرفتها .

أشار بيده نافيًا، وقال وابتسامته الهادئة تشع نورًا في المكان :

- لا ... لا ... لا ... أنا أريد أن أصطحبها لتقيم معي .

بهتت المرأة، وقبل أن تفتح فمها بكلمة منحها صُرّة من القطع المعدنية النفيسة، فانتشت بوسوسة الذهب، وأيقنت أن الحب يمحق هيلمان السلطة .

43

انتظر الأمير الشاب نصف ساعة في الصالة الرئيسية كما رجته آماليا حتى تهيئ صوفيا للمغادرة النهائية . هرعت إلى الطابق العلوي، وضمتها إلى صدرها بقوة وغمرتها بقبلات حنونة، ومضت تسدي إليها النصائح كابنتها قائلة :

- أنت محظوظة يا صوفيا ... ابن والي مصر شخصيًا أضناه الشوق وسقط في هواك، فابتعدي دومًا عن أي شيء يغضبه، ولا تقولي له إلا ما يحب سماعه واحفظي سرّه وتجنبي ضرّه . استقبليه في مخدعك وأنت في كامل زينتك وفي أي وقت يشاء، حتى لو كنت في حالة زهد عن الرجال، فلا يزعج الرجل شيء إلا نفور امرأة يحبها ... والأمير أحبك يا صوفيا، فاشكري الرب .

أقبلت صوفيا بعينيها الخضراوين وقوامها المتناسق وشعرها الأصفر المنساب . كانت قد أكملت عامها السادس عشر في

الشتاء الماضي، ستعشقه ويعشقها، وستجوب معه السهول والوديان، وستصحبه ليل نهار في البر والبحر، قبل أن تحدث الواقعة المذهلة بعد خمسة أعوام فقط من هذا اللقاء !

44

- يا بوغوص ... اكتب رسالة إلى كل من القنصل الفرنسي والقنصل الإيطالي تطلب منهما أن يرسلا لنا على وجه السرعة مجموعة من مهندسي الري والبناء والأطباء والضباط والبحارة، شريطة أن يكونوا أكفاء، وأكِّد لهما أن حضرتنا سوف نجزل لهم العطاء وسنخصص لهم رواتب مجزية إذا أثبتوا براعة في عملهم، وهو ما أرجوه وأتوقعه .

هكذا طلب الوالي من ناظر ماليته، وهو متربع على أريكته يداعب قطته السيبيرية المنهمكة في تناول بعض شرائح السمك البلطي، بينما يدخّن بتلذذ غليونه المصنوع من خشب الزان والمغطى بطبقة لامعة من الأبنوس، والذي أهداه له السيد قسطنتين كبير التجار اليونانيين الأسبوع الماضي . بدا محمد علي في هذا النهار رائق المزاج، بعد أن قضى ليلة خفتت فيها الصور المزعجة للأشباح المملوكية، فتلذذ

ببعض سويعات من النوم العميق . وقال لبوغوص ممتنا :

- يبدو أن كبد الذئب النيئة التي وصفها كبير السحرة قد تفاعلت مع دواء الطبيب الفرنسي الذي أحضرتموه لي الأسبوع الماضي، فحظيت أمس بنعمة النوم الهادئ لبعض الوقت .

- نشكر الرب يا سيدي الوالي على رعايته لصحكتم الغالية ... وأتساءل بعد إذن سموكم ... ألن يكلفنا جلب الأوروبيين للعمل هنا أموالا طائلة؟

قهقه الباشا وتفرس في خنجره وقال بنبرة شجية :

- بلى، ولكن يا بوغوص ... إنني أحكم شعبًا من الفلاحين الجهلة، لا علم لديهم ولا تحضر، لا مدارس .. لا مصانع ... لا فنون، لذا فلن يعرفوا طريق النور أبدًا إلا إذا قادهم أناس صنعوا التقدم ومارسوه زمنا،

ومازالوا، وقد رأيت بنفسك المستوى المذهل الذي بلغته كل من باريس ولندرة عندما قمت جنابك بزيارتهما العام الماضي .

أجاب الرجل ذو الوجه الشاحب دومًا :

- أجل يا سيدي ... الحال في مصر بائسة جدا مقارنة بأوروبا ... ولكن هل تعتقدون سموكم أن المصريين مؤهلون للتطور؟ ألا يمكن القول إنهم متخلفون بالوراثة؟

تفكر الباشا للحظات، وجذب نفسًا من غليونه وقال :

- أظن أن القوة قادرة على تغيير قوانين الوراثة، بشرط أن تقترن تلك القوة بالحزم والتنظيم، فإذا كان المصريون كسالى وجهلة كما نرى الآن بكل أسف، فإنني بالقوة سأدفعهم دفعًا لأن يكونوا نشطاء أصحاب همم، وبالإصرار والمتابعة والمراقبة والثواب والعقاب سأجعلهم

يسيرون في طريق التعلم والتطور ولو بخطى وئيدة !

خفض بوغوص رأسه وتبدلت قسمات وجهه في حركة اعتراض بطيئة لا إرادية، التقطها محمد علي سريعًا، وسأله :

- ما وجه اعتراضك؟ تحدّث ... لا تخشَ شيئا، فأنت أخ وصديق عزيز يا بوغوص .

فتشجع ناظر المالية، وهمس بصوت واهن :

- ولم تتعب نفسك وتنفق الأموال على النهوض بشعب لا يدرك بعد أنه ليس خارج العصر الحديث فحسب، وإنما يظن نفسه أنه الأفضل؟ ألا يقولون إن مصر أم الدنيا؟

ابتسم محمد علي، وأشار إلى خادمه طالبًا الماء، وبعد أن روى عطشه، ألقم القطة قطعة سمك بلطي وقال بثقة يقينية :

- اسمع يا ناظري العزيز ... هل تظن أنني ساذج لأنفق الأموال بلا فائدة؟ يا بوغوص ... إن الإنجليز والفرنسيين والباب العالي كلهم يريدون الانقضاض على مصر وخطفها مني، لأنها كنز كبير، وكبير جدا، ألا تذكر حملة الجنرال فريزر على رشيد قبل أربع سنوات؟ هل تظن أن بونابرت انشغل بحروبه في أوروبا وسلا مصر؟ أكاد أجزم أن له جواسيس ينخرون عظام البلد هنا ونحن لا ندري عنهم شيئا . لكنني لن أسمح لأحد مهما بلغ من قوة بالاقتراب من مصر ... لا الإنجليز ولا بونابرت ولا الباب العالي ... لن يحدث ذلك أبدًا ... على جثتي ... إنها ملكي الخاص وميراث أولادي من بعدي ... إنها جوهرة كفاحي الطويل منذ جئتها من مدينتي «قولة » بألبانيا قبل عشر سنوات ... ولكن !

سكت الباشا، وتأمل الرسوم التي تزين سقف الصالة، ثم ألقى نظرة عميقة في وجه محدثه، فارتبك بوغوص وتساءل :

- ولكن ماذا يا جناب الوالي؟

مال الباشا بجذعه إلى الخلف وثنى ركبته وضم القطة إلى صدره بحنان وأجاب بلهجة من أدرك السر الأعظم :

- لا يمكن مواجهة أطماع الإنجليز والفرنسيين والسلطان العثماني التي لن تتوقف إلا إذا تمكّنت من تأسيس جيش قوي قادر على الدفاع عني وعن مملكتي !

ثم قهقه بصوت عالٍ رجّ أركان القلعة وهبّ واقفا، وهو يقول :

- هل فهمت الآن لماذا أريد ضباطا وبحارة ومهندسين وأطباء ومعلمين من أوروبا؟

45

في ذلك المساء اصطحب بوغوص بك زوجته في نزهة على النيل كما يفعل بين الحين والحين، لأنه عادة ما يردد أمامها بحسرة أن وسائل الترفيه في مصر شحيحة جدا جدا، فلا مسارح ولا قاعات عرض للوحات والتماثيل ولا فرق موسيقية ولا متاحف، إذ لا يوجد هنا شيء يبهج الروح سوى التمشية على النيل . اخترقا الحي الإفرنجي المضاء بقناديل مثبتة على أعمدة تنتصب في مداخل الحارات حتى بلغا مشارف النهر . تأملا المراكب الغادية والرائحة بقلوعها البيضاء تحت ضوء بدر مكتمل الاستدارة منذ ساعة . استقبلا نسمات أواخر يوليو النادرة بمودة . قالت زوجته بتأفف : القيظ والرطوبة هذا العام فاقا كل تصور . شاهدا مجموعات من الأهالي يفترشون الأرض قرب النهر عند بولاق وقد مضوا يتحادثون ويتضاحكون ويتناولون الجبن والبطيخ والخس والجرجير ثم يلقون بفضلاتهم في الشوارع

باستهانة، فغمغم ناظر المالية والشؤون الأفرنجية قائلا بانزعاج :

- لو مرّ وليّ النعم من هنا ورأى الفوضى والقذارة التي يتمرغ فيها هذا الشعب لصرف النظر تمامًا عن أفكاره المجنونة .

لم تفهم زوجته الجميلة ذات الخمسة والعشرين ربيعًا وتساءلت بنبرة هادئة :

- ماذا تقصد؟

طوقها بذراعه ووقف أمام مجموعة منهكمة في نقاش حاد بصوت عال وقال مشيرًا بطرف خفي إلى تلك المجموعة :

- يا حبيبتي ... إن محمد علي باشا يريد أن يستقدم من أوروبا المهندسين والأساتذة والأطباء والعلماء والضباط ليطور الشعب المصري ... إنه واهم تمامًا ... انظري إلى سلوك هؤلاء ... هل يمكن لشعب مثل هذا أن يتطور ويسلك دروب التقدم؟ هيهات يا

باشا .

توقفت الزوجة ذات العينين العسليتين الواسعتين والأنف الدقيق وقالت :

- لم لا؟ إن المصريين شعب طيب ومسالم، وأنا أتعامل معهم يوميًا، من أول بائعة الخضروات حتى السقاء أمين الدواخلي .

- الطيبة شيء والقدرة على التطور شيء آخر يا حبيبتي ... ولا تنسي أن الحمار كائن طيب أيضا، فهل يمكن أن تراهني على تطور الحمار؟

ابتسمت وعاتبته قائلة :

- هذه قسوة يا بوغوص ... المصريون أذكياء أيضًا .

وفجأة ارتطم بها طفل يعدو من الخلف فكادت تتعثر، لولا أن أمسك بها زوجها، وقال ساخرًا :

- أرأيتِ ... كاد المصريون يسقطونك أرضا رغم دفاعك عنهم .

فتشبثت به أكثر وهتفت :

- ولو ... إنه طفل ... والأطفال أحباب الرب يا زوجي الحبيب .

استدارت وجلست القرفصاء وربتت ظهر الطفل وضمته إلى صدرها وقبلته بسعادة غامرة .

46

اقتحمت ياقوتة مرسم الخواجة شارل . كان منهمكا في ضبط ملامح محمد علي باشا ووضع اللمسات الأخيرة في اللوحة . نظرت إليه بوجه مشبّع بالسرور، وعينين تومضان بالظفر، ثم نزعت عنها الملاءة اللف السوداء وألقتها جانبًا وهتفت بسعادة :

- أخيرا يا خواجة ... وجدت المرأة التي تبحث عنها !

انتفض قلب الرسام، وشعر أن طائر المحبة رفرف مغردًا فجأة في سماء الغرفة، فسألها بلهفة :

- هل عرفت مكان مسعدة حجاب؟ أين هي؟ وكيف توصلت إليها؟

بحماسة أكبر واصلت ياقوتة كلامها :

- حتى الآن لا أعرف أين هي؟ لكن الشيخ عوضين عبد الجليل سيخبرنا عن مكانها إن شاء اللّه .

خاب أمل الرجل وجلس على أقرب مقعد وسأل باستخفاف :

- من الشيخ عوضين عبد الجليل هذا؟

شعرت بإحراج للحظة، لكنها صاحت مستنكرة :

- استغفر اللّه العظيم يا خواجة ... هذا رجل بركة مكشوف عنه الحجاب ... الناس تتوافد على بيته بالمئات ليحل لهم مشكلاتهم، فيعرف مكان الغائب، ويبطل السحر ويشفي المريض .

انفعل الرسام الفرنسي وصاح ساخطا :

- هذا أفّاق يا ياقوتة !

سألته عن معنى «أفاق » فلما أخبرها

جفلت ضاربة صدرها بيدها وهتفت :

- لا تقل هذا الكلام يا خواجة ... استغفر اللّه العظيم ... استغفر اللّه العظيم !

قام وأمسك بالفرشاة والألوان وابتسم يائسًا، ثم قال لها بهدوء وهو يتفرس في صورة الباشا :

- حسنا ... أين يقيم الشيخ عوضين؟

انشرح صدرها وقالت بسرعة :

- في بيت منعزل ناحية المقابر !

فوضع لمسة باللون الأزرق الباهت على وجه الوالي، ثم قال برقة وهو يعاين وجهها الأسمر :

- هيا أعدي طعام الغداء، لنأخذ قليولة بعدها !

فهمت المغزى، فتألقت عيناها، وصاحت

بدلال :

- أنا خادمتك يا خواجة ... حالا ... ستأكل وتسعد !

47

بعد أن خمد الجسد إثر الرقصة الجنونية الساحرة، تركته ياقوتة لينعم بغفوته، ومضت لتستحم، لكن النوم استعصى على الرسام، فظل مستلقيا في فراشه يستعيد ما قالته الجارية عن الشيخ عوضين، ووجد نفسه يغمغم بصوت مسموع ... متى يتخلص المصريون من ضلال الخرافات؟ ومتى يعرف الناس هنا الطريق إلى التفكير العلمي المنطقي مثلما عرفناه في أوروبا منذ قرون؟ تذكر ما قاله له القنصل الفرنسي قبل يومين عن عزم محمد علي باشا استقدام الأوروبيين ليعلّموا المصريين، وكيف أن القنصل لم يكن متفائلا بهذه الخطوة، إذ همس في أذنه (لا يا مسيو شارل ... لا ... من الصعب جدا أن يتطور شعب يترك عمله وأموره ويذهب إلى المسجد خمس مرات في اليوم يقضي فيه وقتا طويلا في الدعاء والتبتل دون أن ينتج شيئا بوهم أن الله

اختاره ويفضله على بقية شعوب الأرض . إن الإنسان المصري يشعر بالتشبع، ويرضى عن ذاته لمجرد أنه أدى طقوسه الدينية، فلا يشعر بالرغبة في عمل شيء مفيد لحياته بعد ذلك كي يطورها للأفضل . يا رجل ... لا توجد جامعة واحدة هنا في مصر، بينما نحن أنشأنا جامعة السوربون بباريس عام 1253 ، أي من ستمئة سنة، لنعلم أبناءنا السياسة والأدب والتاريخ والطب والعلوم . للأسف، إن المصريين بارعون جدا في تبديد الوقت والجهد من أجل إرضاء السماء، وهذا وهم كبير يعشش في رؤوسهم ولن يتخلصوا منه أبدا . إنهم جميعاً، مسلمين ومسيحيين، مشغولون جدا وقلقون ومهمومون بخزعبلات وخرافات عن مستقبلهم بعد الموت : هل سينعمون بالجنة، أم يتعذبون في النار؟) تذكر شارل أيضا تجربته السابقة مع الشاب المصري أيوب السبع الذي قتله جنود الوالي قبل ست سنوات لأنه بدأ يعي ويفهم ويشرح للناس ماذا يعني مفهوم الوطن، وأن الوطن قبل

الدين، وأن الشعب يجب أن يحكم نفسه بنفسه، وأن الوالي ليس إلهًا ولابد أن يحاسَب على قراراته، لكنهم اغتالوه وصحبته في يوم بائس وحزين . تذكر الفنان الفرنسي تلميذه المصري القديم فتألم واحتقنت روحه بغصة، وهمهم بنبرة واثقة (لا يا سعادة القنصل ... بالجدية والإصرار والمثابرة ... بتأسيس المدارس والجامعات ... وبإنشاء المصانع والمزارع والمعامل وبإطلاق الصحف وبناء المطابع ... بتشييد المسارح والمتاحف والأكاديميات ... سيتعلم المصريون وينتجون ويملكون زمام أنفسهم ويتخلصون من الخرافات التي تمسك بعقولهم منذ قرون). ثم صاح مناديًا ياقوتة طالبًا منها أن تعدّ له النبيذ والفواكه .

48

انهارت أم عصفور أرملة الضحية سليمان الحداد . أرسلت في طلب عويس الفرارجي . أخبرته أن بيتها مظلم وحلقها جاف منذ اختفى ابنها قبل يومين ... وغمغمت بأسى :

- هل مقدور عليّ أن أفقد زوجي وابني البكر في شهور قليلة؟

قال لها عويس مشفقا :

- هوّني عليك يا خالتي ... بصراحة ... عصفور يذ ...

ثم توقف مترددًا وهو يداري عينيه عن المرأة المكلومة، فهتفت راجية :

- تحدث يا بني ... لا تُخفِ عني شيئا ... فأنتما مثل الشقيقين !

تجرأ عويس وألقى ما في جوفه بسرعة

كمن يتخلص من عبء ثقيل :

- يا خالتي ... عصفور هوى في غرام الفتاة اليونانية ابنة الخواجة أندرياس !

جفلت المرأة وصاحت :

- يا نهار أسود ... إلى متى سيظل الخواجات وراءنا؟ فالمدعوق أندرياس يتسبب في موت زوجي، وابنته تخطف ابني .

ثم تساءلت بيأس :

- ألا يكفيهم الفقر الذي يخنقنا؟ لقد نفدت البارات والقروش القليلة التي تركها سليمان الله يرحمه، ولا أعرف كيف سأدبر طعام أبنائي غدًا !

هبت واقفة، وأمرت عويس بعصبية أن يدلها على مكان الخمارة !

49

دفعت أم عصفور خلخالها الفضيّ ثمنًا لهذا اللقاء . أصرت على مقابلة الشيخ عوضين عبدالجليل في التو واللحظة حتى لو كان المقابل هو آخر قطعة فضية تملكها، والتي أهداها لها زوجها الراحل سليمان الحداد في لحظة صفاء، وقالت لعويس الفرارجي :

- يا بنيّ ... أدفع عمري كله لأعرفَ أين اختفى ابني عصفور ولأعيده إلى حضني !

على مشارف صحراء الدراسة وقبل الوصول إلى المقابر استقرّ بيت منعزل من طابق واحد يحيط به بستان صغير ترعى فيه الأغنام بحرية تحت ظلال أشجار كثيفة الأغصان . بدا واضحًا أنها لن تستطيع مقابلة الشيخ عوضين اليوم، فأصحاب الحاجات من النساء والرجال ملأوا صحن البيت بأجسادهم وصخبهم ومشكلاتهم وثرثراتهم، وفاضوا حتى سدوا المدقّ

الضيق الصاعد الذي يؤدي إليه . قال لها عويس :

- يا خالتي ... يبدو أنه من الصعب جدا الفوز بمقابلة الشيخ عوضين اليوم .

بإصرار أم محزونة ينهشها القلق على اختفاء فلذة كبدها هتفت والدموع على حافة عينيها تترقرق :

- سأقابله يا عويس ... ورحمة عمك سليمان ... سأقابله .

ثم وقفت فجأة وأمسكت طرف جلبابها ورفعته قليلا حتى ظهر الخلخال الفضي الذي يزيّن ساقها اليسرى وأعلنت بكل ما تملك من عزيمة وتحدّ :

- حتى لو اضطررت أن أهديه هذا الخلخال ثمنا للقائه اليوم، فلن أتردد !

وكان لها ما أرادت، فالجارية الحبشية معصومة خادمة الشيخ عوضين أبلغتها أنه

سيمنحها نعمة الوقوف بين يديه بعد ساعة عندما عرضت عليه الخلخال !

50

قادت الخادمة معصومة أم عصفور في دهليز معتم داخل البيت المنعزل، وقالت لها بنبرة محايدة :

- هنا ينتهي دوري، فإذا اقتربت انضربت ... أما أنت فتواصلين السير بمفردك حتى نهاية الدهليز، سينفتح لك الباب السحري، فادخلي بقدمك اليمنى وأنت ترددين بسم الله الرحمن الرحيم ثلاث مرات، لتحظيْ بالحديث مع مولانا الشيخ عوضين .

ارتجفت أم عصفور، وهي التي عُرفت عنها الصلابة وقوة الإرادة . سارت ببطء في بحر من الظلمة لا ترى شيئا، تبسمل وتحوقل بصوت خفيض بحثًا عن طمأنينة ضائعة في العتمة، يكاد ينخلع فؤادها من فرط الرعب . لم تسمع سوى صوت احتكاك جلبابها بجسدها النحيل . قررت للحظة العودة من حيث أتت، لكنّ طيف ابنها الغائب تمثل أمام عينيها في الظلام

بشرًا سويًّا، فمنحها القوة والإقدام وواصلت المسير . تعجّبت لماذا لم يسمح الشيخ عوضين لعويس بمرافقتها للقائه . اقتربت من الباب السحري . لم تره أول الأمر، لكنه انفتح فجأة وانبثق من الداخل شعاع ضوء أصفر شاحب يحمل روائح غريبة، فاضطربت . نفّذت تعليمات الخادمة بدقة، فوجدت نفسها داخل غرفة فسيحة مضمّخة بروائح نفاذة ليس بها سوى شمعة واحدة مضاءة في الزاوية اليسرى، وطاولة صغيرة في المنتصف فوقها موقد ضخم تنبعث منه أدخنة البخور بكثافة فتحجب الرؤية حتى في وضح النهار .

تسمّرت في مكانها تقاوم رجفة شديدة طارئة . استنشقت البخور فعطست، انتظرت أن يدخل الشيخ من الباب المغلق في الجهة الأخرى من الغرفة، فلم يحدث . استجمعت شجاعتها وقالت بنبرة مرتعشة :

- السلام عليكم يا مولانا الشيخ .

لم تتلق ردًّا، فزاد خوفها وعذابها، وبعد ثوانٍ انطلق صوتٌ عميق حاد النبرات قائلا :

- لا تتحدثي قبل أن أمنحك الإذن يا أم عصفور .

اطمأنّ قلبُها، رغم أنها تلمّست بعينيها صاحب الصوت فلم تعثر له على أثر .
ومضى الصوت يقول :

- جئت تسألين عن ابنك المختفي منذ أيام ... أليس كذلك؟

قالت وقد صوّبت بصرها نحو الباب المغلق :

- بلى يا سيدنا، ابني عصفور اختفى منذ أيام، وقيل لي إنه كان يتردد على خمارة الخواجة أندرياس، وأنه مفتون بابنته .

قال الصوت بحدة :

- ابنك يشرب الخمر، فعاقبه اللّه وحرمه من حنانك !

ردّت المرأة محتجة :

- وما ذنبي؟ فأنا لا أشرب الخمر، فلمَ ينكوي قلبي بنار غيابه؟

- لا تكفري يا أم عصفور ... هذه إرادة اللّٰه .

- ونعم باللّٰه ... ولكن أين ابني؟ قالت لي هيلين ابنة الخواجة أندرياس إنها لا تعرف عنه شيئا منذ شاهدته آخر مرة في الخمارة .

- وهل دخلتِ الخمارة يا امرأة؟

نفت بسرعة :

- لا يا مولانا الشيخ ... أستغفر اللّٰه ... لقد طلب عويس من الخادم أن تخرج هي لنا للتحدث معها .

لم يعلق الصوت ... بل غاب في المجهول، فساد صمت ثقيل لثوان . فكّرت أم عصفور أن تسأل، لكنها خشيت من غضبه إذا تحدثت دون إذن . اكتشفت أن الدموع تنهمر من عينيها دون أن تدري، شعرت بظمإ مفاجئ، فبحثت بعينيها عن قُلّة أو زير فلم تجد، ثمّ عاد الصوت بعد فترة وجيزة :

- سأعيد ابنك إليك بإذن الله إذا نفّذت أوامر الأسياد !

صاحت بلهفة :

- سأنفذها فورًا يا سيدنا الشيخ، فما هي؟

- تطوفين حول مقام الحسين مرتين بعد صلاة العصر من كل يوم لمدة سبعة أشهر .

- سأفعل يا مولانا .

- وتهدين جاريتي معصومة ذكر بط أسود

وسبع دجاجات قبل صلاة الجمعة من كل أسبوع لمدة سبعة أشهر .

شهقت المرأة، وهمّت بالاحتجاج والتوسل لتخفيض المطلوب، لكنها أمسكت وقالت :

- سمعًا وطاعة يا سيدنا .

ثم أمرها قائلا :

- اقتربي من الموقد .

اقتربت ببطء شديد، فقال :

- خذي الحجاب الموجود أسفل الموقد ودسّيه في ملابس ابنك داخل صُرّة من الحرير الأزرق، وأخفيها عن أعين الناس ليحفظ ابنك من كل شر حتى يعود إليك سالمًا .

مدّت راحتها المرتجفة والتقطت الحجاب وخبأته في صدرها، فعاد الصوت ليعلن :

**- في اليوم الأخير من الشهر السابع ...
سيطرق ابنك الباب بعد صلاة الفجر
لتستقبليه بالفرح والزغاريد !**

**انقطع الصوت، وانطفأت الشمعة وزادت
كثافة البخور، فحلّ الظلام المميت، صرخت
أم عصفور وولت هاربة تتخبط في العتمة .**

51

اقترب باباندريو كثيرًا من مدام آماليا حتى شعرت بأنفاسه الحارة تلفح خدها الأيسر وهمس في أذنها معاتبًا :

- لماذا لم تخبرينا أن صوفيا هي التي أعجبت الأمير طوسون بن الوالي؟

صدّته بحركة خفيفة من يديها، وضحكت ساخرة :

- لأني أفرح كثيرًا عندما أجد الفضول ينهش روحك كما تنهش النار الفحم الذي تحتكر تجارته يا كبير الفحامين !

ثم نهضت من مجلسها بهمة لتشرف على الترتيبات النهائية لسهرة الليلة كما تفعل عادة كل خميس، حيث تنتظر زيارة السيد قسطنتين كبير التجار اليونانيين لخان الملذات، فأمرت العبد هلال بوضع الورود في أماكنها، وإيقاد الشموع، كما اطمأنت

على توفر جميع المشروبات خاصة الكونياك الذي يتناول منه الزائر المهم ثلاث كؤوس كبيرة، وتابعت إعداد الطعام في المطبخ، وحرصت على تخصيص كميات كبيرة من لحم الضأن المشوي الذي يفضله سعادته .

لم يكن قسطنتين يمارس الحب أبدًا في خان الملذات، وإنما اعتبر زيارته الأسبوعية مجرد فسحة يتخفف فيها من أعباء العمل، ويلتقي بأبناء جلدته، فيتمازح معهم وينصت إلى شكاواهم ويبحث في حلها، ويرفع بعض المستعصي منها إلى القنصل الفرنسي ليجد لها حلا عند الوالي .
وبالفعل وصل الرجل البدين في موعده المعتاد وهو الثامنة مساءً، مرتديًا سروالا أبيض فضفاضا يبرز بدانته بشكل أكبر، وما إن اتخذ مجلسه حتى جاءته آماليا بكأس كونياك وصحن مملوء بقطع اللحم المشوي والخيار المخلل، ورحبت به قائلة :

- حلم حياتي أن أتشرف بزيارتك كل ليلة يا سيد قسطنتين، وليس الخميس فقط.

ضحك الرجل، وقال وهو يقضم قطعة من اللحم:

- للمديح طعم لذيذ يا آماليا مثل اللحم المشوي ... وأنا لا أملّ من الاثنين، فزيديني من مديحك وطعامك!

قفز باباندريو في تلك اللحظة ليدنو منه ويسأله:

- هل حدثتم الباشا في تخفيض الضرائب على تجارتي الصابون والفحم؟

- لا تقلق سيد باباندريو ... لقد اتفقت مع بوغوص بك بحضور القنصل الفرنسي ووعدني أن القرار سيصدر خلال أيام.

تورّد وجه الرجل وصاح:

- أشكرك جدا يا كبيرنا ... فأنت تعرف أن

تجارتنا كسدت كثيرًا في السنوات الماضية بسبب الاضطرابات التي شهدتها مصر، ومع ذلك حا ..

قاطعته آماليا وقالت مداعبة :

- انتبه من فضلك ... تاجر الفحم هذا لا يشبع من الأرباح يا سيد قسطنتين !

قهقه الرجل البدين وعبّ ما تبقى من الكونياك في جوفه دفعة واحدة وصاح :

- وهل ثمة رجل واحد يشبع من الأموال يا عزيزتي؟ حتى الوالي محمد علي أغنى باشوات الامبراطورية العثمانية كلها والذي يملك كلّ أراضي مصر الآن، استولى على الأوقاف المخصصة للمساجد والمؤسسات الخيرية قبل ثلاث سنوات، وهو ما لم يجرؤ على فعله أي حاكم لمصر منذ دخلها الإسلام كما أخبرني أحد كبار التجار المصريين ... وللعلم، فسحر المال يا عزيزتي يُسيل لعاب الأثرياء قبل الفقراء،

فهم يعرفونه أكثر منهم !

- ولكن يا ..

ويتوقف باباندريو عن مواصلة الحديث، إذ سُمعت طرقات عنيفة على الباب، فاشرأبت رؤوس الجميع نحو مصدر الصوت، فإذا بهيلين ابنة الخواجة أندرياس تقتحم خان الملذات وهي تصيح مخاطبة السيد قسطنتين :

- من فضلك ... أريد التحدث إليك فورًا .

52

ارتبكت مدام آماليا عندما رأتها، حاولت مداراة اضطرابها بضمها إلى صدرها وتقبيلها، ولاحت منها نظرة لا إرادية إلى عبدها المفتون هلال الأسود، لكن الفتاة تلقت الحفاوة بفتور، إذ كانت مصرة على هدفها، وهو التحدث سرًّا إلى كبير التجار، قادته برفق إلى المطبخ الذي انبعثت منه روائح الشواء والطبخ تسد الأنوف وتفتح الشهية . جدّد ظهور هيلين ذكرى مقتل أبيها الخواجة أندرياس، واستعاد الحضور مناقبه وأشادوا بأخلاقه، ولم ينس باباندريو أن يدس السم في السيرة، فتحدث عن جشعه وطمعه قائلا (إن أندرياس جمع ثروته الطائلة بالانقضاض الخبيث على جيوب الأوروبيين والمصريين) ورغم أن آماليا كانت تحاول جاهدة التنصت على ما يدور بين الفتاة والسيد قسطنتين بأذن، غير أنها شحذت أذنها الأخرى لتسمع ما يقوله الحضور بالصالة، ورمت باباندريو بنظرة قاسية ألجمت

لسانه !

53

أطلّت صوفيا بوجهها المورّد من شرفة الدار الفاخرة مع شروق الشمس، تلقت أنفاس الصباح بصدر منشرح، ورأت الأشجار والنخيل والطيور السابحة في الفضاء فتألقت عيناها بالمشهد الخلاب . تذكّرت بأسى طفولتها القريبة المترعة بالأحلام والمرح وسط الوديان والبساتين في جورجيا قبل أن يبيعوها في أسطنبول لتاجر تركي بعد وفاة والديها إثر جائحة الكوليرا التي أودت بحياة نصف سكان قريتها . وقد سحبها هذا التاجر وراءه إلى القاهرة وباعها لمدام آماليا بثمن بخس دراهم معدودات، فألحقتها بمدرسة العاهرات بعد تدريبات قليلة، فمارست مهامها في خان الملذات بإتقان، لكن دون شغف، حتى جاء الأمير طوسون ذات ظهيرة، فبهرتها رقّته، وسحرها شبابُه المتدفق فمنحته بسخاء، وتمنّت لو يعود مرة أخرى، فلما جاء مشتعلا بالشوق واللهفة، غادرت معه خان الملذات مكللة

بالأحلام الوردية، مؤمنة تمامًا أنه رجل حياتها الوحيد إلى الأبد .

أفاقت صوفيا من دوامة الذكريات على لمسة رقيقة على كتفها من أنامل الأمير طوسون الذي عاتبها برقة وقال لها بنبرة هادئة مصممة :

- حبيبتي ... لا أريد أن يراكِ أحد سواي ... فادخلي مخدعك .

رمقته بنظرة دلال وهمست :

- ولكن منظر النيل من هنا بديع وساحر؟

غمغم موافقا، ومنحها قبلة على وجنتها اليمنى وطوقها بذراعه، ثم قادها إلى الداخل برفق . كان الأمير واضحًا معها (سأخصص لكِ دارًا فسيحة مزدانة بالتحف والرياش والثريا والجواري والعبيد، بشرط ألا تخرجي منها أبدًا إلا بصحبتي). وبالفعل وافقت الفتاة المبهورة بالثراء الفاحش،

وبالشاب المفتون . وهكذا انتقلت من خان الملذات الذي يتوسط الحي الإفرنجي بالأزبكية، إلى دار أكبر وأضخم بحي شبرا مكونة من طابقين وتشرف على النهر الخالد من مسافة ليست بعيدة .

لقد اشترى طوسون تلك الدار من تاجر فرنسي، كان ضابطا في جيش الشرق مع نابليون بونابرت، تخلّف عن الرحيل مع جنود الحملة من مصر عام 1801 ، حيث استقر في القاهرة، وعمل بالتجارة وتزوج ابنة تاجر قبرصي، وقد عاونه القنصل الفرنسي كثيرًا حتى راجت تجارته وأصبح من أكبر أثرياء تجار البن . أما صوفيا فلم تدرك أبدًا أن كل يوم يمر عليها مع الأمير سيقربها أكثر من السقوط في جب المصيبة والغياب في الحقول !

54

فوجئت صوفيا بعد أن ارتوى الأمير من مائها العذب أن نهض بحماسة، ودون حتى أن يرتدي ملابسه، خرج إلى الغرفة الملحقة بغرفة النوم، ثم عاد سريعًا حاملا بين أنامله عقدًا من الماس، ومضى يزيّن به جيدها، وسط حالة من الانبهار الرائع انتابت الفتاة، التي قالت له :

- لقد غمرتني بهداياك يا حبيبي ... ألم تمنحني الأسبوع الماضي قرطا من الذهب؟

ابتسم الأمير ولثم راحتها اليمنى وهمس في أذنها :

- بلى، لأنّ جمالك يستحق أكثر من الذهب، ولأن حنانك يتدفق بحيوية ... ولأنّ صراخك في أثناء رقصة النكاح أعذب الأصوات !

احمرّ وجهها خجلا، وهمست بدلال :

- عيب يا سمو الأمير، فما يحدث على هذا السرير من الأسرار الحميمة لا يصحّ الحديث عنه !

قهقه الشاب وعاد إلى الخلف وألقى بجسده فوق السرير وقال :

- تخيلي أن شقيقي الأكبر إبراهيم باشا يتهمني بالتبذير ويشكوني إلى والدي الذي يعاتبي على كرمي، وينصحني بالتريث في الإنفاق .

فجلست بجواره وأحاطت خصره بذراعها وسألته بجدية :

- وماذا قلت لوالدك؟

- أبدًا ... قلت له إنك باشا مصر وحاكمها القوي، ولا يليق أن يمسك ابنُك يده عن الكرم والتباهي بسلطان أبيه وأمواله .

ضحكت وضمته إلى صدرها بقوة، فتلقاها بشغف وصرخت من جديد !

55

بعد يوم عمل شاق انقضى في مقابلات مع قناصل الدول الأوربية من أجل التفاوض على إيفاد المهندسين والأطباء والضباط والبحارة إلى مصر، عاد بوغوص بك إلى داره بالحي الإفرنجي مشوّش البال والتفكير، ومضى يتساءل : ماذا يريد الوالي بالضبط؟ هل حقا من الممكن تحرير مصر من قيود التخلف؟ هل هو قادر على جعل المصريين أكثر حكمة واستنارة؟ ألا يعرف الباشا أن المسلمين هنا يكرهون المسيحيين كرهًا شديدًا، ويتعاملون معهم بوصفهم كُفّارًا أو أناسًا أقرب إلى الحيوانات؟ ألم يخبره أحد أنه من المحال أن يظلّ المسيحي ممتطيًا حماره أو بغلته إذا مرّ برجل مسلم، مهما بلغت مكانةُ هذا المسيحي؟ إذ عليه أن ينزل من فوق دابته وينحني خشوعًا حتى يعبر المسلم !

عاد بوغوص يتساءل : هل يمكن لبلد أن يتقدم وهذه حال أبنائه؟ إن التجانس

الاجتماعي والاعتراف بحقوق الآخرين وفضيلة التسامح هي التي تقود الشعوب نحو النور، والمصريون بكل أسف لا يدركون من هذه الأمور شيئا، فمنذ جئت إلى مصر قبل عقد من الزمان أو أكثر، والمصريون على حالهم البائسة ذاتها، فكيف لهذا البلد أن يدرك سبل التطور الذي صنعته أوروبا؟

حقا .. محمد علي طموح، ولكن ألا يصطدم الطموح أحيانا بأرض الواقع؟ ألا يمكن للوالي أن يخطئ؟ ولكن من يملك القدرة على إبداء رأي يخالف آراء وليّ النعم؟

ما لك يا بوغوص؟ هل سئمت العمل تحت قيادته؟ ألم يمنحك المزايا والأموال؟ ألا تتمتع براتب كبير ودار فخمة بأرقى منطقة بالقاهرة تحتضنك وزوجتك الطيبة؟ هل نسيت قطعة الماس التي تزن 17 قيراطا، والتي أهداها لك قبل عام؟ هل تفكّر في العودة إلى أرمينيا؟ ألم تهجر موطنك بحثا عن الرزق الوفير؟ صحيح أنك تتمتع في مصر المحروسة بالمنصب الرفيع، إلا أنّ

العمل تحت إمرة محمد علي أمرٌ محفوف بالمخاطر .

قال الرجل لزوجته عندما وجدته ساهم البال :

- لا شيء ... إنه قلق مشروع ينتاب كل من يعمل مع حكام المسلمين .

ثم طلب منها إحضار الكتاب المقدس بعد تناول العشاء . ومضى إلى غرفته الخاصة في الطابق الأرضي من داره الفخمة، تلك الغرفة التي ينعزل فيها عن الجميع ليستعيد نشاطه العقلي، فقد زانها بكتب ومراجع في السياسة والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والفلسفة والفنون، جمعها كلها من رحلاته إلى أوروبا . أشعل بنفسه المصباح المثبت في الجدار الأيمن، فانساب نهر النور ليملأ الغرفة، ثم استلقى على الأريكة المكسوة بفروة خروف وظل نحو نصف ساعة يتلو ما تيسّر من إنجيل متى، فتنبْه هذه الآيات فكرر

قراءتها أكثر من مرة حتى فاضت دموعه : (تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم . احملوا نيري عليكم وتعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لنفوسكم، لأن نيري هيّن وحملي خفيف).

ولما فرغ من القراءة، بحث في مكتبته عن كتاب في تاريخ مصر وطبيعتها، ولما لم يجد، قرر أن يوصي القنصل الفرنسي بأن يمده بأي كتب عن مصر تكون قد صدرت في باريس، وغمغم بصوت واهن : (لعلي أعرف هل يستطيع الباشا تطوير هذا البلد أم لا؟) ، ثم شرع في أداء الصلاة داعيًا الربّ أن يحافظ عليه ويشمله ببركته وأن يحميه وأسرته من أي غدر أو بطش أو وشاية .

لكنه لم يكن يعرف أبدًا الكارثة التي تنتظره بعد أيام !

56

قبل أن يلفظ الليل أنفاسه الأخيرة، استيقظت أم عصفور الحداد على طرقات خفيفة على الباب، جفلت ورددت (خير اللهم اجعله خيرًا) ، وبالفعل كانت طرقات خير، إذ أهلّ عليها ابنها بعد اختفاء دام عشرة أيام كاملة . ارتمى في حضنها بعرقه وقذارة ملابسه ورائحتها النتنة وبكى، غمرته بقبلاتها وسألته :

- أين كنت يا ضيّ العين؟

حكى لها كيف أمسك به الجنود الأرناؤوط وأودعوه سجن القلعة، بتهمة التربص بدار بوغوص بك بالحي الإفرنجي بقصد الاعتداء على ناظر المالية، ولما أقسم لهم أنه لا يعرف من بوغوص هذا، وأنه ضحية حبّ مكتوم لفتاة من الجنة، لم يصدقوه، وضربوه وعذبوه وبصقوا عليه، لكن وبدون مقدمات، جاءهم أمرٌ من كبير الشرطة بالإفراج عنه . لثمت الأم الحزينة جبينه

وربتت كتفه وأمرته بحزم :

- ابتعد عن ابنة اليوناني .

ثم تذكرت الشيخ عوضين عبد الجليل، فصاحت مندِّدة :

- ابن الكلب النصاب الضلالي ... خدعني وزعم أنك لن تعود إلا بعد سبعة أشهر، واستولى مني على الخلخال وذكري بط وأربع عشرة دجاجة ... والله سأفضحه هذا الدجال .

وفي عجالة حكت له ما كان، فابتسم وضمها إلى صدره مواسيًا . ثم استحمّ وأكل ونام، فشاغبته الأحلام، وطاردته أطيافُ الراحلين، فرأي والده يدخل ورشة الحدادة بصحبة هيلين وقد نبتت لها أجنحة، بينما الخواجة أندرياس يتبادل حوارًا لطيفا مع كبير الشرطة نفسه ويضحكان، فاقترب منه عصفور وسأله ... من قتلك يا خواجة؟ فلم يرد، لكن هيلين

دنت منه وهمست : لا تسل الراحلين عن سر غيابهم، لأنهم يهربون من الأرض إلى السماء ليسبحوا في الملكوت . ثم قبلته في وجنته، وطارت نحو بساتين الحي الإفرنجي مخلفة وراءها بعض الريش الناعم ورائحة برتقال جميلة .

57

استقيظ قبل أذان المغرب غارقا في العرق والتشويش، فاستحم مرة أخرى وتناول طعامه على عجل، وقد عقد العزم على مقابلة هيلين والتحدث إليها، مهما كلفه الأمر من مشقة . وقبل خروجه جاء عويس الفرارجي مهنئا بسلامته، وقال له :

- أظن أن هذه التجربة القاسية قد أكدت لك أن الاقتراب من بنات الخواجات له عواقب وخيمة !

وأضاف ناصحًا :

- دع هذه الملعونة لخمارتها وفجورها .

انزعج عصفور بشدة من فظاظة التعبير، وتكدس الغيظ في عينيه، فكظمه على مضض، وطلب من صديقه ألا يتحدث عنها بسوء، ثم أطلق تهديده بقوة :

- أقسم بالله يا عويس ... إذا كررت شتائمك لهيلين، فسأقطع علاقتي بك إلى الأبد .

وافترق الصديقان على غضب وخصام .

58

توجه عصفور على الفور نحو الخمارة، بعد أن حشر جسده في جلباب أبيض فوق سروال رمادي، واعتمر عمامة ضخمة أحاطت بوجهه الخمري المدوّر كإطار يبرز نضارته وحيويته . كان على مشارف عامه التاسع عشر، ذا قوام طويل متناسق، وملامح دقيقة تجلوها عينان جميلتان سوداوان واسعتان، أما عضلاته فمفتولة بحكم عمله في ورشة الحدادة مع أبيه .

بخطوات سريعة غادر درب الجماميز، وسار في اتجاه جامع البنات، ثم انعطف يسارًا نحو الأزبكية . في قلبه تمطر أشواق، وفي عقله تتلاطم أسئلة . لم ينتبه إلى نباح الكلاب المتصاعد كلما اقترب من مقهى عامر بالزبائن والدخان، ولم ينزعج من تصاعد نقيق الضفادع في الترعة التي يسير محاذيًا لها قرب الرويعي، ولم تشغله تحركات بعض جنود الأرناؤوط عند مدخل الحي الإفرنجي، فقد نسي عذاب الحبس

والإذلال، لأنها كانت هناك ... الهدف والرجاء، فهيلين تملك الحل ... وهيلين تهب السعادة .

استقبلته بفرحة طفلة، وركضت نحوه غير عابئة بعازف البيانو ولا صخب المخمورين، وبحركة سريعة رشيقة زلزلت كيانه لثمت وجنته وهتفت :

- نشكر الرب لأنه أنقذك ... لقد أوفى السيد قسطنتين بوعده .

وهنا عرف عصفور سر الإفراج عنه، حيث تدخل كبير التجار اليونانيين لدى كبير الشرطة وبوغوص بك بعد أن رجته هيلين، إثر لقائها بوالدة أم عصفور، وهكذا قال لها ممتنا :

- إذن، فأنا مدين لك بحياتي !

ابتسمت وألقت في وجهه المعلومة الحاسمة :

- في الليلة المشؤومة ... تشاجر والدك مع أبي على عدد الكؤوس التي تجرعها، وارتفع صوته مهددًا، وفي حدود الثالثة صباحًا غادر الخمارة ثملا لا يقوى على نقل خطواته، فكاد يسقط على مدخلها، لولا أن أسنده السقاء أمين الدواخلي الذي تصادف مروره في ذلك الوقت .

أنصت إليها بذهول فواصلت كشف المستور :

- وعندما جاء السقاء فجرًا ليملأ الأزيار بالمياه كالمعتاد، وجد جثة أبي ملقاة على حافة بركة الأزبكية، ولما أمسكوا والدك، جاءني وأقسم لي ... إنه من المحال أن يرتكب سليمان الحداد هذه الجريمة، فقد أوصله حتى باب بيته وهو خائر القوى غائب عن الوعي تقريبًا .

انفعل عصفور وصاح :

- ولماذا لم يتكلم؟

- خشيَ من كبير الشرطة !

انهار عصفور وألقى بنفسه فوق أول مقعد دافنا رأسه بين كفيه استسلامًا لقدر أعمى، بينما ربتت هيلين كتفه مع إيقاعات البيانو المتسارعة .

59

عند مدخل حارة المشهد الحسيني، وفي أثناء تأمله للزخارف الفاطمية التي تتصدر واجهة المسجد العتيق، سمع الخواجة شارل صوتًا ناعمًا يناديه باسمه . التفت إلى الخلف فرأى امرأة لا تتجاوز الثانية والعشرين وبرفقتها طفل في السادسة . عرفها من النظرة الأولى . لم تتغير كثيرًا، ورغم أنها فقدت ضحكتها وإشراقة وجهها، غير أنها مازالت تحتفظ برقتها ونظرتها الطيبة وملامحها الرقيقة الهادئة . أقبل نحوها بقلب يضطرم بالذكريات، وسألها وسط لزوجة أغسطس وباعة البطيخ والخضروات وضجيج المارة :

- كيف أحوالك يا مدام سعدية؟

ابتسمت ومدت يدها لتصافحه وأجابت :

- الحمد لله يا مسيو شارل !

ابتسم وتذكر ما مضى بقلب مختنق بالأسى، وواصلت مشيرة إلى طفلها :

- هذا ابني أيوب ... أسميته باسم أبيه زوجي المرحوم أيوب السبع !

هوت فوق رأسه الشهب الحارقة، فتماسك بصعوبة، وقال بنبرة حزينة وهو يتأمل قسماته :

- ما أجمله ... إنه يشبه والده كثيرًا .

غمغمت موافقة، ورددت بحسرة :

- لم يبق من أبيه سوى صورته التي أهديتها لي في ليلة مقتله !

المواجع تتراكم يا سعدية، فارحمي القلب المحزون . أزعجه بائع عرقسوس ذو أجراس حادة، فتنحى جانبًا، وفجأة سأله الطفل :

- هل أنت عمي مسيو شارل الخواجة

الفرنسي الذي رسم صورة أبي المعلقة في دارنا؟

انحنى يقبله بمودة، ويعبث بشعره الناعم محاولا إيقاف تدفق دموعه غير المرئية وقال له :

- أجل أنا يا أيوب ... هيا أعلمك فنون الرسم لو أحببت .

تعلق الطفل بعنقه وصاح :

- علمني أرسم أمي وأبي والحمامة البيضاء .

اغرورقت عينا شارل بالدموع، فجففها على الفور وقال :

- سأعلمك ما تريد يا حبيبي .

ثم استعاد وقفته وتفرس في وجه سعدية وسألها بريق جاف :

- كيف حال الأهل؟

همست بنبرة أسى :

- كلهم ذهبوا وتركوني وحيدة ... أبوب ووالدي وأمي، لم يتبق لي سوى الذكريات والأحزان والمستقبل المجهول . الله يرحم الجميع .

حاول تطييب خاطرها قائلا :

- أنت مازلت شابة والآمال الطيبة تنتظرك .

- الحمد لله على كل شيء .

مرق بجوارهما طفل يعدو مسرعًا خلف قطة خائفة، فابتسم الاثنان، وقال الرسام :

- أين تقيمين حاليًا؟

- في داري نفسها هنا بحارة المشهد الحسيني، لن أترك دار زوجي الراحل أبدًا

... إن روحه تعيش معي وتؤنس وحدتي وتهبني الأمان . أما أخي فيتولى شؤون دكان العطارة الذي ورثناه عن والدي ويعيطيني نصيبي من الأرباح كل شهر .

ما أقسى الأيام، وما أروع المرأة المخلصة، وعاد شارل يقول :

- على أي حال أتمنى لك الخير على الدوام، ولو أردت أي شيء ... فأنا مازلت أقيم في داري بحارة الدرب الأصفر ... تحت أمرك في أي وقت .

شكرته بحركة من رأسها وسألته :

- متى عدت من فرنسا؟

- قبل أشهر قليلة .

- نورت مصر ... بلدك الثاني كما كنت تقول للمرحوم أيوب .

انهالت في قلبه الذكريات ودهمه خاطر

مفاجئ، أن يسألها عن مسعدة حجاب وابنهما محمد، لكنه أمسك، ثم ودّعها متمنيًا لها السعادة . وقضى شارل ليلة أخرى حزينة تضاف إلى ليالٍ كثيرة باركها الشجن والعذاب .

60

استشاط محمد علي غضبًا بعد أن اطلع على آخر رسالة مؤشر عليها بـ «سريّ للغاية » ، وأرسل في استدعاء بوغوص بك على عجل، وما إن مثل أمامه حتى صرخ في وجهه قائلا :

- كيف تنسى متابعة أوامري بإرسال الزوارق الحربية في موعدها إلى السويس؟

ارتجف الرجل وانفجر شلال العرق من مسامه وقال بنبرة مرتعشة :

- سيدي ... لم أنسَ، لكني آثرت الانتظار حتى ينتج المصنع عددًا أكبر من الزوارق، ونرسلها كلها في قافلة واحدة توفيرًا للوقت والمجهود والنفقات .

امتلأت عينا الوالي بالغضب الأحمر، وهتف :

- أنا من يقرر وليس أنت يا بوغوص الكلب .

ثم أمر بصوت عالٍ أجش تردد صداه في أركان القلعة :

- فليُسَقْ من قدميه وليُعدَم في الحال !

انتفض ناظر المالية وغاص قلبه في قدميه وراح يبول على نفسه !

61

في لحظة، اكتشف بوغوص بك أن الموت أقرب إليه من حبل الوريد . وأن الباقي من الزمن دقائق، وأن حياته معلقة بخيط واهٍ يتدلّى من سقف الاستبداد والرعونة والجنون وقد ينقطع فجأة، وأنه سيغادر الدنيا حتى دون أن يودّع زوجته . ردّد باطنه : (فليُسَقْ من قدميه ... العبارة المشؤومة التي تستدعي عزرائيل من مكمنه، هذه نهاية من يتعامل مع حكام المسلمين ... ما أبشع غبائي؟ لماذا هجرت أوروبا وجئت إلى هذه البلاد البغيضة . فليسق من قدميه ... حسنًا يا باشا ... فلتفعل بنا ما تشاء ... ألستَ وليّ النعم؟ ألسنا نحن عبيدك الطيبين، ألستَ المانح المانع؟ ألستَ الآمر الناهي؟ فلتوقف دوران الأرض وحركة الشمس وتطفئ نور القمر وتظلم السماء وتقطع الرؤوس !).

قاده كبير الحراس شوكت أفندي نحو شاطئ النيل، حيث وضعه الجنود في

عربة تجرها بغلة بعد أن كبلوه بالحديد، حتى يُلقى بجسده في قاع النهر كما هو معتاد . كانت الشمس تتوسط القبة الزرقاء بغرور وترسل أشعة ساخنة لا تناسب شهر سبتمبر، وقد سارت بهم العربة بحذاء الشاطئ حتى بلغوا مرسى بولاق، حيث أنزلوه وحاولوا السير به أسفل النهر، لكن الرجل زاغ بصره وشحب لونه وتهدّم بنيانه فلم يعد يقوى على المسير، فأمر كبير الحراس جنوده الأربعة بحمل بوغوص بك فحملوه كعنزة مسالمة . وبينما هم سائرون أمرهم بالتوقف تحت شجرة طلح معمرة، فأنزلوا حملهم المسكين برفق شديد، ثم شرعوا في تجفيف العرق وهندمة ثيابهم انتظارًا للأمر التالي، لكن شوكت أفندي فاجأهم بما أسعدهم وفرّح قلوبهم، إذ قال :

- أمامكم نصف ساعة راحة واستراحة لتتناولوا المأكولات والمشروبات في الحي المجاور .

نفحهم ريالين فرانسة، لكنه لم ينس أن يعيد الضبط والربط على أسماع الجنود قائلا :

- الويل لمن يتأخر عن الموعد المحدد .

هلل الجنود الحراس فرحين، واعتبروها منحة وفسحة وفرصة يرون فيها المدنيين والمدنيات من أبناء وبنات حي بولاق العتيق . وما إن غاب الجنود عن الأنظار وذابوا في الحواري والأزقة، حتى أسرع شوكت أفندي وفك قيود بوغوص بك، ثم قاده إلى حارس المرسى وقد استرد عافيته قليلا، وهمس في أذنه :

- اسمع سيدي بوغوص بك ... نحن أرمن ننتمي إلى السلطنة العثمانية ... وأنت صاحب أفضال كثيرة عليّ . هل تذكر عندما رجوتَ الباشا أن يرفع راتبي واستجاب لرجائك وفعل؟ هل تذكر عندما أقرضتني مبلغا كبيرًا من المال لأصطحب زوجتي إلى باريس بحثا عن طبيب يداويها من

مرض السل بعد أن عجز الأطباء هنا عن تخفيف آلامها؟ لذا لن أذوق النوم أبدًا إذا نفذت أوامر الوالي وقتلتك ... سأنصت إلى ضميري وأخالف أوامر الباشا، وليحفظنا الرب من بطشه وجبروته .

تأمله بوغوص بذهن مشوش وملامح معتمة، حاول التحدث فانحاش الكلام في جوفه، لكن شوكت أفندي ابتسم بهدوء وقال :

- لا تخف ... سأخفيك في منزل مهجور بالقرب من شاطئ النيل في الضفة الأخرى ناحية إنبابة حتى ندبر لك طريقة للرحيل من هنا وتعود إلى موطنك بأرمينيا .

والتفت يمنة ويسرة وقال محفزا :

- والآن ... اخلع نعليك وخاتمك وأية أشياء أخرى ثمينة تدل عليك . سأحتفظ بها فترة .

ثم تقدم شوكت أفندي إلى حارس المرسى مستغلا جهله برجال السلطة وبعده عنهم قائلا :

- هذا صديقي أندريه بك يريد فسحة نيلية منفردًا لمدة ساعتين بناءً على أوامر الحكيم لأنه عليل البدن، وأبغي إكرامه لأفضاله علينا .

أنقده مبلغا مجزيًا من المال، فانشرح وجه الحارس وتحرك بالمركب سريعًا، بينما ظل شوكت أفندي جالسًا في موقعه يراقب ابتعاد المركب بمن يحمله عن الشاطئ، فلما جاء الحراس الأربعة وبّخهم بعنف واتهمهم بالتقصير وتمادى في رفع صوته بزعم أنهم تأخروا عن الموعد المحدد، وصاح لائمًا :

- أكنتم تظنون أن المهمة لن تتم بدونكم؟ هل هذا جزائي لأني رفقت بكم وسمحت لكم بالراحة والفسحة والاختلاط بالمدنيين بدلا من معاشرة الأحجار والأسوار

والقضبان بالقلعة؟

- يا أفندم نحن لم نتأخر، حضرتك قلت نصف ساعة ونحن وصـ...

أسكته بحركة من يده وهتف مفتعلا المزيد من الغضب :

- اخرس ... حسابي فيما بعد .

ثم أخبرهم أنه اضطر أن يستعين بالعاملين في المرسى عندما تأخروا وألقوا بوغوص بك في النهر . ثم أعطى أحد الحراس المقتنيات الخاصة بالقتيل المزعوم، مؤكدًا له وجوب تسليمها للأمانات في القلعة حتى يتم تسليمها إلى ذويه . ثم قاد الحراس عائدًا إلى القلعة، فلما بلغوها ذهب كل منهم إلى مقر عمله، بينما انحدر شوكت أفندي سريعًا عائدًا إلى بولاق، حيث تابع وصول المركب إلى الشاطئ، فاستقبل بوغوص ببسمة رائقة قائلا :

- هيا نتوجه نحو البيت المهجور بإنبابة حتى نتدبر الأمر في تهريبك من هنا .

بكى بوغوص بك وهو يهمهم بنبرة دامعة : (فليُسَقْ من قدميه وليعدم في الحال).

62

آماليا ترقص ... آماليا تزغرد .... آماليا تقلد نعيمة العالمة .

اقترح الفكرة باباندريو، ورحبت بها آماليا . وهكذا جاءت نعيمة العالمة وفرقتها لتحيي ليلة الجمعة في خان الملذات . كان التاجر اليوناني سعيدًا جدًا بإبرام صفقة الفحم الأخيرة، حيث ربح منها مئة بورصة، لذا همس في أذن صاحبة الخان أنه سيعدّ مفاجأة للقنصل الفرنسي والسيد قسطنتين اللذين ساعداه في إبرام هذه الصفقة، ثم ضحك قائلا : (مفاجأة فنية شعبية مصرية).

في البداية انزعجت آماليا من دخول المصريين عرينها السعيد، لكن مع إلحاح باباندريو وبنات الخان وافقت، بل ورحبت حين قال لها باباندريو إنه علم أن القنصل الفرنسي يذهب أحيانا إلى الحواري والأزقة في الأزهر والسيدة ودرب

الجاميز وبولاق ومصر القديمة ليحضر الأفراح الشعبية وليالي الزفاف المصرية ويتحدث مع أبناء البلد، ثم هتف : (إنه مشغول جدًا بالتعرف على عادات المصريين وسلوكهم وتراثهم، لذا سيبتهج كثيرًا بهذه المفاجأة) ، فلما أبدت آماليا ذهولا من هذه المعلومات عن القنصل، استطرد باباندريو : (هل تعلمين أنه يدعو إلى داره أشهر مطربي مصر إبراهيم الورّاق وفرقته الموسيقية لإقامة حفلات الغناء والطرب؟)

لم يكن مع نعيمة العالمة سوى عوّاد وطبال وقانونجي، ومع ذلك فقد ضجّ الخان بالصخب، وارتفع رنين الصاجات، وسرعان ما اندمج معهم بموسيقاه عازف البيانو المسن، ودارت الكؤوس والرؤوس، واستحوذت الراقصة على إعجاب الرجال، وأشعلت غيرة النساء، وقال باباندريو لمن بجواره وهو يعبّ خامس كأس من الكونياك :

- كيف لهذه المرأة البدينة أن تحرك جسدها بتلك الليونة واليسر؟

**أطلقت نعيمة الزغاريد، فاستجاب لها لهيب الشموع واهتز مع نسمات الليل . وفي حركة مفاجئة جذبت نعيمة صاحبة الخان وحزّمتها، طلبت منها أن تقلدها ...
فاستجابت آماليا وسط هدير من الضجيج والضحك والتشجيع وتصفيق العاهرات .
تجرأ العبد هلال وحمل سيدته كعصفورة، على الرغم من بدانتها النسبية، ودار بها عدة دورات في تلك الأجواء الصاخبة إلى درجة أنهم لم ينتبهوا لوصول القنصل الفرنسي الذي اتخذ مجلسه بجوار السيد قسطنتين !.**

63

لما تعبت النغمات وأرهقت الصاجات انطفأت الإيقاعات وتوقفت نعيمة عن الرقص، فاصطحبها العبد هلال الأسود إلى المطبخ هي وفرقتها، ووضع أمامهم صحون الأرز واللحم والمقبلات والملاعق والشوك والسكاكين، فلم يعرفوا ما هذه الأدوات، وسألت نعيمة :

- ماذا نفعل بهذه الأشياء؟

ثم أزاحت أدوات المائدة بيدها، ومضى الجميع يلتهمون الطعام التهامًا مستخدمين كفوفهم اليمنى وأصابعهم في سهولة وسرعة !

اقتحمت آماليا المطبخ بصحبة باباندريو، ودسّت في صدر الراقصة خمسة ريالات فرانسة وقالت بامتنان ورائحة النبيذ تفوح من فيها :

- شكرًا يا نعيمة ... سأدعوك مرات كثيرة !

- وأنا خادمتك يا ست !

تألقت عينا باباندريو بالشبق فمد راحته نحو صدر نعيمة العالمة بجرأة، فأبعدتها بعنف ونهرته، فغض طرفه خجلا ومرق من المطبخ هاربًا عندما لمح العملاق هلال على أهبة الانقضاض، وقد لحقته نظرات غضب من سيدة الخان .

في الصالة هبت رياح مفاجئة فأغلقت ضلفة البلكون، حيث اتخذ كل من القنصل الفرنسي والسيد قسطنتين مكانا قصيًا، وراحا يتبادلان أطراف الحديث عن الصفقات والعمولات !

64

غاب الأمير طوسون عن حضن صوفيا خمسة أيام متتالية للمرة الأولى منذ أن أسكنها في داره المطلة على النيل بشبرا . وجدت الفتاة الجورجية نفسها أسيرة للملل والضجر، وقد شكمت رغبة عنيفة تدفعها إلى الوقوف في الشرفة والنظر إلى النهر، لأن حبيبها الغائب يرفض أن يطّلع أحد على جمالها الساحر لو أطلت من الشرفة، وتذكرت مقولته الرقيقة وابتسمت (حتى النهر ... أغار منه لو رنت مياهه العذبة إليك يا حبيبتي). ورغم أن الدار عامرة بالجواري والخدم، إلا أنها شعرت باليتم، وفقدت شهيتها للطعام والكلام مع أحد، فقد شغفها الأمير حبًا، فباتت لا تتلذذ بنعمة النوم إلا إذا كانت مختبئة في صدره، تشمّ رائحة جسده الفوّاح بالعطر الفرنسي . وقبل عشرة أيام فوجئت به يهديها عقدًا جديدًا من الذهب قائلا برقته المثيرة :

- صوفيا ... أرجو أن يليق هذا العقد بجيدك المرمري .

ابتهج خاطرها وقالت ببسمة تكسو وجهها الملائكي :

- يا سمو الأمير ... لقد أغرقتني بهداياك، فأنت الكرم كله كما يصفك الناس بحق !

اليوم وقبيل المغرب وصل طوسون إلى الدار أخيرًا مرتبك البال قليلا، سألته على الفور وهي تنزع عنه عمامته وتقبل وجنتيه وشفتيه وعنقه :

- أشعر بك غير سعيد، فما الخبر يا حبيبي؟

لثم خدها الأيسر، وقال بنبرة حزينة :

- عليّ أن أبحر إلى أرض الحجاز لمواجهة الوهابيين والقضاء عليهم كما أمرني أبي .

شهقت صوفيا وصاحت :

- وتتركني هنا وحدي؟

ضمها إلى صدره بقوة، وهمس في أذنها :

- لن أتركك أبدًا يا حبيبتي، فأنت معي أينما ذهبت .

فتملصت منه برفق وقالت بغضب مصطنع :

- لقد هجرتني بالفعل لخمس ليال !

ابتسم الشاب الوسيم، وقال :

- كنت أرتب للحملة العسكرية التي سأتولى قيادتها ... إنها حملة ضخمة تضم ثمانية آلاف جندي، منهم ستة آلاف من الأرناؤوط !

غمغمت وقالت وهي تسوّي شعرها الأصفر الناعم أمام المرآة :

- يعني من بني قومك ... حسنا ...

وزوجتك؟

- سترافقني بطبيعة الحال، لكن الحب سيكون من نصيبك أنت وحدك يا صوفيا .

لوت شفتيها امتعاضا، وسكتت برهة ثم عادت لتسأله :

- متى سنرحل لأستعد؟

- بعد عشرة أيام ... في مطلع أكتوبر .

ثم أطلق مفاجأته :

- غدًا سأستدعي إبراهيم الورّاق أشهر مطرب في مصر كلها ومعه فرقته الموسيقية لنستمتع بالغناء والطرب حتى الصباح قبل أن نرحل إلى الصحراء القاسية .

فتهلل وجهها بالبشر وصاحت :

- سمعت الكثير عن حلاوة صوته وسحر

موسيقاه الشرقية الراقصة .

وفي تلك الليلة تلذذ العاشقان بنسائم سبتمبر المقبلة من جهة النيل وهما يحتسيان النبيذ .

65

فوجئت العاشقة الجيورجية بحبيب القلب يوقظها مبكرًا، ويدعوها إلى التمشية قليلا بجوار النيل، وقال لها عقب تناول طعام الإفطار :

- أنت تحبين نهر النيل، ولن أحرمك منه أبدًا يا صوفيا .

هبت واقفة وضمته إلى صدرها بقوة، وأمام النهر واتته فكرة جريئة فأعلنها بوضوح وهو يحتضن راحتيها بيديه :

- عندما ننجح في القضاء على الوهابية والوهابيين ونعود سالمين إلى مصر، سأصحبك في رحلة داخل مركب في هذا النهر الجميل، وسوف أشربك كلك وأمتصك في أوردتي وشراييني والماء يجري من تحتنا .

وفي المساء حضر إلى الدار المطرب

إبراهيم الورّاق بملامحه الصارمة الخشنة وجلبابه الأبيض الفضفاض وبصحبته فرقته الموسيقية، وأطلق حنجرته بالغناء وسط أجواء من المرح والسعادة، وتمايلت صوفيا مع أدائه الجميل وفتنها صوته العذب، وتأملت وجهه الدميم مليًا وتساءلت بذهول : (كيف أودع الرب هذه الحنجرة الذهبية الرقيقة في وجه قاسي الملامح؟) ، ثم أذاب صوته الرقيق مشاعرها كلها، ومضت تستعيد المقاطع الشجية من أغنياته وهي هائمة في نهر الحبور، مثلما حدث في قرية «برنبال » بعد ذلك بسنوات في ليلة مشهودة تحدثت عنها مصر كلها !

66

عقب يوم عمل شاق في ورشة الحدادة عاد عصفور إلى بيته منهكا ومهدودًا، فانزعجت أمه عندما رأت وجهه شاحبًا، أعدت له طعام العشاء على عجل كي يأكل ويستريح، لكنه رفض تناول الطعام، واتخذ سبيله إلى الخروج بعد أن اغتسل سريعًا . كانت تعرف أنه ذاهب إلى هناك، حيث الخمارة الملعونة، وحيث اليونانية اللعوب كما تصفها دومًا، لكن عصفور لم يعبأ بتحذيرات أمه وغضبها وواصل استعداده للخروج . ودون أن يلاحظ خرجت أمه في إثره مدفوعة بقلق حقيقي على صحة ابنها . توجهت نحو بيت عويس الفرارجي، وطلبت منه اصطحابها إلى الخمارة سريعًا ليلحقا بابنها .

سارا وسط ظلام دامس إلا من بقع نور متباعدة تشير إلى المقاهي والغرز وبائعي البطاطا، ورغم أن والدة عصفور على مشارف الأربعين إلا أنها كانت تحت

الخطى بسرعة كبيرة حتى تجاوزت عويس، وفجأة عند جامع البنات لمحت شبح ابنها واقفا وقد أسند ذراعه إلى جدار الجامع ومضى يسعل بقوة . توقف المراقبان وهما يُحدّان بصريهما نحو العاشق المريض . همّ عويس أن ينطلق نحوه، لكن الأم منعته وأشارت له أن يثبت مكانه ويغلق فمه فامتثل لأوامرها . هبت رياح باردة من جهة الأزبكية فارتجفت السيدة بعفوية . ولما واصل عصفور طريقه كانت الرياح قد خفّت قليلا، لكن أثرها ظل يعابث أغصان الأشجار المتراصة بامتداد الطريق . بعد أن عبرا منطقة الرويعي لاح الحي الإفرنجي عن بُعد وقد أضيئت دروبه وأزقته وحواريه بقناديل مثبتة على مداخلها ونواصيها . لاحظت الأم أن ابنها صار يتحرك بصورة أبطأ من ذي قبل، فضبطت إيقاع خطواتها مع حركته . وعندما اقترب من باب الخمارة صاح مناديًا : هيلين، ثم خارت قواه وسقط منكفئا على وجهه !

67

بقلق شديد دخلت هيلين بيت عصفور للمرة الأولى هذا المساء . كان كلٌّ من عويس الفرارجي والعبد هلال قد حملا جسد الشاب المتهالك ووضعاه فوق عربة كارو، وجاء الجميع به سريعًا إلى داره بدرب الجماميز، بينما أمه تبكي وتنتحب . كانت هيلين قد صعدت فوق العربة برشاقة، ووضعت راحتها اليمنى على جبين عصفور، فراعتها حرارته المرتفعة، فقالت بلكنة مصرية مفهومة يقطر منها خوف واضح :

- هل يوجد طبيب في حيّكم؟

قال عويس بنبرة حادة وهو يختلس نظرة إلى صاحبة البشرة المرمرية :

- لا حاجة بنا إلى حكيم ... الله الشافي !

وعندما وصلوا أخيرًا وسط العتمة والرياح

سارعت أم عصفور وأشعلت المصباح الوحيد في الصالة . لم يكن عصفور غائبًا تمامًا عن الوعي منذ سقط على وجهه أمام الخمارة، لذا أمسك بكفه اليمنى راحة هيلين بقوة كمن يتشبث بطوق نجاة وقال لها هامسًا برجاء :

- لا تتركيني .

جاءت والدته بقطعة قماش مبللة بالمياه الباردة ومسحت بها على جبينه الملتهب . ثم توجهت نحو المطبخ وأشعلت الكانون لتغلي الماء وتعد له الكراوية والكمون والزنجبيل مسترشدة بتقاليد الطب الشعبي .

نهضت هيلين فجأة، فبدت ممشوقة القوام فاتنة الجمال، وصاحت متوسلة :

- إن حرارته ترتفع بشكل مخيف، ولن تنفع معه الكراوية والزنجبيل ... لو لم تستدعوا طبيبًا الآن، فسأذهب بنفسي وأحضر

الطبيب اليوناني القاطن بجوار الخمارة !

تبودلت النظرات بين الأم وعويس والسقاء، ولم ينطق أحد بكلمة، فخرجت هيلين وهي تهمس للمريض :

- لا تقلق ... سأعود حالا ومعي الطبيب !

68

ذرع محمد علي باشا الصالة الكبرى في قصره ذهابًا وإيابًا وهو ينفخ ويصيح :

- كيف يمكن أن نوفر المبلغ أو المال المطلوب، والخزانة ليس بها ما يكفي ... إنها محنة لم تخطر لي قط على بال !

تأمله كبير الحراس شوكت أفندي بطرف خفيّ وهو يرتجف، بينما حاول ابنه إبراهيم باشا تهدئته وهو يقفو أثره في خشوع :

- فلنقتصد من نفقات الجيش يا أبتي لنوفر المال المطلوب؟

حدجه الباشا بنظرة قاسية وهتف :

- إلا نفقات الجيش يا إبراهيم ... الجيش هو من يحميني ويحميك ويحمي أشقاءك ويحمي والدتك السيدة أمينة ويحمي أملاكنا كلها، إياك أن يوسوس لك بخلك

المرذول وتقتصد في الإنفاق على شراء الأسلحة والمعدات واستقدام الضباط الفرنسيين الأكفاء .

ثم توقف في منتصف الصالة وخاطب ابنه بلهجة حازمة وبثقة تامة قائلا :

- أنفق على الجيش بسخاء لأنه قوامٍ مملكتنا الجديدة التي انتزعناها انتزاعًا من أنياب المماليك .

جامله الابن سريعًا وقال :

- حسنا يا والدي ... إذن فلنستدعِ كبير السحرة شركان الناغي، ليجد لنا حلا !

فوضع برفق كفه اليمنى على كتف ابنه ونصحه بهدوء قائلا :

- الساحر لا يفلح في مسائل المال والاقتصاد ... الساحر قد ينجح فقط في تعقب الجن والعفاريت والأشباح .

شرد قليلا، وقال لنفسه متحسرًا : (حتى النجاح ليس شرطا في مسألة الأشباح، ورغم أكباد الذئاب النيئة، وأجنحة الطواويس المقززة، فمازالت الأشباح تطاردني في كثير من الليالي المقلقة). وفجأة، كمن تذكر شيئا، صاح هاتفًا :

- رباه ... لو كان بوغوص هنا لأنقذني من هذه المحنة ... إنه بارع في تدبير الأموال اللازمة !

اقترب منه شوكت أفندي وهو يرتجف، فقد ظن أن الوالي تساوره الشكوك بشأن تنفيذ حكم الإعدام في بوغوص بك، فجثا على ركبيته وصاح :

- الرحمة يا مولاي !

تعجب محمد علي، وتساءل مندهشًا وهو يرمق حارسه بتركيز :

- الرحمة؟ لم أرحمك؟

بكى كبير الحراس وقال بصوت متقطع :

- لأنني لم أنفذ حكم الإعدام في بوغوص بك كما أمرت . تأخرت في تنفيذه حتى أعرض على سموكم الأمر بعد فترة تهدأ فيها روحكم الطيبة وتعفو عنه، وقد أقر بخطئه، فهو خادمكم الأمين . سامحني يا مولانا ... سامحني .

تهلل وجه الباشا، وقال بصوت عال :

- بوغوص حي ... بوغوص لم يمت ... اذهب وأحضره حالا، وإلا دفعت رأسك ثمنا لرأسه !

جرى من أمامه شوكت فرحًا بنجاته، بينما إبراهيم باشا يتابع المشهد بذهول !

69

في مساء ذلك اليوم، قال بوغوص لزوجته، بينما رياح شديدة تعصف في أركان الحي الإفرنجي :

- لا أعرف هل سيمنحني الرب نعمة النوم بعمق مرة أخرى أم لا؟

همست زوجته وهي تقبل وجنته :

- منذ اختفائك المفاجئ والمريب قبل أسبوع، وأنا لم أتوقف عن الصلاة لتعود إليّ سالمًا .

قال معتذرًا ومواسيًا وهو يتخلص من ملابسه المتسخة :

- لم أجد حلا سوى أن أبعث لك برسول عن طريق شوكت أفندي يبلغك بأنني سافرت فجأة إلى الإسكندرية لأمر مهم ... لقد خشيت عليك من هول الصدمة .

فضمته إلى صدرها وقالت :

- يا حبيبي ... لقد كابدت وحدك عذابات انتظار الموت الملعون لو أخفق شوكت أفندي في تهريبك إلى خارج مصر !

ثم بمرح لتحاول إخراجه من أحزانه :

- ما رأيك لو تأخذ إجازة ونغادر إلى أرمينيا أو باريس أو لندره؟ هناك سنلتقي الأهل والمعارف والأصدقاء، فتسرّي عن نفسك، وتسترد عافيتك .

قال بهدوء وهو يلثم راحتها :

- ليس الآن ... ليس الآن ... فالأمير طوسون سيرحل بحملته العسكرية إلى أرض الحجاز بعد غد !

اصطحبته إلى الحمام وتولت تطبيب روحه المحطم بمزيد من الحب والحنان وتنظيف جسده المهزول بالماء الدافئ والصابون، لفته في منشفة كبيرة كطفل صغير،

وقادته إلى غرفة النوم وهي تتمتم بالآية الإنجيلية (طوبى للذين آمنوا ولم يروا) ، فلما تمدد على سريره، وجذب الغطاء فوقه محاولا استحضار سلطان النوم غمغم بحسرة مستسلمًا لقدره :

- ليتني ما تركت أوروبا ... ليتني ما جئت إلى مصر ... ومن أسف يا زوجتي الحبيبة ... لقد ارتبط مصيرنا بمصير حاكم مسلم في بلاد الشرق ... وما أسوأه من مصير !

القسم الثاني

1

شعرت آماليا أن هناك من يتبعها، فانتابها قلق وأسرعت الخطى دون أن تلتفت خلفها. كانت قد خرجت من خان الملذات في الصباح بعد أن ظلت أسيرة غرفتها أسبوعًا كاملا بسبب وعكة صحية طارئة. رفضت أن تصطحبها إحدى جارياتها، وفضلت أن تتمشى على النيل بمفردها وقالت لعاهراتها المطيعات :

- أفضل الاستمتاع بالشمس والنسيم وحدي، أما أنتن فواصلن أشغالكن وانتهين منها قبل عودتي .

وعندما حاول العبد هلال أن يخرج معها قائلا :

- من أجل حمايتك يا سيدتي .

رفضت، رغم أنها شعرت بعمق عاطفته نحوها حين رأته يبكي كطفل بجوار

سريرها وهي تتألم من المرض طوال الأسبوع المنصرم .

فور خروجها تلقت الأشعة الحنون لشمس مارس فانتعشت وأشرق وجه المرأة الخمسينية بعد ذبول، حيث شعرت بسحر الحرارة يتسرب إلى مسام جسدها فيدفئه ويحنو عليه. وقد ارتدت صاحبة الخان فستانا أبيض من قماش خفيف ذا أكمام طويلة، وانتعلت حذاءً من الجلد أهداه لها باباندريو في اليوم نفسه الذي غادر فيه الأمير طوسون مصر متوجهًا إلى بلاد الحجاز في مهمة حربية قاسية ستدوم سنوات .

في الطريق ملأت صدرها بعبير أشجار الليمون المنتشرة بكثافة في الشوارع المحيطة بدارها الشهيرة. تأملت بإعجاب فلاحًا يونانيًا يواصل حرث الأرض وزرع الورود بهمة في بستان صغير على مشارف الحي الإفرنجي جهة النيل. ولما بلغت الحارة الكبيرة التي ستوصلها إلى

بولاق، لاحظت أن ثمة من يتبعها. ترددت للحظة، لكنها واصلت مسيرها بخطى سريعة وسط سوق شعبية مكتظة يمتزج فيها صخب المقاهي بورش الحدادة ونداءات الباعة الجائلين والواقفين، وحين عبرت الطريق نحو الشاطئ أحست بيد تنقر كتفها اليمنى برفق، جفلت، واستدارت بتوتر، فإذا بها تراه شاخصًا أمامها بنظرته المتحدية وابتسامته الساخرة، فهتفت بنبرة مرتعشة :

- أنت هنا يا موسكات؟ ألم ترجع إلى مالطة لتتزوج وتؤسس أسرة في بلدك كما وعدتني؟

بدا الرجل كالطود. ضخم البنيان ذو رأس كبير مكتنز باللحم ووجه أبيض مستدير تتوسطه عينان بنيتان وحاجبان خفيفان وأنف أفطس، أما شعره فضارب للصفرة. ورغم أن آماليا ذات قوام طويل ممتلئ، غير أنها ظهرت بجواره كطفلة ضئيلة الحجم. وقبل أن يتفوه بكلمة، ألقى نظرة

على المراكب الراسية في ميناء بولاق، وقال باستهانة وهو يشير نحوها بسبابته اليسرى :

- عدت قبل أسبوع... أموالي نفدت سريعًا، فكيف أتزوج وأنشئ أسرة؟ .

فهمت الرسالة، وأيقنت أنها دفعت نفسها للسقوط في ورطة لن تنجو منها أبدًا .

2

عادت إلى الخان متكدرة المزاج، لاحظت أن الخادمات لم ينتهين من تنظيف الغرف وترتيبها بعد، كما أهملن تنظيف الشواية من بقايا الفحم والرماد القديم وإعادة تزويدها بفحم جديد، زجرتهن واتهمتهن بالإهمال والتراخي وهددتهن بالطرد، فوجئت البنات بوجه عنيف لم يرين مثله أو يتعودن عليه من صاحبة الخان فتهامسن وتبادلن الحديث سرًا، انبرت إحداهن تقول ساخرة: (إن المدام في حاجة إلى رجل ليطفئ نار غضبها علينا). بينما دافعت الأخرى قائلة: (التمسن لها العذر يا بنات، فمنذ وفاة الخواجة أندرياس لم تذق طعم الحب)، ومصمصت الثالثة شفتيها ورددت بصوت خفيض: (مسكينة)!.

قبل أن تصعد إلى غرفتها في الطابق الثاني سألت عن هلال، فأخبرنها أنه في السوق كالعادة، ولأول مرة تشعر آماليا بالحاجة الماسة إليه، بل ندمت لأنها

رفضت اصطحابه معها. ولما دخلت غرفتها أغلقت الباب على نفسها. جثت على الأرض برشاقة لا تناسب عمرها وسحبت الصندوق الخشبي الصغير من تحت سريرها، ثم أخرجت مفتاح القفل من مخبئه بالخزانة الخاصة بها وفتحت الصندوق. تأملت العملات المعدنية والقطع الذهبية والفضية فتألقت عيناها بالفرح، عبثت براحتيها في الكنز الثمين الذي استحوذت عليه في العام الماضي فانتشت بوسوسة الذهب، لكنها تذكرت موسكات فلعنته بصوت مهموس، ولامت نفسها مرددة: (إلى متى سأظل أسيرة لهذا المجرم؟)، التقطت عشر قطع ذهبية فئة الليرة الفرنسية، ثم ترددت وتفكرت مليًا، فأعادت أربع قطع واكتفت بست، ثم تناولت ثلاث قطع فضية فئة السولا الفرنسية وصرّتها كلها في كيس قماش دسته في صدرها. ثم تنهدت وأقسمت بإصرار قائلة: (إذا لم ينطفئ نهمه، وكرر ابتزازه الملعون مرة أخرى فلن أتردد، وأعرف جيدًا كيف أتخلص منك يا موسكات

الكلب)!

3

المصادفة وحدها هي التي قادت الخواجة شارل إلي خمارة الخواجة أندرياس، إذ كان مدعوًّا لتناول الغداء في دار القنصل الفرنسي بالحي الإفرنجي بعد أن أبرم معه اتفاقا يقضي بأن يرسم شارل صورة ضخمة للقنصل تجمعه وزوجته وأبناءه الثلاثة، وقد تلقى عربونًا مجزيًا بالفعل ليشرع في التنفيذ سريعًا، بالرغم من محاولاته العديدة لرفض تقاضي أي أجر، حيث قال بصدق :

- أفضال سعادة القنصل علينا لا تعد ولا تحصى، والصورة هي أقل شيء أقدمه تعبيرًا عن تقديري لكم .

لكن القنصل أصرّ على الدفع وبكامل الثمن. وبعد أن غادر الرسام دار القنصل، أهاجت ملامح الحي وعبقه وشوارعه وحوانيته ذكرى مسعدة حجاب وابنهما محمد في داخله، وبإلهام من قلبه توجّه

نحو الدار الخالية، دار حولها بعقل متحير ونفس حزينة، إذ لا شيء يشير إلى أن الدار كانت مرتعًا للحب قبل أعوام قليلة، فقد هجرها الأحبة رافعين راية النسيان دون سابق إنذار، فألقى على أطلالها التحية بقلب موجوع، وقرر العودة إلى بيته بالدرب الأصفر قبل أن تلملم الشمس عتادها اليومي وترحل مضطرة .

لمح خمارة أندرياس في الجهة المقابلة في مواجهة بركة الأزبكية، فتوجه نحوها بدافع الفضول إذ لم ينتبه لوجودها قبل ذلك، وقال ممنيًا نفسه: (ربما أجد أحدًا من الحراس أو الخدم لديه أية معلومة عن امرأتي الغائبة في المجهول). بحذر نسبي دلف من الباب، فاستقبلته موسيقى هادئة وضحكات عالية وروائح دخان. لم يكن بالخمارة سوى نفر قليل من الزبائن، فالليل لم يصل بعد، والشمس مازالت تمرح في السماء بحرية، والخمر نديم وفيّ لليل. اتخذ الرسام مجلسه في زاوية قصية، حيث أسند ظهره إلى الحائط وراح

يتأمل المكان. لاحظ وجود عدة لوحات مرسومة بإتقان بألوان الزيت ومعلقة بذكاء في أماكن مختلفة، وكلها تصور مشاهد من الطبيعة الأوروبية ومراعيها، لكن ما لم ينتبه له هو النظرة الودود الفاحصة التي صوبتها نحوه هيلين وهي جالسة في مكانها المعتاد. طلب من الجرسون قدحًا من البيرة، لكن هيلين هي التي قدمته له، جلست قبالته وقالت بثقة :

- أنا صاحبة الحانة واسمي هيلين، ويسعدني التشرف باسم حضرتك؟

أجاب وهو يتناول أول رشفة :

- اسمي شارل من باريس، وأعمل رسامًا محترفًا هنا، حيث أقيم في القاهرة منذ سنوات طويلة وتحديدًا قبل حملة نابليون على مصر بسنتين .

- وكيف لم نتشرف بزيارتك قبل الآن؟ ألم تسمع بالخواجة أندرياس وخمارته

الشهيرة؟

- سمعت، وعرفت أنه قتل غدرًا، فليغفر له الرب، لكني لست من هواة التردد على الخمارات .

ابتسمت وتفرست في شعره الرمادي وعينيه الزرقاوين الواسعتين، فأيقنت أنها عثرت على رجل حياتها أخيرًا .

4

لم يعرف شارل أبدًا أنه بزيارته الأولى لخمارة أندرياس قد أشعل الحواس الأنثوية لهيلين، وأنها ستفعل المستحيل لتقترن به، وكل ما جال بخاطره عقب مغادرته المكان أنه ربح زبونة جديدة، إذ طلبت منه أن يرسم لها صورة كبيرة تزين بها الجدار المواجه للباب الرئيسي للخمارة. وبذكاء أنثوي منحته عربونا كبيرًا لتضمن عودته سريعًا، واتفقت معه على البدء في التنفيذ صباح اليوم التالي، لكنه اعترض بسبب ارتباطه بعمل، فتأجلت الزيارة إلى الأسبوع المقبل. وهكذا امتلأ جيب شارل بالأموال، لكن ظل قلبه حزينًا، لأنه أخفق كالعادة في اكتشاف أي أثر يقوده إلى امرأته المستحيلة وابنهما محمد .

5

غادر شارل الخمارة قبل غروب الشمس، سار بمحاذاة بركة الأزبكية مستمتعًا بموجات ناعمة من الهواء المنعش حتى بلغ مشارف درب الجماميز، ثم انعطف يسارًا نحو الأزهر وهو يتأمل مجموعة من عمال وكالة خشب منهمكين في العمل، خطرت له فكرة أن يصوّر عمال الورش والوكالات في لوحات ضخمة. ولما صار قبالة ساحة الأزهر دهمته روائح بخور نفاذة مقبلة من دكان جزارة فُتح حديثا وسط أهازيج وتهاليل وزغاريد الأهالي، فعطس وسعل وابتعد سريعًا، حتى وصل إلى حارة المشهد الحسيني فاتخذ طريقه نحو داره بحارة الدرب الأصفر .

استقبلته ياقوتة بحماسة مع أذان العشاء وصاحت :

- أخيرًا يا خواجة سنعرف مكان الست مسعدة .

لم يتحمس، إذ أحس من أدائها أن الأمر مرهون بخرافة جديدة، فقال ساخرًا :

- دجّال جديد من اياهم أيضا؟

فواصلت بنبرة أعلى :

- والله العظيم هذا الشيخ يعرف المستور ويرد الغائبين... إنه قادم من إسطنبول بلاد السلطان العثماني نفسه، والناس أمام داره بالجمالية بالمئات... إيه... أمم... أمم !

أشاح بيده يأسًا وتوجه نحو غرفته، نزع ملابسه وتمدد فوق سريره بلا مبالاة، فاضطربت ياقوتة وتحيرت ماذا تفعل كي تسترد حيويته، فقد فُتنت به منذ زمن، وها هي تحظى بنعمة مرافقته والإقامة معه، فلا يليق أن تتركه نهبًا للهموم والأحزان. على الفور توجهت نحو الخزانة الخاصة بالمشروبات الكحولية، صبت قدح نبيذ وهرعت نحوه، فتناوله منها وسكبه في جوفه دفعة واحدة بعصبية. ثم رنا إليها

وتذكر هيلين والخمارة فابتسم، فظنت خطأ أنه يبتسم لها، فاغتبطت وزقزقت عصافير الرغبة في قلبها ومضت تتعرّى أمامه بدلال، فتأمل بإعجاب معمار جسدها الأسود اللامع الممشوق، استعرت رغبته وتساءل هل يطفئ الجنس نور الذكريات المشع في القلب؟ ثم دعاها لتمتطيه وضمها إلى صدره بقوة... حتى بردت نار الشهوة وتهدّم جسده ونام .

6

بعد أن انتهى من تصنيع الباب الحديدي لوكالة الدقيق الجديدة التي أنشأها الحاج جاد الله الديروطي بالسيدة زينب وزيّنه بالزخارف والمنمنات الإسلامية والورود النحاسية الرفيعة، استلقى عصفور على الأرض يتصبب عرقا ويتضوّر جوعًا، فجفف نصف جسده العاري بقطعة قماش وأرسل أحد صبيان الورشة ليبتاع الفول والطعمية والمخلل والحلاوة الطحينية. ومع أول لقمة هلّ طيف هيلين في مخيلته فطرق عقله قرارها المفاجئ بمغادرة مصر والعودة إلى اليونان نهائيا حيث خالاتها وأعمامها، وحيث أن الحياة في القاهرة باتت جالبة للأحزان بعد مصرع والدها كما أعلنت له غير مرة. وانتابته موجة حزن لأنها لم تستجب لغرامه بها ولم تهتم بتنهداته الليلية وقصائده التي لا تفهم منها شيئا. كل ما قالته وهي تناوله عصير البرتقال: (ليس لي أحد في هذه البلاد، فلتكن أخا لي، لأني أشعر دوما أنك شاب شهم

وطيب). كان ذلك عقب شفائه من الحمى المفاجئة على يد طبيب يوناني العام الماضي، ومن يومها، حاول عصفور أن يخبرها بلوعته وهيامه، لكنها كانت ترفع في وجهه دومًا سبابة الصدّ المهذب والتحذير الهادئ، موضحةً: (الأخوة أبقى وأهم، فلا تخسرني بإلحاحك). ولما فاض به الكيل باح بما يفكر فيه لصديقه عويس الفرارجي، إذ سأله ذات مساء وهما يتناولان السحلب على مقهى المعلم فجلة :

- هل ستقاطعني عندما أتزوج هيلين؟

جفل الشاب وصاح :

- تتزوج واحدة من النصارى؟ هل جننت؟

غض عصفور بصره، وعبث بشاربه وهمس :

- أليست إنسانا؟ ألم يخلقها الله كما

خلقني وخلقك؟

خبط عويس براحته على المنضدة وهتف غاضبًا :

- لا يا عصفور... ليست إنسانا عاقلا وسويا، فهي امرأة كافرة وجاهلة بالإسلام، وسيدخلها اللّه نار جهنم ويشوي جلدها... هل نسيت ما تعلمته في الأزهر؟ هل نسيت ما يقوله شيوخنا الأجلاء عن المسيحيين في خطبة الجمعة كل أسبوع؟ هل نسيت أن الـ ..

فقاطعه عصفور بنبرة واثقة :

- ولكن رسولنا الكريم تزوج ماريا القبطية، وهي مسيحية من مصر، كما تزوج اليهودية صفية بنت حيي بن أخطب كما درسنا في الأزهر. إن أهل الكتاب ليسوا كفارًا يا عويس . إنهم مؤمنون باللّه مثلنا تمامًا .

تلعثم الشاب وعاد يقول بصوت عال :

- لا.. لا... هل تريد أن تقارن نفسك برسولنا الكريم؟ اتق الله يا رجل .

- إنه قدوتنا... ولكم في رسول الله أسوة حسنة! أليس كذلك؟

ارتبك عويس وهتف بعصبية ليداري عجزه عن الإجابة :

- لا أدري... لا أدري... لكني لن أقبل أبدًا أن أصادق رجلا اقترن بامرأة مسيحية كافرة !

فردّ عصفور بحدة :

- كفى... ولكن لماذا خلق الله الحب، إذا كنا سنتعذب به؟

وبدون وعي، أزاح طبق الفول بعصبية، فانسكب بعض ما فيه، وسط ذهول عمال الورشة، بينما صحا هو من غفوة اليقظة !

7

كابد عصفور عذابات القلق كثيرًا، ونهشته ذئاب التردد ساعات طويلة، فغرامه بهيلين يستعر من يوم إلى آخر، لكنه غير قادر على اتخاذ الخطوة الحاسمة، حتى أهلّت ليلة مقمرة شعر فيها أن الصفاء يغمر الدار، فاقترب من والدته وهي ترفو سروال أخيه الأصغر. كانت متربعة على الأرض فوق حصيرة من الخوص ومنهمكة في عملها، بينما أشقاؤه الصغار يمرحون في الحارة وأصوات مشاغباتهم تصل إلى الأم فيسيل نهر الاطمئنان في قلبها. استجمع قواه النفسية وقال لها دون أن ينظر في وجهها :

- قررت الزواج يا أمي... ما رأيك؟

التفتت باهتمام وألقت السروال جانبًا، وهتفت بفرحة :

- ألف ألف مبروك يا بني... عين العقل، لقد

آكملت تسعة عشر عامًا، وحان وقت زفافك إلى عروس، ومن حقك أن تتوق نفسك إلى الذرية، وأبوك رحمه اللّٰه، تركنا حزانى منذ أكثر من عام، وآن أوان الفرح .

فتشجع بحفاوتها وقاطعها قائلا :

- أطمع في موافقتك على العروس .

أحست المرأة من نبرات صوته أن ثمة أمرًا غير مريح، فسألته وهي تسدد بصرها في عينيه :

- هل اخترت فتاة معينة؟

غض بصره متحاشيًا نظرتها الحادة وقال بصوت خفيض :

- نعم... هيلين اليونانية !

صمتت برهة تمنى معها لو أن الأرض انشقت وبلعته، فبرغم حبه اللانهائي لوالدته إلا أنه يهابها ويخشى غضبها،

وتذكر ما فعلته قبل شهور مع الدجال الشيخ عوضين عبدالجليل وكيف استردت خلخالها الذي لم يكن قد تصرف فيه بالبيع بعد، كما استردت ثمن الدجاج والبط وسط زوبعة عنيفة من التهديد والوعيد أجبرت النصاب على إعادة ما سلبه منها بالخديعة. لكنها لم تغضب هذه المرة، أو لم تظهر له ما يربكه، وإنما سألته بهدوء ظاهري :

- هل تحبها؟

استعاد رباطة جأشه وهتف :

- بجنون يا أمي؟

ربتت كتفه وسألته بخبث :

- وهل تبادلك الشعور الجميل بالقدر نفسه؟

سكت وقال بحسرة :

- إنها تقول... الأخوة أهم وأبقى من الحب، فلتكن أخًا كريمًا لي، لأنها أمست وحيدة بعد وفاة والدها .

نهضت أمه وألقت نصيحتها الحاسمة :

- إياك أن تتزوج فتاة لست قادرًا على امتلاك قلبها كله !

- ولكن يا أمي؟

انفعلت وصاحت غاضبة وهي تمسك بسروال شقيقه لمواصلة عملها في إشارة لإنهاء الحوار :

- ولكن ماذا؟ أنا لم أتحدث عن اختلافها التام معك، فلا هي من دينك ولا هي تتحدث لغتك ولا هي تلتزم عاداتنا وتقاليدنا، والأدهى أنها لا تحبك، فكيف بالله عليك واتتك الجرأة لتفكر في الاقتران بهذه الفتاة؟

تحطم الحلم في زلزال الرفض وتبدد الأمل

في بركان الغضب، تقلصت عضلات وجهه ومضي يعبث بشاربه الصغير كما يفعل عادة كلما صار أسيرًا للتوتر، فأشفقت عليه وقالت بنبرة أقل حدة :

- عصفور يا بني... أنا لا أنكر أن الفتاة تتمتع بخصال طيبة وأنها وقفت بجانبنا في محنة سجنك، كما أنها أحضرت الحكيم اليوناني الذي تعافيت على دوائه وشفيت من مرضك، ولكن ليس معنى هذا أن تقترن بها، وبصراحة، فقد كانت أكثر ذكاءً منك... لقد حددت طبيعة علاقتها بك... إنها لا ترى فيك سوى أخٍ يحميها عند الضرورة لا زوج يسعدها على الدوام !

وقبل أن تنكب على استكمال خياطة السروال ألقت قرارها النهائي على شكل نصيحة قائلة :

- لن تنجو من سحرها إلا إذا توقفت عن رؤيتها... فاسمع كلام والدتك ولا تذهب إلى الخمارة من اللحظة !

فقال لنفسه: (لو كنتِ رجلا يا أمي لأدركت لوعة الحب وعذاباته وسحره)! وغادر الدار ساخطا، فرمته بنظرة إشفاق وتمتمت: (فلتحفظه يا الله من بنات الخواجات ومن غواية الحب ومصائبه)، ثم لمعت عيناها وهي تتخذ قرارها الحاسم .

8

ذرع محمد علي باشا البهو الرئيس في القلعة بعصبية، وصاح موبخًا الحراس بنظراته القاسية :

- أين بوغوص؟ ألم أطلب أن يقف بين يديّ في التو واللحظة؟

أقبل كبير الحراس شوكت أفندي مهرولا نحوه وانحنى، وهمس :

- إنه في الطريق يا مولاي... لقد أبلغناه... في الطريق... في الطريق !

عاد الباشا إلى مجلسه، واتكأ على أريكته وراح يشعل غليونه وينفخ دخانه بغضب، جاءته قطته المفضلة والتصقت به طلبًا للأمان والحنان، فداعبها بحركة آلية ثم هبّ واقفًا فجأة، وتوجه نحو النافذة، فتلقى نسمات طرية مصحوبة بقليل من الأتربة المعتادة في شهر أبريل، وقال لنفسه:

(عندما أقضي على الوهابيين في شبه الجزيرة سأصدر أوامري بزراعة هذا الجبل الموحش)، ثم تذكر أن زوجته أمينة هانم طلبت منه أن يأتيها بأفعى مصرية لتحمي أبناءها ودارها من الحسد، فقال بصوت مهموس: (من المؤكد أن جبل المقطم يحتضن بين صخوره وشقوقه العديد من الأفاعي والثعابين). ثم استدار وقد بلغ به الغضب مبلغه، وقبل أن يصيح استأذن بوغوص بك في الدخول، فأذن له وأقبل عليه بوابل من الأسئلة :

- لماذا تأخرت؟ هل وصل البريد؟ هل من أخبار جديدة؟

منذ سمع بأذنيه العام الماضي قرار إعدامه من فم محمد علي باشا، وبوغوص لا يدخل على الوالي إلا وقد صلى صلاة قصيرة يدعو فيها الرب أن يحميه من جنون الوالي وبطشه وقراراته الدموية، وهكذا قال بهدوء وهو ينحني أمام وليّ النعم :

- أجل... وصل البريد قبل دقائق، وسمو الأمير طوسون وجيشه مستقرون حاليًا في مدينة ينبع على البحر الأحمر ينتظرون وصول الإمدادات العسكرية والتموينية التي أمرتم بتوفيرها وإرسالها لهم .

شرد الوالي قليلا ثم قال بصوت يقطر منه الألم :

- للأسف لم يحسن ابننا التصرف وخسر معركته في المدينة المنورة، واستطاع رجال ابن عبدالوهاب أن يجبروه على الفرار والعودة إلى ينبع .

فانتهز وزير الشؤون الإفرنجية والمالية الفرصة وتساءل :

- سيدي الوالي... ألا ترى أن الأمير طوسون باشا مازال صغيرًا ليقود جيشًا كبيرًا ويخوض هذه المعركة الشرسة؟ إنه لم يكمل عامه الثامن عشر بعد !

رنا إليه مليًا، ثم توجه نحو النافذة فتبعه بوغوص، بينما شوكت أفندي يسترق النظر نحو الرجلين. قال الباشا :

- معك حق، لكن لا تنس أنني أرسلت معه مساعدي الأهم أحمد بك الخازندار وهو كما تعرف رجل شجاع وداهية .

- صحيح يا مولانا... إن الناس منحت الخازندار لقب بونابرت مصر !

تجاهل الباشا تعليق ناظره، فلا يليق أن يتشبه أحد ببونابرت سوى الوالي شخصيًا، ثم تمتم مواسيًا نفسه :

- يبدو أن صحراء شبه الجزيرة وجبالها أكثر دهاءً من أحمد بك !

فقال الرجل بحسرة :

- ولكن جيشك يا مولاي فقد أكثر من نصفه جنوده من الأرناؤوط بكل أسف !

غمغم الوالي وقال :

- معك حق... إن خسارتي فادحة هذه المرة .

ثم قال لنفسه : (إنها الخسارة الإيجابية الوحيدة في هذه المعركة، وهو أمر حسن، فقد أزعجني هؤلاء الجنود الأرناؤوط كثيرًا بمطالبهم التي لا تنتهي منذ غادرنا مدينة «قولة» بألبانيا ورسوْنا على شاطئ الإسكندرية للمرة الأولى عام 1801).

وفجأة أشار إلى الجبل وهتف :

- يا بوغوص... أرسل مجموعة من الخبراء المهرة ليمسكوا بأكبر أفعى تسعى في هذا الجبل !

تعجب الوزير وفغر فاه، وقبل أن يستفسر ابتسم الباشا وقال :

- إنها أوامر زوجتنا أمينة هانم أيها الناظر

الهمام !

بعد صلاة المغرب توجه الوالي نحو جناح زوجته أمينة هانم بالقلعة، دخل مخدعها تتبعه جارية حبشية تحمل صندوقا زجاجيًا تتلوى داخله أفعى غاضبة ذات ألوان زاهية ورأس كبير وعينين واسعتين، جفلت القطط السيبيرية وهرعت نحو السيدة البدينة التي تتمدد فوق سرير عريض داخل غرفة ذات أثاث فاخر، تحدق بجدرانها الستائر المخملية من كل جانب. استقبلته بابتسامة لطيفة واعتدلت باهتمام، فتجلى عنفوان وجهها المدوّر الذي تتوسطه عينان لوزيتان واسعتان يظللهما حاجبان كثيفان ملتصقان. مسحت براحتها فوق ظهور قططها بحنان لتهدئ روعها، ثم أمرت الخادمة بالانصراف بعد أن وضعت الصندوق على السرير، ومضت تتأمل الأفعى بجدية وغمغمت :

- أشكرك يا حبيبي... لقد تخيلت أن الإمساك بأفعى قد يستغرق أسابيع، وليس يومين فقط !

لثم جبينها وقال هامسًا متنهدًا :

- كل من يدب على أرض مصر في خدمتك يا مولاتي.... من أول الوالي نفسه حتى أصغر فلاح !

انتشت بالغزل الذي لا تشبع منه قط، وتساءلت بقلق :

- أما من أخبار جديدة عن ابني طوسون؟

جلس إلى جوارها على حافة السرير وحاول أن يبدو طبيعيًا، ثم قال بنبرة مترعة بثقة مزيفة يتقن إجادتها بامتياز :

- بخير... ابننا بخير... إنه يبلي بلاءً حسنا في المعارك، ويقود جيشنا بكل حنكة ويدمر أتباع ابن عبد الوهاب... لا تقلقي أبدًا، فهو ابن بار بك وبي وسيحميه الله من كل شر .

هزت رأسها تصديقا لما يقوله زوجها ودعت له بالنصر، بينما رنا محمد علي

باشا إلى قرينته بإعجاب وطوقها بذراعه، فقالت بدلال امرأة تعرف جيدًا مقدارها عند زوجها :

- لقد زارتني اليوم زوجة القنصل الإيطالي، واقترحت عليّ تغيير أثاث هذا الجناح الذي أقيم به منذ جئت من «قولة» قبل ثلاثة أعوام ولم أبرحه، وأكدت لي أن التجديدات ستجعله لائقا أكثر بزوجةٍ والي مصر، فزوجها يمتلك مصنعًا كبيرا بنابولي لإنتاج أفخم السرائر والخزانات والمناضد والمفروشات والثريا والمرايات وكل ما تحتاجه الدور الكبيرة الراقية .

قال وهو يلثم راحتها :

- افعلي ما يحلو لك، وأنفقي على راحتك بسخاء ولا تقلقي فالأموال بحوزتنا أكثر مما تتخيلين !

ضمته إلى صدرها وصاحت :

- فليحفظك اللّه لي يا زوجي الكريم .

فمنحها قبلة على خدها ووقف وضمها بحنان إلى صدره وألقى مفاجأته بفخار :

- يا أمينة هانم... يشرفني ويسعدني أن أزف إليك خبرًا سعيدًا... فبعد أن استتب الأمر لي، ومنحني اللّه ملك مصر مكافأة على شجاعتي وذكائي، قررت أن أبني لك قصرًا منيفًا هنا في القلعة !

هبت واقفة على السرير وهتفت بسعادة :

- حقا... متى؟

- قريبًا جدًا، وسأسميه الجوهرة... لأنك جوهرة حياتي !

ألقت بجسدها البدين في حضنه وهي تغمره بالقبلات، فتحرّك بقدم واحدة نصف خطوة للخلف حفظا للتوازن، ثم تخلصت برفق من ذراعيه واستدعت الجارية وأمرتها بوضع الأفعى في مدخل الجناح

وهي تتمتم: (فليحفظنا الرحمن الرحيم من الحسد والحاسدين).

10

هبت رياح ساخنة مع أول شروق للشمس، وانقلبت شوارع القاهرة وحواريها وأزقتها إلى بركان غضب، علت الهتافات التي تندد بالظلم، وكلما مرت ساعة تجمع المزيد من الأهالي في صحن الجامع الأزهر رافعين راية الاحتجاج، فلما انتصف النهار كان الزحام والحرّ اللزج يكتمان الأنفاس، قال عويس الفرارجي وسط حشد من الساخطين :

- لن ندفع ضرائب مرة أخرى... ألم يشبع الوالي من جمع الأموال؟

- ألا يعلم أن الجنود والبدو ينهبون القرى ويقتلون أي فلاح يقاومهم؟ لقد أذلّ الغلاء أعناق الجميع حتى الموسرين .

- الله يرحم أيام السيد عمر مكرم، كان هو الوحيد الذي يقف له بالمرصاد .

- بصراحة، شيوخنا لا يحاولون مواجهة أطماع محمد علي باشا، والكثير منهم يتزلف إليه وينافقه ويكيل له المديح الرخيص خوفا من سيفه أو طمعًا في ذهبه .

- الأمل في أن يعترض تجارنا الكبار على فرض هذه الضريبة الجديدة .

- ومن منهم يملك جرأة الاعتراض؟ لا أحد... كلهم خانعون يخشون على مصالحهم... سيدفعون الضريبة للباشا صاغرين في المساء، ثم يرفعون الأسعار علينا نحن الفقراء في الصباح .

- يا جماعة... القحط يتسرب في شوارعنا وبيوتنا وعظامنا... أما من نهاية لهذا العذاب اليومي؟

أغلق عصفور ورشته مثل الآخرين وهرع نحو ساحة الأزهر لينضم إلى الحشود، وفي الطريق لمح الخواجة شارل يسرع

الخطى واضعًا على كتفه حامل الرسم المطوي بطياته الأربع، حيث تدلى من جانبه الأيسر، فتعجب من منظره الغريب، واقترب منه عند مدخل حارة الحمزاوي وسأله بفضول :

- هل تتحدث العربية يا خواجة؟

أجابه شارل مبتسمًا :

- وأتقن الكلام باللهجة المصرية أيضا .

حاول عصفور أن يتذكر هل رآه في خمارة أندرياس قبل ذلك أم لا؟ فلم يفلح، وعاد ليسأله :

- إلى أين أنت ذاهب؟ ألا تخشى من الفوضى؟ البلد يتلظى ونار الغضب تستعر يومًا بعد يوم .

فقال ابن باريس :

- أقيم هنا منذ ستة عشر عامًا، وكم رأيت

الحشود الغاضبة، فلا تقلق عليّ .

اندهش عصفور وأسدى إليه نصيحته :

- من خاف سلم يا خواجة، فالزم بيتك .

ثم أضاف :

- والجو حار جدًا... وأنت ذو بشرة فاتحة لن تتحمل غدر الشمس وقسوتها !

ابتسم شارل وتساءل قائلا :

- ومن يرسم هذا المشهد التاريخي؟

- أأنت رسام؟

واتفقا على موعد مساء الغد أمام خمارة الخواجة أندرياس لأمر مهم كما أكد عصفور !

11

أقبل رجال الشرطة بملابسهم وهراواتهم المخيفة والشرر يتطاير من عيونهم وقد امتطوا الخيول المطهمة، فحاصروا الحشود في ساحة الأزهر وانقضوا عليهم بالسباب والعصي والهراوات بعد صلاة العصر، فسقط العشرات على الأرض وسط الصراخ والصخب وعويل النساء، فداستهم الخيول المضطربة بصهيلها الحزين، وفرّ الآلاف هاربين وهم يسبّون الوالي والشرطة والتجار، وحاول أحد شيوخ الأزهر التوسط، فدفعه كبير الشرطة بقدمه فسقط منكفئا على وجهه، فأنقذه عصفور وسحبه قبل أن تدهسه أقدام الخيل. جذب عويس الفرارجي أحد الجنود وأسقطه من فوق حصانه وانهالوا عليه ضربًا، وتمكن الخواجة شارل من رسم اسكتشات سريعة للمظاهرة والعدوان عليها وهو يتخذ موقعه قبالة مدخل حارة المشهد الحسيني. وفجأة سمع صوت طلقات رصاص تدوي لم يعرف

مصدرها، فاختبأ في أقرب دار، وتابع بحذر من خلف الباب عشرات الجنود مقبلين من جهة الدراسة يمتطون الخيول ومدججين بالبنادق ويطلقون النار في الهواء !

12

للمرة الأولى يتوقف عازف البيانو المُسن عن العزف في خان الملذات، وينصت إلى الحديث الساخن باهتمام بالغ، وذلك عندما سمع باباندريو يعلن :

- لقد مات أكثر من عشرين مصريّا في مظاهرات اليوم على الأقل كما يردد عمال الوكالة عندي .

قالت آماليا بعنجهية :

- لأن المصريين مجموعة من الغوغاء لا يعرفون كيف يعترضون بهدوء !

- ولكن لا تنسيْ أن الشرطة تعاملت بعنف شديد مع المظاهرة، رغم أن الناس كانت تعبر عن رفضها للضريبة الجديدة تعبيرًا سلميّا هادئا .

تدخل القنصل الفرنسي قائلا بعد أن صبّ

آخر رشفة من كأس النبيذ في جوفه :

- أذكر مرة أن أحد أصدقائي من شيوخ الأزهر قد حضر لقاءً مع محمد علي باشا بصحبة كبار العلماء والتجار، كانوا ينقلون للباشا احتجاج الأهالي على ضريبة جديدة فرضها عليهم، وقد سمع صديقي هذا الوالي يحذرهم بشدة قائلا: (لن أسمح أبدًا بأي مظاهرة شعبية، ولن أقبل بأي تحريض أو إثارة للاضطراب الشعبي أيا كان مصدره، فأنا لا أخاف مطلقا من هذه المظاهرات العابثة، فإذا ما قام الشعب بالتمرد مثلما تقولون فلا أملك له إلا السيف والانتقام).

قفز باباندريو ليقترب أكثر من القنصل وقال وهو يتخذ مجلسه في المقعد المجاور له مباشرة :

- الخوف أن عنف الشرطة من الممكن أن يؤثر على تجارتنا؟

تساءلت آماليا وهي تقدم صحنا مليئا بالمقبلات للقنصل :

- كيف؟

- يزداد غضب الأهالي ويغلقون الدكاكين والمحلات فتتوقف حركة البيع والشراء !

هزت رأسها موافقة، لكنها شعرت بنظرة محمّلة بعواطف مشبوبة تخترق ظهرها العاري، التفتت فجأة، فرأت العبد هلال يرمقها بعينيه الواسعتين وهو يسد فراغ باب المطبخ بهيكله العملاق، فاعتراها شعور متناقض يمزج الأمان بالرعب، استعادت وقفتها الطبيعية، وتابعت بعقل مشوش القنصل وهو يتناول قطعة لحم مشوي قبل أن يشرع في إسداء نصائحه قائلا :

- يا سيد باباندريو.. حاول أن تنمّي تجارتك بالتعاون مع تاجر مصري تثق به، فهو أقدر على فهم طبيعة أولاد بلده وكيفية تسيير

شؤون تجارتك والحفاظ على أموالك وزيادة أرباحك .

تعجب الرجل من الاقتراح وتفكر قليلا، لكن القنصل حسم الأمر بقوله :

- أعرف تاجرًا مصريا شريفا وأمينا يدعى الحاج جاد الله الديروطي، وقد فتح وكالة جديدة للدقيق بالسيدة زينب... سأرتب لقاءً يجمعكما لو شئت !

تخوف باباندريو ودهمته الشكوك ومسح بكفه على صلعته وتساءل: (ماذا يريد القنصل بالضبط؟ هل يبغي عمولة؟ هل اتفق مع التاجر المصري على نسبة من الأرباح؟)، وقال بدون حماسة :

- كما ترى سعادتك !

ثم استأذن وقفز مرة أخرى نحو عازف البيانو وصاح :

- اسمعنا شيئا يا رجل... دعك من

المظاهرات العبثية وتوابعها المزعجة !

13

لما غادر القنصل الفرنسي خان الملذات، توجه باباندريو نحو الشرفة سيئ المزاج مختنق الروح، فلم يأبه بهدايا الليل من النسيم المنعش والقمر المنير. تأمل دور الحي الإفرنجي الغارقة في الصمت والسكون وقال ما أسعد النائمين وما أتعس السهرانين. استنشق عبق الزهور وروائح الأشجار المقبلة من الحدائق والبساتين المتنشرة في الحي بنفس سقيمة. استند بساعديه على سور الشرفة وراح يشعل غليونه من جديد، وهو يفكر في الاقتراح الذي بوغت به هذا المساء، وتساءل لماذا يريد القنصل أن يقحم تاجرًا مصريا في أعمالي؟ هل يرتبط معه بمصالح لم يفصح عنها؟ هل يسعى إلى تقليص نشاطي؟ ولماذا؟ وللحظة آنس لفكرة طارئة، وهي أن يصفي تجارته ويعود إلى اليونان، ثم تراجع وقال لنفسه: (لن أجد بلدًا تطيب فيه التجارة وتتراكم فيه الأرباح بسرعة مهولة مثل مصر). واقتحمت

آماليا وحدته في الشرفة، وخلفها العبد هلال يحمل كأس كونياك وصحنا مملوءًا باللحم المشوي الساخن ذي الرائحة الفاتحة للشهية، ناولته الكونياك مصحوبًا بابتسامة وهمست :

- أعرف أنك منزعج مما قاله القنصل؟

التفت إليها وغمغم :

- مفاجأة سخيفة لم تكن في الحسبان... أنا لم أفكر أصلا في أن يشاركني تاجر يوناني أو فرنسي، فكيف أقبل بأن يقتسم أرباحي تاجر مصري؟

ألقت براحتها اليمنى على كتفه بمودة وقالت ببسمة مطمئنة :

- إياك أن تخسر القنصل... آنذاك ستندم لأنك ستخسر الكثير !

- سأخبر السيد قسطنتين بالأمر، فهو كبير التجار، فضلا عن كونه صديقا لهذا القنصل

المريب !

- حتى لو نصحك السيد قسطنتين بعدم التعامل مع التاجر المصري، فلا تنصت له .

ثم بلهجة حاسمة :

- إياك... إياك أن تخسر القنصل القرنسي !

التفت مندهشا من إصرارها وتساءل :

- لِمَهْ؟

- لأنه مقرب جدا من الوالي، ومحمد علي باشا يكن له مودة واحترامًا .

لم يعلق ومضى يتأمل الصمت والسكون ويحسد النائمين، ثم جذب نفسًا عميقا من غليونه بعصبية، وللمرة الأولى غادر باباندريو خان الملذات دون أن يأخذ حظوظه من لذائذ النساء، بينما العبد هلال يشيّعه بنظرات ساخطة !

14

فوجئت هيلين بعصفور الحداد والخواجة شارل يقتحمان المكان وهما يتضاحكان. الكارثة تزحف نحو الخمارة. القلق يعتري الفتاة اليونانية الجميلة. ماذا جمعهما؟ ومتى التقيا؟ وفيمَ يتحدثان؟ آثرت الاختفاء في الحمام قليلا لتهدئة مشاعرها المضطربة وضبط هندامها وزينتها. وفيما هي تتأمل ملامحها في المرآة دهمها خاطر مفزع، فقد يبوح عصفور لرفيقه بغرامه بها؟ إنه مجنون، والعاشق لا تثريب عليه. وهكذا كتبت رسالة مقتضبة بالفرنسية في ورقة صغيرة جدا وخرجت مسرعة واتجهت فورًا نحو المنضدة التي يجلسان حولها، وقف الرجلان احترامًا فمدت يدها لتصافح الرسام الباريسي وهي تطل في عينيه وتدس في راحته الرسالة بحركة سريعة لم ينتبه لها رفيقه، فاستغرب وأخفاها في جيب سترته دون أن يقرأها، صاحت بصوت عال ليسمعها كلاهما جيدًا :

- هذا أخي المصري عصفور... كيف التقيتما يا مسيو شارل؟

انزعج ابن الحداد من كلمة «أخي» وكظم غيظه وخاطبها محاولا الابتسام :

- إنه صديقي الجديد... التقينا أمس في المظاهرة عند الأزهر، واليوم دعوته إلى هنا ليرسم لك صورة !

ضحك شارل فبرزت أسنانه الصغيرة وقال بحسن نية :

- مصادفة عجيبة... أنت تطلبين مني أن أرسمك قبل أيام، وهو يطلب مني أن أرسمك أمس !

عضت شفتها السفلى أسفا، وبهت عصفور وانهمرت الأسئلة في رأسه (لماذا طلبت منه أن يرسمها؟ ومتى التقته؟ هل بينهما شيء؟ ألهذا أصرت على تقديمي له بوصفي أخاها؟ وهل تعرفه منذ زمن؟)

واقتحمته مشاعر سلبية تجاه شارل، وفكر للحظة أن يلكمه بقبضة يده، لكنه تراجع وجلس يائسًا، قالت هيلين بحسم وهي تشير نحو ركن قصيّ :

- تكفيني صورة واحدة أعلقها في هذه الزاوية .

ثم بابتسامة موحية :

- رجاءً... وفّر نقودك أخي عصفور... فأسعار لوحات مسيو شارل مرتفعة جدا، وأنت مضطر لدفع الضريبة الجديدة التي فرضها الوالي بحكم امتلاكك لورشة حدادة حتى لو كانت ورشة صغيرة !

أيقن الشاب أن مشاعرها لن تتزحزح عن خانة الأخوة أبدًا، فحرك رأسه موافقا وعبث بشاربه محاولا مداراة ارتباك سطا على كيانه كله وتساءل باطنه ساخطا :
(لماذا نحب مادام الصدود ينتظرنا في أول الطريق؟ ولماذا يخفق القلب بعشق

امرآة، بينما ينتحر الأمل على مدخل فؤادها القاسي؟ إن ثمة خطأ جوهريا في هذه الحياة يجبرنا على التعامل معها بسوء نية)!

15

افترقا عند جامع البنات، عصفور ممتطيًا أحزانه وإحباطاته، وشارل شغوفا بمعرفة فحوى الرسالة الغامضة، فلما طالع ما بها قرر العودة إلى الخمارة، إذ كان منطوقها (رجاء لا تخبر الشاب المصري عصفور أنني طلبت منك أن ترسمني). في الطريق تساءل متحيرًا: هل يمكن أن تكون الفتاة على علاقة غرامية بعصفور؟ ولم لا؟ ابتسم وردد متفائلا : الحب لا يأبه للاختلاف في الدين والوطن والثقافة، الحب ينحني إجلالا أمام العلاقة الأزلية بين الرجل والمرأة إذا سرى بينهما شعاع من نور الشوق المتبادل .

استبشرت هيلين خيرًا عندما رأته يدلف من الباب ويبحث عنها بعينيه، أقبلت نحوه بفرحة غامرة وجلست قبالته وشرعت تتحدث بسرعة كمن تدفع عن نفسها تهمة مرذولة :

- لم أكن أريد إزعاجك برسالتي يا مسيو شارل، لكنك تعرف المصريين، إنهم سريعو الإبحار في نهر الحب كلما تعاملوا مع فتاة أجنبية، لكني أقسم لك أنني لا أكنّ له إلا مشاعر الأخوة، وقد قلت له ذلك مرارًا حتى لا يبني آمالا في الهواء، وأنني أخبرتـــ ...

قاطعها مهدئا :

- لا عليك... الأمر بسيط، المهم ألا تجرحي مشاعره وتصديه بفظاظة، فهو إنسان طيب كما أظن !

بهتت من رده وصاحت وهي تحدق في عينيه بهيام :

- هو لا يهمني... أنت من يهمني .

انتبه للمرة الأولى إلى أنها مفتونة به، فتحير قليلا، مسح بيده على شعره الأصفر الضارب للرمادي ووضع راحته اليسرى

فوق كفها اليمني بحنو وقال بنبرة من خبر الحياة :

- هيلين... أنا أكبر منك بعشرين عامًا على الأقل... فلا يستقيم الغرام في هذه الحالة !

- لا يوجد سن محدد لاشتعال الحواس... الغرام يتجلى في أي عمر !

- لكنك لا تعرفين أي شيء عني، أليس من الجائز أن أكون متزوجًا؟ أو مرتبطا بامرأة؟

عاجلته سريعًا :

- أعرف عنك كل شيء، فأنت غير متزوج، ولست مرتبطا بأحد، وأنـ ...

قاطعها مرة أخرى مبتسمًا :

- هل تتجسسين عليّ؟

افتر ثغرها عن بسمة أضاءت وجهها وقالت

وهي تغض طرفها حياءً :

- البركة في السقاء أمين الدواخلي... بالمال يضع أخبار مصر كلها فوق مائدتي !

فقهقه معلقا :

- بل يضعها في قربته !

ثم استرد جديته وأضاف بهدوء :

- حتى لو كنت غير متزوج يا مدموازيل هيلين، فهذا لا يعني أن قلبي يقع في غرامك .

هبت واقفة وغادرت المكان، صعدت إلى غرفتها في الطابق الأعلى وقلبها يكاد ينفطر من البكاء !

16

اقتحم إبراهيم باشا مكتب بوغوص بك على غير العادة. كان الرجل منهمكا في تدوين بعض الأرقام والحسابات وترجمة بعض الرسائل الواردة من القناصل الأوروبية، ولما كانت الساعة لم تتجاوز التاسعة صباحًا، تعجب بوغوص وتساءل: (كيف استيقظ هذا الشاب مبكرًا... إنه يعب الخمر ليلا حتى يهده التعب). سأله إبراهيم بخبث وهو يعبث بإحدى الأوراق :

- أما من جديد عن شقيقي طوسون وحملته في أرض الحجاز؟

أحس ناظر المالية أن ثمة شماتة مخفية في نبرة إبراهيم، فخبر هزيمة شقيقه قد وصله مثل أبيه، فلماذا يكرر السؤل الآن؟ وأجاب الرجل :

- لا جديد بعد! ولكن وصلني ملف «سري للغاية» ربما يحمل جديدًا، لكن لا يمكن

فتحه أو الاطلاع على ما به إلا أمام وبأمر والدك الباشا الوالي .

- والتعزيزات العسكرية؟

- في الطريق كما أمر الوالي، ربما تصل إلى سمو الأمير طوسون خلال أسبوعين .

غمغم إبراهيم باشا وأمسك بورقة من أمام بوغوص وطالعها للحظات، ثم قال ساخرًا :

- ألا تتعب من هذه الأرقام والحسابات؟

فأجابه مبتسمًا :

- وهل يتعب سموكم من ركوب الخيل والمبارزة بالسيف؟

شدّ إبراهيم قامته مباهيًا بشبابه النضر وصاح بأداء المعتد بنفسه :

- هذه تدريبات واجبة على كل فارس

مقدام .

تأمله الرجل قليلا بإعجاب، وعاد إبراهيم يتساءل وقد تطاير الخبث من عينيه :

- وهل مازالت العاهرة الجيورجية صوفيا برفقته، أم هجرها في الصحراء القاسية؟

الغيرة تنهش كبد الشقيق الأكبر، ولكن، فليعتصم بالبرود حتى لا يثير غضبه، فما أبشع غضب الحكام المسلمين، فقال بهدوء وهو يفتعل الانكباب على الأوراق التي أمامه :

- أظن أنها مازالت معه !

وقبل أن يعلق طرق الحارس الباب ودخل بأدب قائلا :

- بوغوص بك... سيدي الوالي يريدك فورًا .

فاحت الغرفة بروائح قلق، ودار إبراهيم حول نفسه لا يعرف ماذا يفعل، بينما تناول

بوغوص بعض الأوراق من فوق مكتبه بسرعة خاطفة، وفي لحظة... كاد يصطدم الرجلان وهما في غمرة توترهما، ولما غادر إبراهيم الغرفة، صلّى بوغوص سريعًا وتوجه نحو مقر محمد علي باشا وهو يردد آيات من إصحاح الموعظة على الجبل المذكور في إنجيل متى: (افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات)!

17

استقبله الوالي واقفًا ومتحفزًا . يضع غليونه في فمه دون إشعال، بينما تتقافز قطته من حوله بمرح. فلما دخل بوغوص واجهه بنظرة خبيثة مرفقة بسؤال يعرف إجابته مقدمًا :

- ها... ماذا كان يريد منك ابننا إبراهيم؟

تلعثم الرجل، فقهقه الباشا وصاح :

- حذاري أن تكذب يا بوغوص، فأنا أعرف كل صغيرة وكبيرة تحدث في القلعة، وأعرف السر وراء زيارته لك .

انكمش الوزير في رعبه، وتسارعت دقات قلبه وتذكر الأمر المشؤوم (فليُسَقْ من قدميه)، فكاد يبول على نفسه، وسيطر بصعوبة على مثانته قبل أن تنطلق، ولولا أن محمد علي ربت كتفه بحنو، وقاده نحو الشرفة المطلة على جبل المقطم، لفعلها

في قصر الحاكم ولوّث السجادة الفارسية وأهان مقام الوالي الذي واصل قائلا :

- إبراهيم كان يسألك عن هزيمة طوسون ومتى ستصل التعزيزات... إنه يغار منه رغم أنه شقيقه، لقد كان يحلم بأن يقود حملتي إلى أرض الحجاز بدلا منه .

مازال الرجل يسيطر على مثانته بقدرة الهلع والرعب من الفضيحة، فاكتفى بهز رأسه موافقا، إذ هرب منه الصوت، فعاد الوالي يقر حقيقة تحزنه وهو يرنو إلى سفح الجبل قائلا بهدوء :

- للأسف... طوسون لا يصلح للحرب... إنه الابن المدلل، لكني رغبت في إبقاء إبراهيم بجواري ليتعلم مني سياسة الحكم وفنون التجارة، لكنه مشغول دومًا بالمسائل العسكرية ومفتون بها .

أيقن بوغوص أن الخطر في طريقه إلى الزوال، فرجا الباشا أن يسمح له بالذهاب

إلى المرحاض، تعجب الوالي وأذن له، وهناك أفرغ خوفه مع بوله فارتخت عضلاته وانضبطت دقات قلبه. ولما عاد وجد الباشا قد اتخذ مجلسه المعتاد ومضى يداعب القطة، وسأله :

- ما أخبار صفقة زراعة الأفيون؟

أجاب بوغوص سريعًا :

- كما أمرت سموكم، وصلت التقاوي من أنطاكية، وجلبنا من آسيا الصغرى مجموعة من الأرمن الخبراء في زراعته، حيث قاموا بتعليم الفلاحين المصريين أفضل الأساليب الممكنة في الزراعة لنضمن محصولا جيدًا، فهم لم يزرعوه من قبل .

هتف الباشا قائلا بسرور :

- عفارم بوغوص... عفارم... وهل حددتم المنطقة التي ستجربون فيها زراعته للمرة

الأولى .

انتشى الرجل بالثناء، وأجاب موضحًا :

- لقد خصصنا، بعد إذن سموكم، خمسة آلاف فدان في منطقة جرجا بالصعيد كتجربة أولى بناء على نصائح الخبراء الأرمنيين الذين عاينوا عدة مناطق زراعية في المنوفية والدقهلية والفيوم والمنيا قبل أن يستقروا على منطقة جرجا بوصفها أصلح المناطق .

هز الباشا رأسه مؤيدًا، فتشجع بوغوص وسأله بحس خفيض :

- هل تنوي سموكم الإقدام على زراعة الحشيش أيضا؟

ضحك الباشا وصاح :

- كنت أظنك أذكى من ذلك يا وزيري، زراعة الحشيش غير مربحة بما يكفي، أما الأفيون فمربح جدا، كما قال لي القنصل

الفرنسي، لأنهم يستخرجون منه مادة المورفين التي يستخدمها الأطباء الأوربيون لتسكين الآلام عند إجراء العمليات الجراحية، لذا سأقوم بتصديره لهم بالسعر الذي يناسبني .

ردد بوغوص في سريرته (التجارة في دمك يا وليّ النعم، فأنت تاجر ماهر قبل أن تكون سياسيًا ماكرًا)!

18

مع غروب الشمس وصل الرجل إلى داره بالحي الإفرنجي مكدود الروح شاحب الوجه، فانزعجت زوجته ووضعت جانبًا إبريق الماء الذي كانت تسقي به الورد ودنت منه وصاحت :

- بوغوص... ما بك؟

- لا شيء... اطمئني .

الصوت مسكون بالانكسار، والنبرة مكسوة باليأس، فكيف تطمئن؟ وعادت تسأله وهو يبدّل ملابسه :

- هل حدث شيء مع الوالي؟

التفت نحوها ومط شفته السفلى باستهانة وقال وقد جلسا متجاورين على الأريكة الرئيسية في بهو الدار :

- إن له عيونًا وآذانًا في كل مكان بالقلعة، وقد فوجئت اليوم بأنه اطلع على الحوار الخاص الذي دار في مكتبي بيني وبين ابنه إبراهيم باشا .

هبت واقفة وهتفت بتوتر :

- لا أمان لنا في هذا البلد. لقد أصدر حكمًا بإعدامك العام الماضي، ولولا رحمة الرب لكنت من الهالكين. هيا نرحل من هذا الرعب يا زوجي العزيز .

أمسك بذراعها ولثم راحتها وأجلسها بجواره وطوقها بيمينه وقال مهدئا :

- اهدئي يا حبيبتي من فضلك... لقد صار مقدرًا علينا العيش في كنف محمد علي، لا نستطيع أن نهرب منه، كما أنه لن يتركنا نمضي بسلام، فأنا مستودع أسراره، ومن الصعب أن أغيب عن ناظريه .

تنهدت وقالت بيأس :

- والعمل؟

فأهداها قبلة على خدها برقة شديدة، وقال :

- لا تقلقي... مادمت قادرًا على تنفيذ أوامره فلا خطر علينا، كما أن الرجل لا يحركه سوى هدفين اثنين فقط، وأنا قادر على التعامل مع هذين الهدفين بذكاء وحذر .

رفعت حاجبيها متسائلة باهتمام :

- وما هما؟

- جمع المال بشراهة والتحكم في العباد بقسوة !

ثم ضحك طويلا بصوت عال حتى رنّت في ذيل الضحكات نبرة بكاء خجلى فضمته زوجته إلى صدرها بحنان، فسالت دموعه بغزارة .

19

اجتمع الرجلان للمرة الأولى على مأدبة غداء عامرة في دار القنصل الفرنسي بالحي الإفرنجي. بدا الحاج جاد الله الديروطي متين البنية متورد الوجه ذا حاجبين كثيفين ولحية كثة سوداء، متفائلا ومبتسما على الدوام، وقد ارتدى عباءة بنية من الحرير الهندي واعتمر عمامة بيضاء كبيرة. في حين ظل الخواجة باباندريو معتصمًا بالصمت معظم الوقت يختلس نظرات سريعة إلى شريكه القسري الجديد ويكظم سخطه. أما القنصل الفرنسي فأفرط في الحفاوة بضيفه المصري وتساءل ضاحكا وهو يصب العرقسوس للحاج والنبيذ للخواجة :

- يا حاج جاد الله... أعرف أنك لا تشرب النبيذ لأنه حرام، ولكنك تنوي الزواج من الخامسة، وهذا حرام أيضا كما يقول دينكم الإسلامي؟

انتظر الرجل حتى يبتلع قطعة اللحم المشوي وقال بصوت جهوري ذي رنين محبب :

- لا لا يا سعادة القنصل... حاشا لله... النية ليست حرامًا، وإنما الفعل، لذلك لن يكون على ذمتي إلا أربع نساء فقط كما يقول الشرع، لأنني سوف أطلق الزوجة الثالثة، فهي عنيدة ومهووسة بالمال وتتهرب من اللقاءات الساخنة !

ضحك باباندريو للمرة الأولى وسأله :

- أليست جميلة؟

فهتف بحسرة :

- جميلة جدا، وبدينة ولذيذة مثل القشدة، لكنها عنيدة وغير مطيعة بالمرة حتى باتت مثل «المش»... للأسف... عناد المرأة يفسد جمالها ويقبّحه .

انتهزها فرصة واستفزه بسؤال عسى أن

يغضب وتخفق الشراكة بالإكراه هذه :

- لا تغضب مني يا حاج جاد الله، ولكنك تجاوزت الأربعين كما يبدو، ومعذرة، فطاقتك الجسدية لن تسمح لك بإشباع أربع نساء، ألا تخشى من أن تقدم إحداهن على خيانتك؟

احمرت عينا جاد الله غضبًا ووزع بصره بين السائل والقنصل وصاح :

- من هذه التي تتجرأ على الخروج من داري أصلا؟ الذبح مصيرها المحتوم... لا لا يا خواجة باباندريو... أنت لا تعرف شيئا عن حزم الزوج المصري وشكيمته، أما الطاقة فالبركة في صديقي العطار الذي يعد لي وصفات جهنمية تحيي العظام وهي رميم .

ثم أطلق ضحكة مدوية، فخاب أمل باباندريو، وتدخل القنصل منهيًا الحوار حول النساء ومستعيدًا الهدف الأصلي من اللقاء بأن قال بجدية :

- اتفقنا يا جماعة... سيصبح باباندريو شريكا بنصف المال في وكالة الدقيق بعد توسيعها، كما سيشارك الحاج جاد اللّه بالثلث في وكالة الفحم بعد افتتاح فروع لها في الإسكندرية ودمياط ورشيد، على أن تتخذا خطوات جادة لتأسيس وكالة جديدة لاستيراد الأثاث الفاخر من فرنسا وإيطاليا .

ثم ببسمة ماكرة :

- وطبعًا... نسبتي معروفة... ثلاثة بالمائة من أي صفقة .

تساءل العريس المنتظر :

- والضرائب؟

- لا تخش شيئا يا حاج... لقد تحدثت مع الوالي شخصيًا في هذا الأمر، وقد وعدني بتخفيض الضريبة جدًا حتى نضمن ربحًا معقولا .

ازدادت ابتسامة الحاج اتساعًا لتظهر أسنانه ضاربة للصفرة من جراء التدخين، وقال لنفسه: (الشراكة مع الخواجات تضمن لك المزيد من الأرباح، فالوالي نفسه يجاملهم ويخشاهم فيما يبدو). وتلقى باباندريو كلام القنصل فانشرحت أساريره، وتأمل شريكه بحياد لأول مرة وردد باطنه: (لا بأس من مشاركة تاجر مصري مادام سيوفر لي المزيد من الأرباح). وناول القنصل قدح العرقسوس إلى جاد الله ورفع قدح النبيذ هاتفا :

- فلنشرب نخب الصداقة الفرنسية اليونانية المصرية !

20

في تلك الليلة هبّ على القاهرة تيار بارد منبئا بحلول فصل الشتاء، وهبط مطر غزير متقطع على الحي الإفرنجي، فتدثر باباندريو بمعطف صوف أسود نزعه فور دخوله خان الملذات، وتوجه مسرعًا نحو آماليا التي استكنت في مقعدها بجوار المدفأة، حيث قال لها بفرح :

- أبرمت عقدًا ممتازًا مع تاجر مصري... سأتوسع في تجارة الفحم وسأشاركه في تجارة الدقيق .

تعجبت صاحبة الدار التي ترتدي معطفا بنيًا من الصوف اتقاءً للسعة البرد وسألته مستنكرة :

- ألم تكن ساخطا على القنصل الفرنسي؟

تناول رشفة من كأس الكونياك وأجاب سريعًا :

- يبدو أنني فهمت الأمر بشكل غير صحيح، على العموم... هذه الشراكة ستراكم أرباحي في زمن قياسي بأكثر مما أتخيل .

لاحظت آماليا أن إحدى بناتها لم تستعد بعد لاستقبال الزبائن، فاستدعتها ووبختها بصوت خفيض، بينما لمحت العبد هلال يطعم المدفأة بالمزيد من الفحم، فعادت لتسأل الرجل :

- وهل سيربح شريكك المصري بشكل جيد؟

- طبعًا... سيجني الكثير من الأموال .

ابتسمت، ولاحظت أن هلالا يختلس إليها النظر في أثناء عمله، فربتت فخذ باباندريو بمودة ظاهرة لتستثير حواس الشاب الأسود العملاق دون سبب واضح لها، وعادت لتسأل :

- والقنصل الفرنسي يا أيها التاجر الماكر؟

- سينال نصيبه من الأرباح... إنه داهية .

- الكل سيربح إذن، فمن الخاسر؟

قهقه باباندريو وصاح :

- الزبون المصري طبعًا !

21

انطلقت الزغاريد . أضيئت المصابيح. علقت الزينات. تكدس المدعوون في درب الجماميز. أشعل صياح الأطفال ومرحهم سكون الليل بالبهجة والسرور. استهان الجميع بالبرد الخفيف ونذر الأمطار المتوقعة ومضوا يهللون ويرقصون. لاح عصفور الحداد في ثياب العريس كبدر مكتمل، رغم غمامة من حسرة تمر على جفنيه بين لحظة وأخرى. أما والدته فقد انتشت بالانتصار وقالت لنفسها بفخر لقد حافظت على ابني وحميْته من بنات الخواجات، ضمتها خديجة والدة العروس إلى صدرها بمودة وهتفت :

- ابنتي رقية في رعايتك يا أم عصفور... البنت مازالت صغيرة .

- رقية ابنتي أيضًا يا ست خديجة يا حبيبتي... أنت أختي .

همس محروس النجار شقيق العروس لعصفور :

- أختي صغيرة ومدللة، فلا تشغل بالك بحديثها إذا تجاوزت الحدود .

ارتبك عصفور للحظات، وتأمل صهره ذا البنيان العملاق بمزاج قلق، لكن سرعان ما طرد القلق بإشارة من لهفته على الانفراد بعروسه .

لم ينس عصفور أن يدعو الخواجة شارل، فحضر بهيئته الأوروبية وابتسامته المهذبة، ومنحه مبلغًا من المال وهو يقول ضاحكا :

- هذه هدية زفافك... أي (النقطة) كما تقولون في مصر .

ابتسم العريس وشكره وتباهى به أمام المدعوين، قاده ليجلس في صحن الدار مع أصدقاء والده الراحل، لكن الرجل آثر أن

يتخذ موقعه في الحارة أمام الدار بين حشد من أصدقاء العريس ومعارفه الذين استقبلوه بترحاب وأفسحوا له مكانا بينهم، فشكرهم بلهجة مصرية معقولة ومضى ينصت إلى حديثهم. تناهت إلى مسامعه حوارات الرجال حول موضوعات شتى، لكنه انتبه جيدًا عندما صاح أحدهم :

- بصراحة الغلاء أصبح فاحشا لا يحتمل... أردب القمح بعد أن كان بأربعمائة فضة ارتفع سعره إلى ألف ومائتين في أقل من ثلاثة أشهر، وقربة الماء بلغت خمس عشرة فضة، بعد أن كانت بأربعة فقط .

- الوالي ينقض على أموالنا ليبني بها قصر الجوهرة للسيدة قرينته .

- ألا يوجد رجل محترم ينصحه ليتعامل بالرفق مع آلاف الغلابة؟

- لقد ولى زمن الرجال المحترمين بعد نفي السيد عمر مكرم .

- ومن يجرؤ على معارضة محمد علي بعد مذبحة القلعة؟ إنه قاسي القلب عديم الرحمة .

- لكن لا تنسوا يا جماعة أنه يعمل لخدمة البلد... لقد بسط الأمن والأمان بعد أن قضى على الفوضى والبلطجة وإجرام المماليك والجنود الأرناؤوط، كما أنه ينظم مسائل الري ويشق الترع الجديدة ويقيم السدود حتى لا يغرقنا الفيضان كما كان يحدث من قبل .

- لكنه لا يخدم سوى نفسه وعائلته وحاشيته، حيث تصب الأموال كلها في خزانته فينفق منها على بناء القصور، فبعد قصر شبرا، ها هي أعمدة قصر الجوهرة بالقلعة ترتفع إلى عنان السماء .

- يا رجل... كن عادلا، ألم يذهب إلى الإسكندرية بنفسه ليجدد حصونها وأبراجها ويبني حولها سورًا يحميها ويحمينا من غدر الأعداء الذين ينبثقون من

البحر كالشياطين؟ هل نسيتم حملة بونابرته قبل أربع عشرة سنة، ثم حملة فريزر قبل خمسة أعوام؟

- ولكنه ذهب أيضا ليبيع الغلال إلى الإنجليز لحسابه الشخصي؟

- كفى يا جماعة... دعونا نفرح بالعريس قبل أن يهطل المطر .

- معك حق... الغيوم تتكثف منذ العصر حتى حجبت النجوم تمامًا .

ثم صاح أكثرهم بدانة :

- متى سنتناول عشاءنا يا عصفور؟

تابع الخواجة شارل الحوار الدائر باهتمام شديد، تذكر صديقه الراحل أيوب السبع، فتيقن أن الضيم الذي يعاني منه المصريون سيطول أكثر مما كان يتخيل، فقبل يومين قال له القنصل الفرنسي إن محمد علي يراكم أرباحًا طائلة بالتجارة مع

لندن، وأنه يستولي على الغلال من الفلاحين بأبخس الأسعار ويبيعها للإنجليز، وأن هؤلاء غمروه بهدايا فريدة أعجبته كثيرًا مثل البغاوات الهندية الملونة، وأن على فرنسا أن تنتبه جيدًا لمكر الإنجليز حتى لا يستحوذوا على خيرات مصر بمفردهم. عاد شارل يتساءل لو لم يقتل جنود الوالي أيوب السبع ورفاقه قبل سبع سنوات في صحراء الدراسة، فهل كانت دعوته لسقوط حكم محمد علي ستنجح؟ هل من الممكن أن يحكم مصر رجل مصري ليس تحت إمرته آلاف الجنود المسلحين؟ ثم استرد وعيه عندما دعاه عصفور لتناول العشاء، وغمغم في سريرته قائلا: (في مصر ... من يملك السلاح يستولِ على السلطة).

22

بعد عودته من العرس وفور أن دخل داره بالدرب الأصفر، سمع طرقا على الباب، فتعجب قليلا وفتحه، فإذا بشاب خمري اللون يسأله بأدب :

- حضرتك الخواجة شارل... أنا النبوي سرحان... هل تسمح لي بلقاء صغير؟

تأمله بهدوء. لا تبدو على ملامحه آيات الإجرام . لكن الوقت تجاوز العاشرة مساء والمطر يهطل بغزارة في الخارج، فلم العجلة لمقابلتي؟ أفسح له الطريق نحو القاعة الرئيسية. وأستأذنه لحظة ليطل على ياقوتة في مخدعها، فوجدها تغط في نوم عميق. عاد ليجده متسمرًا أمام لوحة مسعدة حجاب، فارتبك، وظن أنه يملك معلومات عنها، فسأله بلهفة :

- معذرة... هات ما عندك؟

تردد الشاب قليلا، حتى اصطحبه صاحب الدار إلى ركن قصي بجوار المدفأة الأوروبية الطراز، وجلسا متقابلين على مقعدين من الخيزران. افتتح النبوي حديثه قائلا :

- أنا ابن خالة أيوب السبع !

جفل الخواجة وعاد إلى الخلف، وتفحصه بعمق، فلم يلمح أي درجة تشابه بينه وبين أيوب، وقبل أن يستفسر واصل الشاب حديثه بثقة :

- أخبرتني سعدية أرملة أيوب عن علاقتك الوثيقة به، وأنه تعلم منك الكثير، وأن شرطة الوالي محمد علي هي التي قتلت زوجها ورفاقه في صحراء الدراسة قبل سبعة أعوام لأنهم اعترضوا على تولية حاكم غير مصري عرش مصر، وأنك كنت تناقـ ...

قاطعه شارل، مستنكرًا بجدية :

- لا أعرف عمّ تتحدث بالضبط؟

الشك يعبث بصدره، حذار... قد تكون دسيسة يا شارل، وقد عدت إلى هذه البلاد بعد مشقة ووساطة من القنصل الفرنسي نفسه، عدت لتبحث عن ابنك المفقود، لا رغبة في تعليم الناس أو حماسة للنضال السياسي، فقد انتهى زمن المعارضة السياسية، وها أنت على مشارف الخامسة والأربعين، وأحلامك الثورية تذبل من سنة إلى أخرى بعد تردي الأحوال، واستيلاء بونابرت على السلطة كلها وتسكعه في أوروبا على رأس جيش غاز يحتل ويدمر، وها هو محمد علي يستحوذ على السلطات كلها هنا، وينفق الأموال على بناء القصور، ويترك الملايين من المصريين هائمين في الفقر والجهل والمذلة، وعاد الشاب يعلن بأدب :

- لا تخشَ شيئا يا خواجة... ثق بكلامي... أنا ابن خالة أيوب، وأنا أحاو ...

نهض شارل واقفا في إشارة إلى انتهاء المقابلة، وقال دون أن يتخلى عن تهذبه المعهود :

- معذرة... لقد تأخر الوقت وحلّ موعد نومي !

23

لم ينم شارل، تلاطمت في رأسه الهواجس والذكريات، ظل يتقلب في فراشه باحثا عن تفسير لهذه الزيارة المريبة وهذا الغريب الغامض. حاول أن يتذكر أي شيء قاله أيوب قديمًا عن خالته وابنها، فلم يفلح . بتثاقل متكدر المزاج جلس على سريره لحظات يسترجع كلام الضيف المفاجئ، ثم أشعل المصباح وغادر غرفته نحو الصالة حيث قوارير الخمور. أعدّ لنفسه قدح نبيذ. ولما عاد إلى سريره أخفق مرة أخرى في اصطياد طائر النوم، هجر فراشه وذهب إلى مخدع ياقوتة. أيقظها برفق، فتعجبت، لكنها أدركت من نظرة عينيه أنه قلق وحزين يبحث عن الهدوء والسرور، فهبت واقفة وأستأذنت لحظات كي تستعد لاستقباله في حضنها، ولما شعرت بتوتره الشديد منحته بسخاء حتى تهدم بنيانه وترك جسده يسترخي على سرير جاريته فغاب في سبات غير هانئ وغير عميق !

24

في التاسعة صباح اليوم التالي استيقظ شارل على صوت ياقوتة . أخبرته أن هناك شابًا ينتظره وبصحبته امرأة وطفلها. هبّ واقفا، وطيف مسعدة حجاب وابنهما محمد يداعب خياله، لكنه فوجئ بسعدية وابنها أيوب والزائر الغريب في الليلة الماضية. كانوا ثلاثتهم متدثرين في ثياب شتوية، وكفوفهم تكاد تتجمد من البرد، دعاهم الرجل إلى الجلوس بجوار المدفأة. وأمر ياقوتة بإعداد الفطور والقهوة فورًا. لاحت منه نظرة نحو الطفل، فتعجب من قدرة قوانين الوراثة على تكوين التشابه، فأيوب الصغير نسخة من أيوب الكبير، غمغم بأسى ما أتعس الظلم الذي يحرم طفلا من أبيه .

بابتسامة مشرقة قالت سعدية :

- معذرة يا مسيو شارل، فقد جئنا بغير موعد سابق، ولكنّ للضرورة أحكامًا .

ابتسم مجاملة وسدّ فاه براحته وهو يتثاءب، ثم قال :

- لا مشكلة على الإطلاق، أهلا بك في أي وقت مدام سعدية .

فأشارت إلى الشاب وقالت :

- هذا النبوي سرحان ابن خالة أيوب بحق. ليس كذوبًا ولا مخادعًا .

أعجب بذكائها، وابتسم، ومد يده للشاب مصافحًا وهو يقول :

- أهلا بك، ومعذرة، فقد شككت في أمرك أمس .

رد النبوي سريعًا :

- لقد توجهت نحو دار سعدية فور مغادرتي لك لأشرح لها ما حدث، وحاو ...

قاطعه بإشارة من يده وقال :

- دعنا مما حدث أمس، وأهلا بك... ماذا تريد؟

تبرع أيوب الصغير بالإجابة صائحًا :

- يريد أن يتعلم الفرنسية، وأنا أيضًا .

تدفأ المكان بالضحكات، ومسحت سعدية براحتها على شعر ابنها بحنان، وواصل النبوي شرح أهدافه :

- أعمل في وكالة الحاج جاد الله الديروطي منذ عامين، وقد دخل شريكا مع تاجر يوناني اسمه الخواجة باباندريو، فرأيت أنه من الضروري تعلم اللغة الفرنسية لأن المعاملات التجارية ستكون بالفرنسية أحيانا، إذ أننا سنصدّر الفحم والدقيق إلى فرنسا، ونستورد منها الخشب والأثاث والزجاج وخلافه .

- وما طبيعة عملك بالضبط؟

- في الإدارة والحسابات، فأنا تعلمت فترة

في الأزهر الشريف وأتقن جيدًا الكتابة والقراءة والحساب وصاحب الوكالة يثق بي كثيرًا، فأنا ابن أخيه .

جاءت ياقوتة بصينية كبيرة رُصّت فوقها صحون الفول والبيض المسلوق والجبن والقشدة والعسل والطماطم والخيار والجرجير، شكرها شارل وطلب منها إعداد القهوة. مرقت كالسهم صورة أيوب وهو يتناول معه الإفطار ذات صباح بعيد وهما يتحدثان عن أفكار جان جاك روسو ومنتسكيو والثورة الفرنسية وشعاراتها التاريخية ومسرحيات راسين وموليير، وأفاق شارل على صوت سعدية وهي تقول بابتسامة ندية :

- ها يا مسيو شارل... ألم تنو بعد أن تعلم أيوب الرسم؟ إنه مثل أبيه الراحل شغوف بالتعلم .

لا تنكئي الذكرى يا سعدية، فالقلب ما عاد يحتمل، وفرت من عينيه حفنة دموع غير

مرئية، فقال وهو يعطي الطفل قطعة خبز ويحثه على تناول الطعام :

- أيوب الصغير في سويداء القلب .

ثم سأله بتودد :

- هل تحب الرسم؟

تهلل وجه الطفل وصاح :

- كثيرًا جدًا .

فهتف ضاحكا :

- إذن.. ستكون تلميذي وصديقي .

وأقبل على الطعام وهو يدعوهم بمودة حقيقية :

- هيا.. بسم الله كما تقولون .

والتفت إلى سرحان مشجعًا :

- فلنبدأ أول دروس اللغة الفرنسية من الليلة .

25

اقتحم السقاء أمين الدواخلي خمارة الخواجة أندرياس مهللا. توجه على الفور حيث تجلس هيلين. قال وهو يجفف بقايا المطر المنهمر بالخارج بعد أن تخفف من حمولة القربة فوق ظهره :

- كله تمام يا ست هيلين... الخواجة شارل موجود يوميًا في درب الجماميز .

لم تسمعه جيدًا، فصخب السكارى وإيقاعات البيانو المرتفعة حالا دون ذلك، لكن غريزة الأنثى ألهمتها أن السقاء يبشرها بخبر طيب، فتركت مكانها المعتاد سريعًا، ودارت حول المنضدة ووقفت قبالته مباشرة وتساءلت باهتمام :

- ماذا قلت؟

فلما كرر حديثه، صمتت لبرهة ثم هتفت :

- ماذا يفعل هناك؟

اقترب منها، فاشتمت منه رائحة دخان رديء فتأففت، لكنها تماسكت، فقال :

- يرسم عصفور الحداد وهو يعمل في الورشة !

تراجعت للخلف، وتفكرت قليلا، ثم سألته :

- وهل يذهب إلى هناك كل يوم؟

- نعم... لقد سألته، فأخبرني أنه موجود يوميًا لمدة أسبوع حتى ينتهي من اللوحة !

غمغمت بكلام غير مسموع ونفحته خمسة قروش، وقد حسمت أمرها واتخذت قرارها .

26

انتظرته على ناصية درب الجماميز في اليوم التالي قبيل المغرب بساعة. ليونة الطقس أغرتها بالوقوف، ومنحتها شمس الأصيل شعورًا بالألفة والدفء، فأسندت ظهرها إلى جدار بيت قديم ينتصب على مدخل الدرب. شاهدت امرأة عجوزًا تلملم بقايا الخضروات التي تبيعها لتغادر موقعها، وتابعت بفرح مرح أطفال صغار يعابثون قطة مشاكسة. جفلت من صوت خشن انطلق فجأة من بائع بطاطا يروج لبضاعته. ابتسم خاطرها وقررت أن تدعو شارل لتناولها، فهي تعشق البطاطا المشوية في أيام الشتاء. تذكرت كيف كان أبوها يثني عليها مؤكدًا: (لا توجد بطاطا في العالم كله أجمل من البطاطا المصرية في ليالي المطر).

لمحته يخرج من حارة صغيرة. على ظهره حامل الرسم وتحت إبطه الأيسر اسكتش ضخم. هيئته الباريسية أشعلت ورود

أنوثتها، فتوجهت سريعًا نحو بائع البطاطا وابتاعت قطعتين. ثم تبعت الحبيب بقلب ينبض بالأمل ويد تحلم بمصافحة حميمة. الحب يطيح بالعادي والرتيب، واللهفة تمحق الشائع والموروث. سار بخطوة جادة سريعة وكأنه محارب في طريقه إلى ساحة المعركة. لم ينتبه لصوتها أول الأمر، لا لأن جهازه السمعي مصاب بالعطب، وإنما لأنها من فرط التوتر نطقت اسمه بشفتيها فقط دون أن تهتز الأحبال الصوتية أو يخرج الصوت من الحنجرة !

بحركة سريعة استدارت من الجهة المقابلة ووقفت أمامه مباشرة بجوار شجرة توت معمرة. بهت الخواجة، وتلعثم قليلا، فمدت راحتها اليمنى لتصافحه بمودة وهي تناوله قطعة البطاطا باليسرى، فقال ممازحًا :

- شكرًا جزيلا... أنا بالفعل أعشق البطاطا المشوية .

ثم تساءل ساخرًا :

- هيلين... هل انضممتِ مؤخرا إلى شرطة الوالي التي تتجسس على الناس؟

ضحكت وقالت وهي قلقة من ردة فعله :

- عتابي لك بلا حدود يا مسيو شارل... لقد أخلفت وعدك معي؟

قطب جبينه وتساءل بجدية :

- أي وعد؟

- مرّ أكثر من أسبوعين ولم ترسم خطا واحدًا في لوحتي... ألم نتفق على أنك سترسمني !

وفي خمارة أندرياس ظلا يتحدثان ثلاث ساعات متواصلة، حكى لها كيف جاء إلى القاهرة قبل حملة نابليون، وماذا فعل، وكيف عارض بونابرت في حملته على مصر، وطبيعة علاقته بأيوب السبع. سرد

لها كل شيء إلا حكايته مع مسعدة حجاب وابنهما محمد، وهكذا ظل يحكي ويحكي دون أن يفكر لحظة في أن يرسمها .

27

عند انتصاف النهار وصل موكب محمد علي باشا إلى قصره بشبرا. تحرك الموكب في الصباح المبكر من القلعة يتقدمه الباشا ممتطيًا جواده البني المطهم، ومحاطًا بحرسه الخاص، وبجواره مباشرة فخامة شيخ الأزهر عن يمينه، وكبير السحرة شركان الناغي عن شماله، ثم القطة السيبيرية وحارسها، ليسمح لها برؤية الباشا من خلال القفص الذهبي الذي وضعوها داخله. اخترق الموكب المهيب قلب المدينة العتيدة حتى بلغ السيدة زينب فدرب الجماميز. الشمس مواتية ونوفمبر يستقبل برودته وأمطاره بحذر. اصطفت الجماهير على الطريق تترقب مرور الموكب، وقد حال رجال الشرطة دون اقتراب العامة أكثر مما ينبغي. كان محمد علي قد أصدر أوامره في الليلة السابقة بالاستعداد إلى الانتقال نحو قصره الجديد الذي افتتحه مؤخرًا بشبرا بعد إعادة بنائه. على الفور اتخذ كبير الشرطة إجراءاته،

وأولها إطلاق المنادين في الحارات والأزقة للخروج لتحية وليّ النعم والدعاء له. وبغريزتهم الفطرية اعتبر الناس هذا الإعلان بمثابة أمر واجب التنفيذ، وإلا تعرضوا للبطش والتنكيل من قبل الشرطة. وهكذا أغلقت الحوانيت والدكاكين واصطفت الجموع بامتداد الطريق التي سيمر بها الموكب العظيم، وقال عويس الفرارجي ساخطا لعصفور الحداد وهما ينتظران مرور الموكب على مضض :

- هل محتوم علينا تعطيل مصالحنا والتهليل لرجل يذيقنا العذاب المر كل يوم؟

نهره صديقه وهمس :

- اخفض صوتك، فرجال الوالي مندسون في كل مكان .

عند جامع البنات هللت الحشود فور رؤيتها للموكب وصاحت امرأة تبيع الخضروات :

- يا باشا... يا مولانا... اعد لي حقوقي... لقد استولى هذا الرجل على مقطف الطماطم ومشنّة الخيار والخس، وأنا أسترزق منها !

وأشارت إلى رجل ضخم البنيان يقف قريبًا منها، سمعها الوالي برغم الصيحات والضجيج. وفي رد فعل سريع وذكي ومفاجئ أمر الباشا بإيقاف الموكب. وأشار بيده إلى كبير الشرطة، فأحضروا المتهم بسرعة البرق، سأله الباشا، فنفى قيامه بجريمته، لكن تطوع شابان وأيّدا كلام المرأة، فأمر الباشا بجلده في الحال، وإعادة المسروقات إلى صاحبتها، فصاح أحد الحضور :

- يحيا العدل... يحيا العدل .

فردد بعض رجال الشرطة الهتاف خلفه وهم يحثون الجموع ويحدجونهم بنظرات منذرة، فوصلت الرسالة إلى الناس مكسوة بالخطر، فاستسلموا لها بالإذعان والهتاف: (يحيا العدل... يحيا العدل... الله

أكبر... اللّه أكبر... عاش محمد علي باشا)، لكن الوالي أدرك أنه مديح فاتر مزيف فلم ينتش، ولاحت منه نظرة إلى الجموع، فشعر للحظة باليأس، وردد في سريرته: (هل من الممكن حقا أن يتطور هؤلاء الناس؟ أليس من الأفضل لي أن يظلوا خانعين كما هم هكذا؟ لكن كيف أذود عن مملكتي أطماع الإنجليز والفرنسيين والأتراك، بينما شعبي يقتات جهلا؟).

واصل الموكب طريقه نحو الأزبكية، فانحرف شمالا في اتجاه بولاق وسار بمحاذاة النيل بين صفين من أشجار التوت والجميز التي تحيط بالحقول الشاسعة حتى بلغ القصر الجديد الذي يشرف على النيل مباشرة بشبرا البلد، ومحمد علي مازال يسأل نفسه: (هل يمكن أن يتطور هؤلاء الناس؟).

28

مع أول نقطة نور في اليوم التالي، جلس الباشا بزيّه الرسمي على أريكته المفضلة أمام النافورة القريبة من المدخل الرئيس للقصر. يدخن غليونه بغضب مكتوم وينتظر وصول شركان الناغي الذي كان قد استدعاه على عجل. ألقى نظرة عامة على الحراس الذين انتشروا بملامحهم الجادة وملابسهم المميزة وسيوفهم وبنادقهم عند نقاط المراقبة في السور العالي للقصر وفي الحديقة المترامية الأطراف، تمنى للحظة لو يملك هؤلاء الحراس القدرة على اصطياد الأشباح الليلية التي تفسد عليه نومه. بدت حركة السحب نشطة في هذا الصباح، والقبة السماوية تستقبل أسراب الحمام والعصافير برحابة، بينما نذر المطر الوشيك تعلن عن نفسها بقوة. من المبنى الملحق بالقصر أقبل الناغي متدثرًا في ثياب شتوية فضفاضة، وقد اعتمر عمامة خضراء ضخمة، ممسكا في يمينه بعصا غليظة.

استرعت هيئته الجديدة انتباه الوالي، فتواترت في خاطره الأسئلة الغامضة: (من أنت أيها الساحر؟ وهل حقا ولدت في مراكش ولما بلغت سن الصبا وصلت إلى هنا راكبًا أمواج الرياح كما يقول أحباؤك وأتباعك؟ أم أنك ابن الصعيد بلا أهل ولا أصل، وأن معارفك بشؤون السحر وأسراره جاءتك عندما آخيت الجن في المعابد الفرعونية بالبر الغربي لسنوات طويلة كما يزعم آخرون؟ من أنت يا ناغي بالضبط؟)، وانحنى كبير السحرة أمام الباشا، وهمس بصوت واهن :

- شركان الناغي كبير السحرة تحت أمر سموكم .

خاطبه محمد علي بائسًا :

- مازال النوم عصيّ المنال يا ناغي، وها هي الأشباح تقتفي أثري وتطاردني حتى وصلت إلى قصري هنا بشبرا .

غمغم الرجل قائلا :

- إنها ضريبة مؤقتة يدفعها كل قائد منتصر، وسموكم سيد القادة الظافرين .

ثمل الحاكم بالمديح، فأردف الناغي بسرعة ليطمئنه :

- ولكن ثق يا وليّ النعم بأن أكباد الذئاب النيئة ستؤتي أكلها مع مرور الوقت بإذن الله !

لوى الباشا شفتيه تقززًا، وقرر إغلاق ملف الأشباح فورًا وسأله :

- هل لسحرك أن يخبرنا عن نتائج معارك ابننا طوسون في أرض الحجاز؟ وهل من نصر قريب؟

خفض الرجل رأسه، وقال بنبرة آسفة :

- لا ينطوي شهر نوفمبر عادة على أخبار سارة، ومع ذلك فالله قادر على كل شيء !

تأسف محمد علي ولاحت منه نظرة إلى السماء، فرأى تكدس الغيوم فوق قصره مباشرة، وأدرك أن المطر ضيف قريب جدا، فسأل فجأة :

- أين ولدتَ يا ناغي؟

همهم كبير السحرة بصوت غير واضح، ثم هتف وهو يرنو بشرود إلى أعلى :

- أنا ابن الزمان والمكان، أنا ابن السماء والأرض، أنا ابن الهواء والشمس... أنا ابن هنا وابن هناك ... أنا الحاضر والماضي والمستقبل .

ثم جفل فجأة واسترد وعيه بسرعة، وألقى نظرة عميقة على حمامة تقتات قريبًا من مجلس الباشا وقال بثقة أذهلت السامع :

- للأسف لن تتمكن هذه الحمامة من هضم ما تقتات به، إذ ستُقتل وتؤكل بعد ثلاث

ثوان .

تعجب الباشا، وازداد تعجبه وهو يلمح نسرًا بُنيا يمرق أمامه كالسهم ليقتنص الحمامة ويطير بها نحو السماء ثم يختفي في دوامات الأفق! انبهر الباشا بعلم الناغي وسحره وصدّقه وأمر بمنحه كيسًا من النقود. لكن عندما كان يستمتع بقيلولته في اليوم التالي، أيقظه بوغوص بك صائحًا :

- معذرة يا مولاي، فقد جاء البشير بالخبر السعيد... ابنكم الأمير طوسون باشا هزم الوهابيين ودخل مدينة رسول المسلمين فاتحًا مظفرًا .

29

خفق قلب آماليا من شدة التوتر حين رأته يجلس على سريرها بنظرته المتحدية الساخرة. لم تعرف كيف تسلل إلى خان الملذات ومتى؟ وتساءل باطنها برجاء أين عبدي هلال؟ لكن موسكات المالطي هبّ واقفا وطمأنها قائلا :

- لا تقلقي... لم يرني أحد .

لا أمان مع بقاء هذا الرجل حيًا، ولا أمل في اختفائه. ما أبشع أن تبرم صفقة مع مجرم. بعد أن استعادت هدوءها نسبيا سألته بحدة :

- ماذا تريد؟ ألم نتفق على أن تغادر القاهرة نهائيا، وتستقر في بلدك وتتزوج؟

- سيحدث عندما أحصل على ما يكفيني لعمل مشروع صغير في مالطة أو أثينا أو حتى باريس، أما الزواج فليس من

مشاريعي حاليًا .

لن يتوقف عن ابتزازه. يملك السلاح الفتاك والجسد العملاق. فلتعتصمي بالهدوء يا آماليا حتى تفكري في حيلة تخلصك من هذا الوغد. قالت بدلال مفتعل لا يليق بعمرها الخمسيني مرفوق بابتسامة مزيفة :

- ولكني أعطيتك الكثير يا موسكات !

بوقاحة أجاب على الفور :

- كله من ماله، فقد كان يملك الكثير والكثير والكثير أيضًا !

جفلت من إشارته الملغومة، وأدركت حجم البركان وخطره لو انفجر في غرفتها، تمنت لو يستيقظ العبد هلال ويطرق بابها في التو واللحظة، لكن الصمت المحيط جعلها تقول باقتضاب :

- حسنا… ماذا تريد؟

دار حولها، وجال بعينيه البنيتين في أرجاء الغرفة كمن يبحث عن شيء، ثم قال وهو يسدد بصره نحوها بتحد :

- لا أريد سوى مئة بورصة !

شهقت سيدة الدار وهتفت :

- هل أنت مجنون؟ هذا مبلغ يتجاوز إمكانياتي بكثير... ألا تعلم أن البورصة الواحدة تساوي 25 ألف بارة؟ !

عاد إلى الجلوس على السرير ولم يعلق، لكنه حدجها بنظرة باردة تخفي في أعماقها شررًا مستطيرًا، فارتبكت واستردت قوانين الحيلة الأنثوية، وهمست بدلال :

- يا عزيزي موسكات... هذا مبلغ ضخم جدا، ومع ذلك ثق بأنني سأوفر لك ما يكفيك لتأسيس مشروع ناجح لا في مالطة، وإنما في باريس نفسها !

غادر الرجل على وعد بلقاء في الظهيرة عند ميناء بولاق ليستلم المال المتفق عليه، لكن آماليا كانت قد اتخذت قرارها بحزم !

30

في الموعد المحدد، وتحت خيوط مائية تتنزل من السماء على شكل رذاذ خفيف، التقيا بجوار شجرة جميز معمّرة على شاطئ النيل عند ميناء بولاق، وقد نفحته ست بورصات فقط، وخمس ليرات فضية فرنسية، وهي تقول بسرعة اتقاءً لاحتجاجه وغضبه :

- عندما تزورني فجر الغد ستستلم بقية أموالك كاملة !

رمقها بنظرة حائرة، لكنه هز رأسه موافقا، وقال :

- في تمام الرابعة فجرًا سأطرق باب خان الملذات !

ثم أطلق ضحكة مدوية أرعبت الطيور الساكنة في شجرة الجميز، ففرت هائمة في الفضاء الملبد بالغيوم .

31

هل صار القتل للقضاء على الخصوم عادة يا آماليا؟ ألا يخفق قلبك بالذعر؟ صحيح أن أسبوعًا أو أكثر قد مرّ على التخلص من موسكات، ولم يعرف أحد خبرًا عنه، إلا أن الخطر مازال يحوم فوق الخان؟ ثم من يضمن لي أن العبد هلال سيحفظ السر؟ حقا.. لا أدري ماذا كنت سأفعل لو لم يكن هلال من أملاكي وعشاقي؟ إنه ينتظر المكافأة، ويلحّ بالنظرات الشبقة الملتاعة، لكني طلبت منه أن يمهلني قليلا حتى تهدأ أعصابي بعدما تخلصنا من موسكات الكلب . واليوم زارني طيف أندرياس في الحلم عاري الصدر مرتديًا سروالا أسود وقد استرد شبابه الأخضر، وقف أمام باب الخان ورفض الدخول رغم إلحاحي، ثم مضى يعبّ الخمر وهو يضحك قائلا:

(موسكات سيقوم من بين الأموات ويطلب عفو الباشا محمد علي، لكني لن أغفر لك، ثم اختفى في ضباب الفجر)!

32

غرس عصفور بذوره الذكورية بقوة في بستان الجسد الشهي لعروسه الجميلة، وأخذ يمتص رحيقها بشغف ولهفة كل ليلة، فرقيّة ذات وجه خمري مدوّر جميل وقوامها يفيض حيوية وأنوثة، وإن كانت تعتريها نوبات كآبة غامضة بين الحين والآخر. ومع ذلك، لم يفرح بها سوى شهر واحد فقط، إذ سرعان ما بدأ الغضب يعتري رقيّة لأقل سبب، فمضت تنفر من تدليله وتنزعج من ملامساته وتمتنع عن اللقاءات الساخنة، قالت له بوضوح وعزيمة :

- أمك تدمر حياتنا بتدخلاتها التي لا تنتهي .

وشكت أمه مرة من سلوك زوجته البليد وصاحت :

- ألم تتعلم رقيّة واجبات الزوجة في بيت أبيها؟ كيف تتركك دون أن تعد لك طعام العشاء؟

ثم وبخته قائلة :

- هل أنت رجل حقا؟

وجد العريس نفسه في مأزق كبير، ما أسوأ أن تكون حكمًا بين امرأتين، وإذا كان قد ارتشف حنان الأم حتى الثمالة، فقد عرف الطريق أيضا إلى تقبيل الشفاه المكتنزة والتمتع باللذة السحرية الدافئة والنوم العميق الهانئ في حضن الزوجة، كما ابتهج بالابتسام والحنان ومداعبات منتصف الليل مع أنثاه المتدفقة، وها هو يتلقى العبوس والعصيان والهجر . صاحت رقيّة في وجهه مرة ساخطة :

- أمك تتنصت علينا، واليوم زجرتنيِ قائلة: (ألا تستحين؟ لقد شحُب الفتى وذَبُلت عافيته. ارحمي عصفور من هياجك اليومي؟)!

تذكر على الفور نصيحة شقيقها محروس النجار في ليلة زفافه: (أختي صغيرة

ومدللة، فلا تشغل بالك بحديثها إذا تجاوزت الحدود)، فرمقها بيأس ولم يعلق .

33

ذات مساء ربيعي خرج عصفور حانقا بعد أن أخفق في فضّ اشتباك حاد انطلق فجأة بين أمه وزوجته، فسار واجمًا يائسًا مهموم الخاطر لا يعبأ بباعة الشمام ولا بباعة الترمس المنتشرين على مدخل درب الجماميز، ولا بعبث الصبية الحفاة ومشاغباتهم تحت ضوء القمر. قادته قدماه نحو مقهى المعلم فجلة، فاستقبله عويس الفرارجي بترحاب، وهتف ممازحًا :

- أخيرًا... تذكرت أن لك صديقا يهفو إلى صحبتك .

ردّ على تحيته ببرود، فلاحظ عويس الوجوم الذي يغشى روح صديقه، وما إن سأله عن أحواله حتى باح عصفور بمواجعه، وعلى الفور هتف عويس قائلا :

- ماذا؟ كيف لا تمنحك زوجتك حقوقك الشرعية؟ اضربها يا عصفور... اضربها...

الزوجة إن لم تتعلم الأدب بالحسنى تتعلمه بالضرب. الزوجة التي تمتنع وترفض المثول تحت جناح زوجها تستحق الضرب... هكذا علمنا ديننا الإسلامي الحنيف .

ثم أضاف مذكرًا :

- هل نسيت القرآن الكريم الذي حفظناه في الأزهر؟ لقد قال الله عز وجل في كتابه العزيز: (واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيرا... صدق الله العظيم)، اضربها يا عصفور ولا تتردد !

ثم طلب له الخروب المثلج، ومسح عرقه بكم جلبابه وصاح :

- والله أنت طيب يا عصفور... المرأة إذا لم تشكمها نفرت مثل البهيمة الشاردة !

34

بدلا من العودة إلى البيت، توجه الزوج التعيس نحو الأزبكية، حيث الحي الإفرنجي وخمارة أندرياس وهيلين الساحرة. لكنه فوجئ بمبروكة بائعة الخضروات تعترض طريقه عند جامع البنات. لم يتعرف عليها أول الأمر من حلكة الظلام، لكن صوتها المميز فضحها. كانت تبحث عن زبون، لقد هجرت التعامل مع البامية والملوخية والطماطم والخيار، واحترفت أقدم مهنة في التاريخ. لم يتخيل عصفور أن غزواته الجنسية الأولى ستحوّل بائعة الخضروات إلى بائعة هوى. لم يكن قد رآها منذ زمن، ومع ذلك وافق دون تردد وتحت ضغط التوتر العصبي الجنسي إلى إحياء تجربته معها. في هذه المرة تولت هي القيادة، إذ اصطحبته إلى خرابة قريبة من منطقة الرويعي، ودخلت معه كوخا صغيرًا بلا نوافذ أو أبواب بُنيَ على عجل من الطين، وهمست له ضاحكة: (هذه تكعيبة صاحبتي في الكار).

وبعد أن قضى وطره شعر أنه لم يكن سعيدًا بالمضاجعة كما في الأيام الخوالي، وأن مبروكة فقدت إحساسها الطازج برعشة الملامسة وحلاوتها. ولما مدّت راحتها طالبة الثمن، جفل عصفور، فهذه هي المرة الأولى التي يدفع فيها لقاء اللذة المسروقة، فمنحها معظم ما في حوزته بقلب راض وقال لنفسه مؤنبًا: (لقد جنيت عليك يا مبروكة، فسامحيني).

ومن عجب أنه واصل طريقه نحو الأزبكية، وكأن لقاءه بمبروكة لم يكن، حيث اكتشف عصفور أن طيف الفتاة اليونانية يغزو خياله بقوة كلما نفرت رقيّة وتمردت وتركت وجهها المدوّر الجميل فريسة للاكتئاب والهموم وانشغلت بالمكائد ومكر النساء. تساءل هل تعرف الزوجة أنها تدفع زوجها دفعًا إلى التفكير في غيرها إذا رفضت معاشرته؟ وهل تعلم رقيّة أنه سيلجأ إلى هيلين بحثا عن كلمة طيبة حتى لو أصرت ابنة اليونان على وصفه بالأخ الكريم؟ وهل يخطر في بال المرأة أنها بهجرها فراش

الزوجية تعاقب زوجها أشد العقاب وتدمره نفسيًا؟ ألا تعي أنها بذلك تزرع صبّار الكراهية في صدره؟ ألا تتخيل أن الغضب الذي يتملكه حين لا يرتوي جنسيًا يمكن أن يشتعل حقدًا أسود فينقلب ضدها، ويضربها بقسوة لأنها تحرمه عن عمد من فواكه جسدها؟ وتمادى في السؤال والسخط، فقال هل المرأة كائن غبي لا يدرك أهميته اللامتناهية بالنسبة للرجل؟ وإذا كانت المرأة غبية، فماذا يفعل معها الرجل؟ هل يضربها كما يقول عويس لترضخ وتلين؟ لكن المرأة خلقت من ضلع آدم، أي أنها جزء أصيل منه، فكيف يكون الغباء حليفها، والذكاء من نصيب الرجل فقط؟ إنهما كائن واحد شطره الله لسبب غير معلوم، ثم إن الضرب قد يؤذي نفسها فتكرهه، فتتفاقم المشكلة وتتعقد بعكس المرجو. تفرعت من الأسئلة عن الرجل والمرأة والزواج والجنس أسئلة أخرى مربكة عن الحياة والموت والخير والعدل والظلم والهدف من الوجود. تذكر أن أباه مات ظلمًا في سجن القلعة قبل أكثر من

عامين، فانقبض فؤاده، وانتابته أفكار عجيبة مفادها أن هناك خللا جوهريا في أصل الحياة وعلاقات البشر لا يمكن إصلاحه، وتساءل باضطراب روحي عنيف لماذا أوجد الله هذا الخلل؟

وعند مدخل الخمارة التقى الخواجة شارل، فصافحه بأدب، لكن الفنان الفرنسي جذبه للداخل، وأزاح عن كاهله أسئلته القلقة حين ألقى في وجهه القنبلة :

- عصفور ... أنت أول مدعو لحفل زواجي من هيلين الأحد المقبل !

35

انزعجت ياقوتة بشدة حين تربعت على عرش الدار سيدة أخرى، بكت بمفردها كثيرًا كل ليلة طوال شهر كامل من الزواج السعيد، وكم تألمت عندما كانت ترى الخواجة شارل يصطحب زوجته إلى غرفة النوم بعد سهرة طويلة ويغلق الباب خلفه لينعما بالحب. وللمرة الأولى تكره بشرتها السمراء، مضت تؤكد لنفسها أن محبوبها الفرنسي اقترن بهيلين لأنها بيضاء مثله. وقررت غير مرة أن تهجر الدار وتختفي من حياته إلى الأبد، مرددة أن لا أمان لرجل، وأن كل الرجال مثل الكلاب لا ينشغلون سوى بالمضاجعة فقط، ولا يعرفون شيئا عن شؤون الحب ولواعج القلب، ثم حاولت إطفاء نيرانها بالتأكيد على أنها يجب ألا تنسى أبدًا أنها مجرد جارية، والحب كلمة غير موجودة في قاموس الجواري والإماء، وأن من حق سيدها أن يستمتع بها وقتما يشاء، ويهجرها متى أراد، فلا تثريب عليه إن أحب وضاجع أو زهد وهجر. وأن عليها

الرضوخ لرغبات السيد، وإن لم تستطع صبرًا، فلترحل سرا أو علانية، ثم واتتها فكرة مجنونة وهي أن تدس السم في طعام هيلين لتتخلص منها نهائيا، لكنها خشيت من أمرين: الأول أن يحدث خطأ غير قابل للإصلاح فيتناول الطعام المسموم حبيب القلب نفسه، أو أن تموت هيلين، فيحزن عليها شارل جدا، فيزهد في النساء بعدها؟ وهكذا أزاحت عن ذهنها فكرة تسميم المرأة الدخيلة، وتحت ضغط التوتر النفسي الشديد قررت ذات مساء أن تغادر في الفجر بلا عودة، لكنها لم تستطع، واعترفت أمام نفسها أنها تحبه بجنون، وأن عليها أن تلوذ بالصبر لعلها تفوز به مرة وترتمي في حضنه ذات مساء فتشربه وتمتصه امتصاصا .

36

- لم أكن أتخيل لحظة أنني سأحب بجنون وأذوب من العشق هنا في القاهرة؟

هكذا قالت هيلين وهي تتكوم بسعادة في حضن زوجها، بينما طوقها شارل بذراعه بحنان وهمس وهو يداعب حلمة نهدها بسبابته :

- القاهرة مدينة ساحرة تفجّر طاقات الغرام في قلب من يدرك جمالها الباذخ ويتكشف أسرارها الفاتنة .

لثمت ظهر راحته برقة وهمست :

- ألهذه الدرجة أنت عاشق للقاهرة؟

أزاح الغطاء جانبًا، وهب واقفا بنشاط ومضى يرتدي ملابسه وهتف :

- حبي للقاهرة لا يعادله سوى غرامي بباريس .

تأملت جسده العاري بنظرة افتتان، قالت وهي تحدق في الشعيرات البيضاء المنثورة في غابة الشعر الأصفر التي تغطي صدره العريض :

- صحيح الطقس هنا ساحر والنيل بديع والاخضرار في كل مكان، لكن عليك الاعتراف بأن أهلها ليسوا على ما يرام !

ابتسم شارل ورفع سبابته نافيًا بحسم :

- لا... لا... لا... أهل مصر طيبون وأذكياء جدا، وإذا كان ثمة بعض الكسالى والمنحرفين والطماعين، فهؤلاء قلة لا تفسد المعدن النقي للغالبية .

استفزها دفاعه، ومن باب مشاكسته والاستزادة من آرائه صاحت :

- كيف يكون الناس أذكياء وهم جهلة أميون لا يعرفون القراءة والكتابة؟

ضبط هندامه وهو يشرح بهدوء قائلا :

- الجهل هنا مقصود، مفتعل، متعمّد، جريمة بفعل فاعل، جريمة يرتكبها حكام هذا البلد منذ مئات السنين، حتى يظلوا قادرين على إخضاع الناس وإذلالهم ونهب خيراتهم. إن المصريين يا حبيبتي هيلين قوم مسالمون، لا ينزعون إلى العنف، تغمر قلوبهم الرحمة، وأظن أن هذه الخصال الطيبة تجذرت في صدورهم منذ آلاف السنين. إنهم أول من بنى حضارة مهيبة على وجه الأرض مازالت آثارها شاهدة على فرادتها وعظمتها، وقد عاشرتهم منذ سنة 1796 ، أي منذ سبعة عشر عامًا، كما اقتربت منهم كثيرًا وأيقـ...

ثم سكت فجأة حين مرت فوق جفونه غمامة حزن. تذكَّر أيوب السبع، الشاب المصري الذي قتلته شرطة الوالي، فانتابته نوبة أسى دفعت زوجته إلى التوجه نحوه متسائلة :

- ما بك يا حبيبي؟

ضمها إلى صدره برفق وقال بنبرة حزينة :

- أبدًا... تذكرت شخصًا عزيزًا رحل قبل ثمانية أعوام .

- هل كان مصريًا؟

ردّ بسرعة :

- أنبل أبناء مصر وأذكاهم... لكنهم قتلوه !

وأخذ يقصّ عليها حكاية أيوب السبع ورفاقه !

37

في مساء تلك الليلة فوجئ الخواجة شارل بالنبوي سرحان يطلب منه أن يطلع على ما كتبه المفكر الفرنسي جان جاك روسو، فأطلق الرسام ضحكة عالية وتساءل متعجبًا :

- من أين عرفت جان جاك روسو؟

فأجب الشاب بحماسة :

- قالت لي سعدية إن زوجها المرحوم أيوب السبع كان يتحدث عنه وعن أفكاره كثيرا، وأطلعتني على الكراسة التي كان أيوب يدوّن فيها بعض آراء وأفكار جان جاك روسو التي تلقاها على يديك .

لقد انقضى أكثر من أربعة أشهر على انطلاق دروس تعليم اللغة الفرنسية، وقد أثبت النبوي نبوغًا واضحًا في التعلُّم، حتى أن شارل قال له مرة متعجبًا :

- برافو عليك يا نبوي، ولكن من أين تأتي

بالوقت لتقرأ وتحفظ وتفهم بهذه السرعة؟

واليوم تأخر النبوي عن موعده المعتاد للمرة الأولى، ولما وصل صاح معتذرًا :

- الاحتفالات تعم مصر كلها منذ الصباح بعد وصول خبر فتح جيش الأمير طوسون باشا مكة المكرمة وهزيمة الوهابيين هناك، كما أن المطر الذي انهمر فجأة منذ ساعتين أغرق الحواري والأزقة عند الأزهر والجمالية والمشهد الحسيني، حتى غاصت أقدام الجموع في الوحل .

كان يتحدث لاهثا، ثم أضاف :

- معذرة على التأخير يا خواجة، فلم أكن أتخيل أنني سأقطع المسافة من الوكالة الجديدة بالغورية حتى هنا في أكثر من نصف ساعة !

- وكيف أحوال الناس بعد وصول خبر النصر؟

- بصراحة الناس غير سعيدة، فالغلاء المتزايد يفسد أي فرحة، ورغم أن رجال الوالي أمروا التجار الكبار بتعليق الزينات في الدروب والحواري والأزقة وعلى واجهات الدكاكين، لتأكيد فرحة النصر، إلا أن الفرحة مشوبة بمرارة كبيرة بسبب شح النقود وضيق ذات اليد !

انزعج شارل وسرح بعينيه وقال كمن يحدث نفسه :

- إن الباشا يبحث عن المجد في الخارج، ونسي أو تناسى أن إقامة العدل بين الناس هي التي تحقق له المجد المأمول .

ومضى يشرح له أهم أفكار جان جاك روسو حول أسلوب الحكم الديمقراطي وحقوق المواطنين وواجباتهم الواردة في كتابه (العقد الاجتماعي)، وكيف أن المواطن له كامل الحرية والحق في الحياة والعيش وصون حرماته وممتلكاته وإبداء آرائه وأفكاره... كل ذلك بما لا يخلّ بالقانون

أو بأمن المجتمع الذي هو نفسه أحد أفراده، كما يؤكد روسو على مبدأ الفصل بين السلطات الذي نادى به من قبله المفكر الفرنسي مونتسكيو، فأنصت النبوي بتركيز شديد حتى تشبعت روحه بهذه الأفكار الجديدة عليه تمامًا .

38

تابعت هيلين الدرس باهتمام بالغ. بُهرت من حجم ثقافة زوجها. تأملته وهو يوضح... يعلّم... يفسّر. أذهلتها قدرته على الشرح وتحليل أعقد القضايا... أدهشتها معلوماته ومهاراته وأسلوبه في الطرح، وبعد انصراف النبوي سرحان، هرعت نحوه واحتضنته وقبلته وهي تهتف :

- أنت عبقري يا حبيبي... ليتك تعلم الطلاب في جامعة السوربون بباريس !

فبدلت هذه العبارة حياة الخواجة شارل تبديلا .

39

عند انتقاله من جناحه الخاص إلى مقر الحكم بالقلعة، عرج محمد علي باشا فجأة على ساحة التدريب الملحقة بمخازن السلاح، وشاهد بنفسه كبير الحراس شوكت أفندي وهو يقف بين الجنود والعسكر يتابع الأنشطة والتدريبات على فنون القتال والاشتباك والحراسة، واطمأن الوالي على حسن الأداء واليقظة والاستعداد، وتأمل باهتمام إجراءات التفتيش على سلامة السلاح ونظافته، ولم يترك الساحة حتى طلب منه شوكت أفندي الإذن بأن يتوجه وجنوده إلى أرض الرماية للتدريب على استعمال السلاح الحي والتنشين بالبنادق والطبنجات فأذن له .

ورغم سخونة الجو في هذا النهار، ورغم هبوب رياح الخماسين، إلا أن محمد علي باشا أصر على زيارة موقع العمل في قصر الجوهرة والوقوف على آخر ما تم إنجازه.

لقد بدا والي مصر في تلك اللحظة معتدًّا بنفسه، وهو محاط بابنه البكر إبراهيم باشا وبوغوص بك وشركان الناغي وبقية رجال الحاشية. النشاط يدب في الموقع. الحركة سريعة وحماسية. العمال المصريون يحملون الأحجار ومقاطف الرمال. المهندسون الأجانب يوجهون ويتابعون. الشمس ساخطة والعرق يسيل من الجباه والأبدان. رفع أحد الحراس مظلة لتحمي الباشا من الأشعة الحارقة لشمس مايو، بينما يدير الوالي حوارًا مطولا مع المهندسين الأجانب الذين يشيدون القصر، مؤكدًا لهم ضرورة أن يتحلى القصر بكل ما هو باذخ وجميل ونادر، وصاح مخاطبًا بوغوص بك :

- وفّر لهم كل ما يطلبونه من أموال يا ناظر المالية... إنه قصر زوجتنا أمينة هانم .

ثم التفت إلى كبير السحرة وسأله بصوت خفيض :

- ما رأيك يا ناغي، لقد أخذت بمشورتك وقررت تشييد القصر في هذا المكان لأنه أكثر بقعة تتلقى النسائم المبللة بالروائح الطاردة للأشباح كما أخبرتني .

فقال كبير السحرة وهو يرنو إلى موقع القصر :

- في خدمتكم يا وليّ النعم .

وكم انتشى صدره عندما أخبره المهندسون الأجانب أنهم صمموا قاعة العرش بحيث يستطيع من خلالها إلقاء النظر على القاهرة وأهرامات الجيزة في مشهد فاتن، وقال أحدهم مدغدغا أعطافه بالمديح :

- إن مصر كلها في مرمى بصرك يا باشا، فسموكم الوالي المظفر فخر السلطنة العثمانية .

40

لما عاد الوالي إلى مقر الحكم، اصطحب معه بوغوص بك فقط، واتخذ مجلسه المعتاد وطلب إحضار الماء البارد وإعداد الشيشة، لكن بوغوص استأذنه أن يمر على مكتبه سريعًا للاطلاع على البريد الوافد علّ شيئا مهما ينتظره، وبالفعل عاد إلى الباشا بسرعة وهو يحمل مظروفا مختومًا من السلطان العثماني كتب عليه «يرسل مع مخصوص»، ففضّه الوالي في الحال، وقرأ الباشا بعينيه فقط: (زئير الطلقات من أتباع ابن عبدالوهاب يزعجني كثيرًا هنا في إسطنبول يا محمد ... أما من نهاية قريبة لهذه العصابة؟)، فاغتمّ وأغلق الخطاب، وتصنع اللامبالاة أمام ناظره، لكنه سحب نفسًا عميقا من الشيشة ونفثه بغيظ مكتوم، في الوقت الذي اقتحمت فيه قطته السيبيرية مقر الحكم وهرعت نحوه، فحملها بحنان بالغ ومسح على ظهرها، شرد قليلا واستسلم لتيار من الأسئلة التي غزت رأسه فجأة (هل كان من

الصواب أن أقضي على المماليك؟ ألم يكونوا مقاتلين شجعانا مدربين؟ ألم أكن أستطيع الاستفادة منهم في محاربة أتباع ابن عبد الوهاب؟ لكنهم كانوا غدارين يطالبون بالسلطة ويحاربونني من أجل الاستيلاء عليها؟ أجل... لم يكن ثمة مفرّ من حصد أرواح هؤلاء المجرمين) وأفاق على سؤال من بوغوص بك :

- هل تأمر بشيء سموكم؟

رمقه بصمت، ثم نهض فجأة وتوجه نحو النافذة فتبعه بوغوص بك، قال بأداء حالم وهو يرنو إلى جبل المقطم :

- بعد أن ينتهوا من بناء قصر الجوهرة سأطلب منهم أن يفكروا في ابتكار أسلوب يقهرون به قساوة جبل المقطم، فيزرعونه بالأشجار والورود !

- ستطلب ممن يا سيدي؟

ضحك الوالي وهتف :

- من أصدقائنا الفرنسيين طبعًا... أم أنك تظن أن المصريين قادرون على زراعة الجبل؟

قال الرجل بصوت خفيض :

- المصريون فلاحون منذ الأزل يا وليّ النعم... إنهم مزارعون بالفطرة، والنيل منحهم القدرة على استيعاب أساليب الزراعة وفنونها !

قهقه الوالي وهتف :

- المصريون يزرعون الأرض الصالحة للزراعة أصلا، وباستخدام مياه كثيرة جدا إلى حد الإسراف... لكن أن يفكروا في ابتكار طريقة تقتصد في المياه أو يقضون بها على خشونة الجبل ويزرعونه، فمن المستحيل... إنهم كسالى يا عزيزي .

وأغلق باب النقاش بإشارة من يده. قال

بوغوص لنفسه لا يمكن أن تفند آراء الحاكم المسلم إذا لم تعجبك. فدائمًا أبدًا ينهي الحديث وقتما يشاء وكيف يشاء، بحيث تصبح الكلمة الأخيرة له، والرأي السديد من نصيبه، عاد محمد علي باشا إلى مجلسه المعتاد ومضى يدخّن الشيشة وقال لناظره وهو يتفحصه بخبث ليرى ردة الفعل :

- لقد قررت السفر بنفسي إلى أرض الحجاز على رأس جيش جرار !

اندهش الرجل وتساءل :

- ألم ينتصر ابنكم طوسون باشا ووفقه الرب في فتح مكة في يناير الماضي، كما فتح المدينة قبلها بشهرين؟ فلم السفر إذن؟

شرد الباشا قليلا وجذب نفسًا عميقا وقال وهو ينظر إلى صورته الضخمة التي رسمها الخواجة شارل وأمر بأن تتزين بها

قاعة العرش :

- صحيح أن ابننا طوسون طرد الوهابيين من مكة والمدينة وتمكن من الاستحواذ على المدينتين المقدستين، لكن أبناء عبد الوهاب منتشرون في صحراء شبه الجزيرة، وحتمًا سيعاودون تجميع شتاتهم وتنظيم أنفسهم ليستردوا المدينتين المقدستين ويعلنوا الانفصال عن الخليفة العثماني... إن السيطرة على هاتين المدينتين تعني أرباحًا خيالية يا بوغوص. إن مئات الآلاف من الحجاج يتوافدون عليهما طوال العام فينفقون ويدفعون الإتاوات للوهابيين .

المجد هوسك الدائم يا وليّ النعم. تنظر إلى التاريخ بشراهة. تطلب منه التوقف هنا ليكتب اسمك بجوار الخالدين. قال بوغوص بتردد :

- ولكن... ألن تكلفنا حملتكم الكثير من الأموال؟

- وليكن... افرض المزيد من الضرائب... دع شيوخ الأزهر يعلنوا للناس أن الإسلام في خطر... أن مدينة الرسول في خطر... أن نبي الله يدعونا إلى نصرته... افعل ذلك وستجد الناس يسارعون في التبرع .

- ولكن أغلب الناس لا يملكون أي فائض ليتبرعوا به !

ترك لاي الشيشة جانبًا، ورمق ناظره بنظرة حادة ماكرة وصاح :

- فليعلم الجميع، إن من يرفض الدفع لتمويل حملتنا المباركة إلى الحجاز، فإن عقابي له شديد في الدنيا، وحسابه أشد في الآخرة، ومن لم يرتدع بالقرآن يرتدع بالسلطان !

وبعد دقائق انطلقت الحناجر فوق مآذن القاهرة تعظ الناس بأن حب الله ورسوله الكريم لابد أن يزيد عن حب أولادهم وإلا خرجوا من ملة الإسلام والعياذ بالله، وعليه

يلزم التبرع بقوت أولادهم ليؤكدوا ذلك وعليهم ألا يخافوا جوعَ أو موتَ أولادهم فاللّه يطعمهم ويسقيهم .

41

مع حلول المساء، تراجعت سخونة الجو، وتعطر الليل بنسمة حلوة طرية، فتوجه الوالي نحو جناح زوجته أمينة هانم مغمورًا برغبة جارفة في الاندماج تسري في أوردته وشرايينه. كانت تجلس على السرير شاردة، يعلو جبينها العبوس، بينما تتولى إحدى الخادمات تدليك ساقيها وقدميها وتدهنهما بمرهم ذي رائحة لطيفة، وما إن رأت الخادمة الوالي مقبلا حتى انصرفت من تلقاء نفسها. اقترب الباشا من زوجته وجلس بجوارها حتى لفحتها أنفاسه المشبعة برائحة الدخان. عاين قسماتها بتركيز فلمح غمامة الكدر تسطو على وجهها فتساءل بتودد :

- ما بك يا زوجتي الحبيبة؟

لم تعلق ولوت عنقها وسعّرت خدّها بعيدًا عنه بعد أن رمته بنظرة غضب مختلطة بعتاب ضمني. لم يفهم الوالي سر هذا

النفور القاسي، فدنا منها أكثر حتى مس جسدها فتململت، فقال بنبرة إغراء :

- لقد أتيت أبشرك بما تم إنجازه في قصرك الجوهرة، لم يتبق سوى أشهر قليلة وينتهي بناؤه وفرشه لتنتقلي إليه معززة مكرمة .

لم ترد، وأدارت وجهها في الاتجاه الآخر، فطوقها بذراعه، وقد نفد صبره، وهمس في أذنها :

- ماذا جرى يا أمينة؟

التفتت نحوه وصاحت بغضب :

- ألم تشبع من الجواري والإماء بعد يا محمد؟ مَنْ نايلة قادين هذه التي استحوذت عليك طوال الليالي الماضية؟

هناك من يفشي أسراري في قصري؟ لن أرحمه. حاول أن يلثم خدها فتراجعت قليلا رافضة قبلته، فقال بهدوء :

- لا يوجد في القلب سواك يا حبيبتي، وقد أشار عليّ كبير السحرة شركان الناغي بضرورة الدخول بهذه الجارية تحديدًا حتى يتحقق لنا النصر المبين على الوهابيين .

التفتت وهتفت ساخرة، بينما تسوي براحتها اليمنى شعرها المصبوغ بالحناء :

- لم أكن أعرف أن مضاجعة الجواري لها علاقة بالانتصارات العسكرية، فلنشكر كبير السحرة إذن على نصائحه الغالية !

عاجلها سريعًا بالجواب الحاسم :

- لا تنسي يا حبيبتي أن ديننا الإسلامي العظيم يسمح لي بامتلاك ما أشاء من الجواري والإماء. إنهن ملك يميني كما جاء في القرآن الكريم !

ردت على الفور بنبرة ساخطة :

- هذا أسوأ ما تنسبونه إلى الإسلام، ثم تسيئون استخدامه أنتم معشر الرجال... لا

أعرف كيف يوافق فقهاؤكم على جرح مشاعر الزوجة بأن يسمحوا لزوجها بمضاجعة العشرات من الجواري والإماء .

- استغفري الله يا زوجتي ... هذا دينه العظيم وله في ذلك حكمة نجهلها نحن عباده المؤمنين .

فغمغمت بصوت خفيض :

- أستغفرك يا ربي وأتوب إليك .

قالتها بورع حقيقي، لكن مشاعرها الأنثوية لم تطق الامتثال للأوامر السماوية، فقالت بحزم :

- ولكن لن تقربني الليلة ولا أي ليلة إلا إذا وعدتني بأن تهجر هذه الجارية القبيحة تحديدًا لمدة شهرين على الأقل .

انشرح صدره لأنها لانت واستكانت، وأقسم لها بأغلظ الأيمان أنه لن يمر على سريرها لمدة عام وليس شهرين. وبعد

أسبوع أذابت نيران الشهوة القسم المقدس لوليّ النعم فتسلل إلى مخدع الجارية نايلة قادين ليلا بعد أن أمر بإطفاء مصابيح الممر المؤدي إليه !

42

- ما أجمل منظر النيل في هذا الوقت ومن هذه الزاوية .

هكذا قالت زوجة بوغوص بك وهما جالسان على قطعة حجر أمام الشاطئ عند منيل الروضة. لقد دعته إلى الخروج في نزهة عندما شعرت أنه سيئ المزاج، وأنه شارد البال منذ فترة، ولأنها تعرف جيدًا كيف أن زوجها يعشق النيل، فقد استغلت فرصة عودته مبكرًا من عمله، وقررت اصطحابه إلى المنيل .

كعادتها عند الخروج ارتدت فستانا فضفاضًا أبيض اللون يصل حتى قدميها وتحته سروال أسود، وقد صففت شعرها البني الفاتح على هيئة ذيل حصان، بينما حشر بوغوص بك جسده النحيل في سروال رمادي فوقه معطف أسود وشد على وسطه حزامًا من الحرير الدمشقي، وقد اعتمر عمامة كبيرة بيضاء. امتطت الفرس

خلفه بمساعدته، وغادرا دارهما قبل أذان المغرب بساعة. النسمة لطيفة وشمس يونيو رحيمة بشكل لا يصدق .

عبرا دروب الحي الإفرنجي وتوجها نحو بولاق فسارا بمحاذاة النيل بين مجموعات من أهالي القاهرة التي خرجت للتفريج عن أنفسها بعد عدة أيام كابد خلالها الناس قيظا شديدًا. لاحظ بوغوص أن الهم مطبوع في قسمات الوجوه، فتأسى على أحوالهم ولم يعلق. عند منيل الروضة ترجل الزوجان وربط بوغوص الفرس في جذع شجرة طلح. جلسا صامتين لفترة، ولما أبدت إعجابها بمنظر النيل قال :

- معك حق... النيل هو أجمل شيء في هذا البلد الحزين .

- حزين؟ لماذا؟

تنهد الرجل وقال بصوت خفيض :

- الناس منهكة ومرهقة، والوالي يوبخني كل يوم لأنني لم أستطع أن أوفر له حتى الآن المال اللازم للإنفاق على حملته إلى أرض الحجاز. رغم أننا فرضنا ضرائب باهظة على التجار والحرفيين، فارتفعت الأسعار وجأر الناس بالشكوى، ومع ذلك يطالب الباشا بالمزيد !

- وكم ستتكلف الحملة؟

زمّ بوغوص شفتيه وقال يائسًا :

- الكثير والكثير من الأموال ... لكن قصر الجوهرة الذي يشيده لزوجته ينهب أي أموال نجمعها باستمرار لأنه ينفق عليه بسخاء، أما بشأن الحملة فإنه ينوي أن يصطحب ألفي رجل من سلاح المشاة سيغادرون معه عبر البحر في عدة سفن، فضلا عن ألف فارس وثمانية آلاف جمل سيسلكون الطريق البري. وتجهيز هذا العدد الضخم من الجنود والدواب بالعدة والعتاد يحتاج مئات الآلاف من البورصات .

وضعت راحتها فوق كفه وهمست :

- أخيرًا عرفت سر شرودك في الأيام الماضية .

ثم بنبرة حميمية :

- لا تقلق يا زوجي الحبيب... الرب سيدبرها بمعرفته، فربما يطلب منك الوالي فرض ضرائب جديدة لتغطية التكاليف التي ينوي إنفاقها على قصره وحملته .

- ولكن فرض ضرائب جديدة له مخاطر عديدة على استقرار البلد. ألم تشعري ونحن قادمان أن الناس باتت مهمومة بشكل دائم، وأن ضحكات المصريين التي كنا نسمع صهيلها على الشاطئ قد ذبلت وانطفأت !

غضت طرفها وقالت بأسى :

- معك حق... الغلاء ينمو سريعًا، وكم سمعت بأذني دعاء الناس على الوالي !

لكزها في كتفها وقال بحدة :

- اخفضي صوتك... نحن في الشارع !

تعجبت وتساءلت :

- أنت ناظر ماليته المخلص !

- حتى لو كنت ابنه... فالوالي لا يحتمل أي نقد، ولا يرحم أي معترض !

وقطع بائع ترمس الحوار الهامس بصوته الجهوري !

43

لم ينم بوغوص بك في تلك الليلة، ولا زوجته، اعتراهما قلق أغبر، حاول هو تبديده بالتوجه نحو مكتبته بالطابق الأرضي، مضى يطالع بعض الكتب الفرنسية التي تتناول تاريخ الحملات الصليبية على الشرق، وكيف تعامل معها المصريون وصلاح الدين الأيوبي، أما زوجته فظلت تتقلب على فراشها الساخن فترة غير قادرة على اصطياد النوم، ثم هبت واقفة وذهبت نحو زوجها، جلست بجواره على الأريكة المكسوة بسجادة فارسية جميلة، وبادرته سائلة :

- كم سيتكلف قصر الجوهرة؟

ابتسم الرجل قائلا لنفسه (لا يشغل النساء إلا أمور النساء) ثم أجابها :

- لا أدري بالضبط، لكننا أنفقنا عليه حتى الآن مئات الآلاف من البورصات، ومازال

المهندسون والمقاولون يطالبون بالمزيد .

غمغمت بصوت أنثوي تفوح منه رائحة الغيرة :

- محظوظة أمينة هانم... ستنعم بالترف داخل قصر باذخ !

فعاتبها بعينيه موضحًا :

- ومن يدريك؟ أليس من الجائز أنها تكابد أوجاعًا نفسية الآن بسبب هوس الوالي بالنساء والجواري؟

فغرت فاها وهتفت :

- صحيح... كم بحوزته حاليًا من الجواري والإماء؟

- لا أعلم، لكن لن يقل العدد عن عشرين فيما أظن !

تفكرت قليلا، وقالت وهي تقترب أكثر من

زوجها حتى التصقت به :

- بصراحة... لا أعرف كيف يمكن لرجل أن يعاشر امرأة مختلفة كل ليلة... أظن أن هناك مشكلة لدى الرجال في فهم تعاليم الإسلام، لأني أرى أن الأديان كلها، بما فيها الإسلام، تدعو إلى المحبة والرحمة والمودة، وبالتالي لا تقبل بجرح مشاعر الزوجة !

حذرها بسبابته وقال ناصحًا :

- لا دخل لنا بأديان الآخرين، ولنحمد الرب على ديننا المسيحي !

ثم من باب مشاكستها وإغاظتها سألها :

- وهل تعتقدين أن الرجل المسيحي متعفف دومًا ولا ينظر إلى امرأة أخرى غير زوجته؟

جفلت من عبارته وتساءلت غاضبة :

- ماذا؟

ترك الكتاب جانبًا وطوقها بذراعه وقال بهدوئه المعتاد :

- ليس عندي ذرة شك واحدة في أن ثمة رجالا ينتمون إلى ديننا العظيم لا يتورعون عن إقامة علاقات مشبوهة في الخفاء مع النساء !

رمقته بنظرة عتاب وصاحت منذرة :

- بوغوص !

ربت فخذها وقال مبررًا :

- الحياة مليئة بالتشوهات يا زوجتي، والرجال ليسوا معصومين من الخطأ حتى لو كانوا من أبناء الرب المخلصين .

هبت واقفة وهمست بدلال يعرفه جيدًا :

- كفى... هيا لتنال قسطا من النوم .

فهم إشارتها، وضمها إلى صدره ومضيا في وئام ومسرة نحو غرفة النوم !

44

لطمها... ضربها بعنف... شتم أمها وأباها وأخاها وأجدادها... ثم غادر بيته غاضبًا متوترًا بعد أن قذف في وجهها يمين الطلاق !

على مقهى المعلم فجلة دسّ عصفور رأسه بين راحتيه مهمومًا ملومًا. لم ينتبه أول الأمر إلى سؤال النادل عما يريد أن يشرب، فلما لكزه بخفة انتبه الشاب التعس وطلب قرفة. في تلك اللحظة بالضبط أقبل عويس الفرارجي مسرعا من جهة مدخل درب الجماميز، وهتف وهو يجفف عرقه بكم جلبابه الملوث ببقايا دم الدجاج المذبوح :

- ماذا جرى؟ ألم نُصلِّ الجمعة معًا في مسجد السيدة زينب وكنت بأفضل حال؟ لقد جاءت أمك إلى الدكان وأخبرتني بأن رقيّة هجرت البيت وهي تقسم بعدم العودة إليه، وطلبت مني أن أبحث عنك .

كل الناس تستطيع أن تكتم بعضًا من أسرارها الخاصة في جوفها إلا عصفور، فما يغضبه يبوح به بالتفصيل، وما يسعده يتحدث عنه باستفاضة خاصة لصديق العمر عويس الفرارجي، وهكذا قال له إنه بخير وإنه كان رائق المزاج عقب صلاة الجمعة، وإنه تناول غداءً شهيا ورغب بعدها في معاشرة زوجته، لكنها رفضت، فلما حاول تدليلها واحتضانها وهما مستلقيان فوق الفراش ركلته بقدميها بعنف، وصاحت: (عندما تصبح رجلا وتخصص لي دارًا مستقلة سأكون لك) فلم يتمالك نفسه، وهوى براحته فوق وجهها بقوة، وانهال عليها ضربًا وسبًّا، ولولا تدخل أمه لكانت رقيّة في عداد القتلى !

أنصت الصديق باهتمام، وبعصبية أشاح الذباب المتربص بحواف قدح القرفة، وبسمل وحوقل وقال بنبرة واثقة :

- لا عليك يا عصفور.. النساء ناقصات عقل ودين فعلا كما قال رسولنا الكريم .

ثم طلب لنفسه قدح قرفة وواصل نصائحه :

- ولا يهمك... ستمكث في بيت أبيها عدة أيام، ثم تعود لك صاغرة .

رمقه بنظرة عميقة وقال بصوت يقطر حسرة وألمًا :

- لا أريدها ... من ترفضني أنفر منها... أمحق وجودها في كياني .

ثم بثقة حزينة :

- لقد طلقتها... كادت تدفعني لارتكاب جريمة قتل بغبائها الشديد !

45

مع هطول الليل لم يشأ عصفور الرجوع إلى داره، بعد أن اضطر عويس إلى المغادرة والعودة مرة أخرى إلى دكانه، قال له :

- أريد زيارة قبر المرحوم والدي، قبل الذهاب إلى الدار .

وأضاف :

- كلما مرت بي عاصفة يا عويس... تغزوني ذكراه بقوة، فأحن إلى التحدث إليه بدون قلق ولا خوف .

ربت عويس ظهره وقال بهدوء :

- كما يحلو لك يا عصفور ... على العموم الجو بات لطيفا وتلاشت سخونة النهار .

وواصل وهو يصافحه :

- ألف رحمة ونور على والدك... لا تنس أن تشملنا بدعائك وأنت تقرأ له الفاتحة وتدعو له .

ومضى كل منهما في طريق. توجه عصفور نحو المقابر تحت ستائر الظلمة الكالحة، فلا قمر يشع ولا نجوم تتلألأ، وإنما ترافقه نسمات طرية مشبعة بروائح فواكه الصيف. عند مقبرة أبيه افترش الأرض واستند بظهره إلى جدارها، ثم استسلم للحنين والذكرى وشرع يناجي المرحوم . حكى له تجربته المُرة مع رقيّة، وقال ما أتعس الرجل إذا كان من نصيبه زوجة غير مطيعة، وقال أيضا إن المرأة يا أبي كائن غامض وغشوم لا يدرك حجم تصرفاته ولا يقدّر أبدًا ردود الأفعال. وقال أيضا إن السلام لن يرفرف قط على بيت تتقاسمه زوجة وحماة. وقال له إنه حزين، ولا يعلم هل سيكرر تجربة الزواج مرة أخرى أم لا؟ خيل إليه للحظة أن الأرض تنبثق عن ثلاثة أشباح قادمة من خلف شجرة الجميز في الجهة الأخرى، فرك عينيه وظن أن النعاس

يهجم بقوة، لكن الأشباح تحولت إلى رجال أشداء يمسك كل واحد منهم بعصا غليظة. عرف قائدهم. إنه محروس النجار شقيق رقيّة. هبّ واقفا مرتبكا وقد اشتم رائحة غدر. لكن الرجال أقبلوا عليه بسرعة مزمجرين متوعدين، فلم يستطع الهرب ولم يفكر فيه أصلا، فقد شلت المفاجأة تفكيره وقدرته على التصرف، ثم انهالوا عليه ضربا، وسمع محروس يصيح :

- حتى تتوقف عن ضرب النسوان يا ابن الكلب !

وسقط مغشيًا عليه في بركة من دمائه الساخنة !

46

قهقه الخواجة باباندريو بشدة حتى طفرت الدموع من عينيه عندما جذبت نعيمة العالمة السيد قسطنتين كبير التجار ودفعته دفعًا إلى الرقص معها، فاستجاب الرجل ورقص فتأرجحت مؤخرته بشكل مضحك. فعلت الخمر فعلها في رأس باباندريو، فتخيل مشهدًا ساخرًا حين ينزع قسطنتين ملابسه وينقض على العالمة شبه العارية، فيبدو كفيل يضاجع غزالة! وجنح به الخيال فتمادى في ابتكار وتكوين مشاهد كوميدية متتابعة ومتداخلة حتى أسرف في الضحك الهيستيري دون أن يعرف أحد ما السبب، لدرجة أن القنصل الفرنسي سأله متعجبًا :

- دعنا نضحك معك يا رجل... ماذا حدث؟

خجل من نفسه، وحاول شكم مشاعره أو السيطرة عليها، لكنه لم يفلح، فانصرف مترنحًا نحو الشرفة مبتعدًا عن الصخب

المتزايد في الصالة، وعن الرجل البدين الذي يستثير فيه شهوة الضحك. أما مدام آماليا، فكانت قد دعت نعيمة العالمة لإحياء ليلة مصرية على شرف القنصل الفرنسي الذي أهداها بيانو جديدًا ابتاعه خصيصًا لها من باريس، وقال مجاملا :

- هذه هدية بسيطة، فقد شعرت أن العطب تمكن من البيانو الذي بحوزتك هنا، وأن إصلاحه لم يعد يجدي !

في تلك الليلة، وبعد انطفاء ضوضاء الرقص، وقبل اختفاء صيّادي المتعة داخل الغرف المغلقة، انطلق حوار طويل في خان الملذات عن الأسباب التي دعت الوالي محمد علي باشا إلى أن يقود بنفسه حملة عسكرية ضخمة ويتوجه إلى أرض الحجاز لمحاربة الوهابيين، وتساءلت آماليا :

- ألم ينتصر ابنه الأمير طوسون باشا؟ فلم يذهب بنفسه؟

أجاب القنصل شارحًا وهو يرتشف النبيذ :

- إنه الطموح ومطاردة المجد أينما كان. إن محمد علي مفتون ببونابرت امبراطورنا العظيم، وقد علم بانتصاراته المذهلة في روسيا ودخوله موسكو العام الماضي، رغم الخسائر الفادحة التي تكبدها جيشنا البطل. لذا أظن أن باشا مصر يريد بحملته هذه أن يبعث برسالتين إلى الباب العالي، الأولى: إنه الوالي الوحيد من كل ولاة السلطنة العثمانية القادر على استعادة مكة والمدينة بعد أن سقطتا في يد الوهابيين، والثانية: أنه صار الرجل القوي الذي يجب على السلطان العثماني أن يغيّر موقفه السلبي منه، وأن يعمل له ألف حساب، وأنتم تعرفون يا أصدقائي أن السلطان العثماني ظل يتعامل مع محمد علي باعتباره مغتصبا للسلطة في مصر، أو متمردًا إلى حد ما على هيبة السلطنة .

قال كبير التجار اليونانيين السيد قسطنتين :

- هذا يفسر إرسال محمد علي ابنه إسماعيل إلى اسطنبول ليسلم مفاتيح مكة والمدينة إلى السلطان محمود الثاني بوصفه خليفة المسلمين الذي يجب أن يحافظ على مدنهم المقدسة ويؤمن رحلات الحج والعمرة لمئات الآلاف من البشر .

انتبهت آماليا فجأة إلى النظرات الملتاعة للعبد هلال التي تلاحقها بشغف أحمر مجنون، فتوترت، وقذفت ما بقي بكأسها من كونياك في جوفها دفعة واحدة، وتساءلت دون اهتمام حقيقي :

- متى يعود الباشا إلى القاهرة كما تتوقعون؟

فأجاب القنصل :

- نحن الآن في شهر سبتمبر من عام 1813 ، والوالي غادر في آخر أغسطس الفائت، وأظن أنه سيبقى هناك نحو عام كامل

على الأقل حتى يتمكن من القضاء على جيوب وأوكار الوهابيين الذين فروا في أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة .

عاد باباندريو لينضم إلى الحوار بعد أن تخلص من سكرة الخمر والضحك، وألقى سؤالا أثار فضول الجميع واستفز عقولهم :

- سعادة القنصل... مَنْ يحكم مصر الآن؟

ابتسم القنصل وأجاب وهو يتناول زيتونة سوداء :

- قبل سفره بيومين دعانا الوالي نحن قناصل الدول الأوروبية إلى مأدبة غداء وأخبرنا أنه أصدر قرارًا بتعيين محمد لاظ أوغلو وهو صديقه الحميم حاكمًا للقاهرة، وتعيين ابنه إبراهيم باشا حاكمًا للصعيد، وحسين بك شقيق زوجته أمينة هانم حاكمًا للدلتا والإسكندرية .

غمغم السيد قسطنتين قائلا بعد أن ابتلع

قطعة لحم مشوي :

- كلهم رجاله وأقرباؤه المخلصون !

ضحك القنصل وقال :

- عزيزي السيد قسسطنتين... أنت في بلاد الشرق... فلا وجود لمؤسسات حكم مثل أوروبا، وإنما الأبناء والأقرباء والأصدقاء الموثوق بهم هم ورثة السلطة والنظام !

47

بعد انفضاض السهرة وانصراف رواد اللذة واستسلام العاهرات للنوم، سمعت آماليا طرقا رقيقا على باب غرفتها. كانت منهمكة تحصي أرباح الليلة، فانزعجت، ظنت أن إحدى البنات تطلب شيئا. أخفت النقود تحت وسادتها سريعًا، وتوجهت لتفتح الباب وهي تنوي توبيخ الطارقة، لكنها لم تكن امرأة، وإنما رجل. رجل عملاق أسود البشرة يرتدي ملابسه كلها وقد ثبت في جنبه خنجره الذي لا يفارقه أبدًا. رجل تنطلق من عينيه شرارات الشبق، وتنبعث من قسماته آيات التصميم والإصرار، فألهمتها غريزتها الأنثوية أنها لا تستطيع مقاومة ذكر ضخم على أهبة المضاجعة، وأن الوقت قد حان لدفع فاتورة مقتل موسكات ودفنه في حديقة الدار. وفي محاولة أخيرة للتنصل من وعدها قدمت له عرضا مغريًا :

- ما رأيك يا هلال... اختر ما شئت من البنات

هنا.. يونانية... جورجية... أرمينية... تترية وأنا أهبها لك في الحال، ولكن دعني وشأني، فأنا امرأة عجوز لن تعجبك !

لم يقبل العرض بإشارة نفي حاسمة من رأسه، وظل مصوبًا نظراته الشهوانية نحو نهديها، بينما نيران الغريزة تواصل اشتعالها وتتمدد في شرايينه وأوردته حتى اصطبغ وجهه الأسود بالاحمرار القاتم. أيقنت آماليا أن الفرار من مصيدة الجنس مستحيل، وكل ما استطاعت فعله أن رجته لينتظرها قليلا في غرفته بالحديقة لتستعد لاستقباله في حضنها. لم تتخيل آماليا لحظة، حتى في أسوأ كوابيسها، أن يلوث رجل أسود سريرها الفضي !

حملها كطفلة وتلوّت تحته كأفعى، ورغم أنها حاولت التمتع بالشاب الذي يمتطيها ويخترقها بعنف، إلا أن لونه الحالك كان حائلا دون بلوغها الذرا السامقة للذة الحب، وفي محاولة أخيرة أغمضت عينيها حتى لا تراه، غير أن جسده الأسود

المغموس في البياض الأنثوي كان يُفشل لها كل حيلة لإغماض العينين. وهكذا أقسمت أنها المرة الأولى والأخيرة التي تتعرى فيها أمام رجل أسود مهما كلفها ذلك من شقاء !

48

مع مطلع العام الجديد 1814 أقدم الخواجة شارل على تدشين أول مدرسة في مصر المحروسة لتعليم الرسم واللغة الفرنسية، وسط أجواء احتفالية هادئة حضرها كوكبة من رجالات القنصليات الأجنبية وبعض التجار المصريين وأهالي حارة الدرب الأصفر وبين القصرين والجمالية وبرجوان. خصص الرجل غرفتين متلاصقتين في داره لتصبحا مقرا للمدرسة، بعد أن جعل لهما بابًا مستقلا غير باب الدار. وقال للقنصل الفرنسي معللا إقدامه على هذه الخطوة :

- لا شك عندي لحظة في أن كثيرًا من المصريين يتمتعون بالذكاء الشديد والرغبة الجارفة في التعلم .

تساءل القنصل باهتمام :

- وماذا سيعود عليك من فائدة؟

أجاب ضاحكا :

- الشغف بتعليم الناس رغبة لا يمكن مقاومتها .

- لكنك ستنفق الكثير بلا طائل، ألم تعلن أن التعليم بالمجان؟

- بلى، ولكن لأبناء المصريين فقط يا سعادة القنصل، أما أبناء الأوروبيين فسيدفعون مقابل تعليمهم .

ضحك القنصل قائلا بعتاب :

- ولماذا تفرق بين الناس يا فنان؟

- أنت تعرف أن المصريين في معظمهم فقراء جدا، بينما أبناء جلدتنا ينعم غالبيتهم بالحياة الناعمة هنا .

قطعت هيلين الحديث عندما قدمت الحلوى الفرنسية والقهوة للقنصل وقالت برقتها المعهودة :

- هل أخبرك من ألهمه هذه الفكرة؟

ابتسم شارل وطوقها بذراعه وقال بجدية :

- أجل... زوجتي الحبيبة هيلين هي التي أوحت لي بفكرة إنشاء مدرسة .

مضى القنصل في تناول الحلوى ثم قال :

- فكرة رائدة... أتمنى لكما التوفيق .

ثم همس في أذن شارل :

- لا تنس يا عزيزي... من الصعب جدا أن نخدع شعبًا متعلمًا .

تعجب شارل وتساءل منزعجًا :

- ولماذا نخدعه؟

رد القنصل :

- ولماذا لا نخدعه؟

ثم قاد صاحب البيت إلى زاوية قصية وقال بصوت خفيض :

- ألا تعلم يا مسيو شارل أن مصالح الجمهورية الفرنسية تستلزم السيطرة على موارد بلاد الشرق وفتح أسواق لنا هنا لتسويق ما تنتجه مصانعنا وشركاتنا التي تتطور باستمرار !

ضيق شارل عينيه الخضراوين احتجاجًا، وقال بهدوء :

- أظن أن أهم أهداف ثورتنا الفرنسية يتمثل في التعامل مع الشعوب الأخرى على قدر المساواة، وليس خداعهم واستنزاف مواردهم .

عقب القنصل سريعًا :

- صحيح طبعًا.. ولكن الوضع الحالي في فرنسا صعب جدا، فالامبراطور نابليون يواجه جيوش أوروبا كلها بعد انتصاره

عليهم في معركة (دريسدن) بألمانيا في أغسطس قبل خمسة أشهر فقط، وهم يستعدون لمواجهتنا بعد هزيمتهم المنكرة، لذا فمصالحنا الآن تحتم علينا الاستفادة من علاقتنا بمصر، فمواردها بلا حدود. عمومًا... سنتحدث في هذا الأمر فيما بعد، ولكن أين النبيذ يا رجل؟

لن يتغير نابليون أبدًا. يطارد المجد في الشرق والغرب. يحلم بالخلود مثل الإسكندر الأكبر ولو على جماجم الآلاف من الرجال. لا تهمه جنسياتهم... فرنسيون أو مصريون أو روس أو إنجليز أو ألمان. كلهم خلقوا من أجل عظمة الإمبراطور المبجل. حقا ما أبشع الهوس بالسلطة، وما أحقر قصور المجد التي تبنى على جثث الرجال الأبرياء !

جاء النبوي سرحان ومعه ثلاثة شباب في مثل عمره وخاطب الخواجة شارل بجدية :

- هؤلاء أصدقائي ورفاقي في الوكالة،

كلهم مترعون بحماسة شديدة لتعلم الفرنسية، وأنا أثق بقدراتهم تمامًا .

رحب بهم صاحب المدرسة، وطلب من زوجته تدوين أسمائهم مع المجموعة التي تقدمت للتعلم. أما سعدية، أرملة أيوب السبع، فحضرت ومعها أيوب الصغير، فاستقبلها شارل بترحاب وهو يمسح على شعر الطفل بحنان ويقول :

- لقد آن الأوان لتتعلم الرسم يا صديقي الصغير أيوب .

قالت والدته :

- بصراحة فكرة رائعة يا مسيو شارل... أحييك عليها، وكم كان المرحوم أيوب يقول لي ليت كل المصريين يتعلمون اللغة الفرنسية ليطالعوا مؤلفات الفرنسيين وأفكارهم المفيدة .

كلما هلت سعدية وابنها انتاب شارل أسى

شفيف، وحامت الذكرى العطرة لأيوب السبع على مخيلته. تعجبت هيلين من حفاوة زوجها بهذه السيدة المصرية وابنها، وفي تلك الليلة تحديدًا، حكى لها شارل بتفصيل أكثر كل شيء عن صديقه المصري الذي اغتالته شرطة الوالي قبل تسعة أعوام لأنه كان يطالب بتحقيق مبدأ نبيل وهو أن مصر للمصريين، لا يحكمها أجنبي قط حتى لو كان مسلمًا مثل محمد علي !

49

بعد أسبوعين من افتتاح المدرسة، وفي صباح مشمس ورائق انحسر فيه الغمام عن سماء القاهرة، عادت هيلين من السوق ووجهها يشرق بالفرح والسرور مثل خوخة ناضجة. قالت لزوجها المنهمك في رسم لوحة ضخمة تصور الاحتفال بمولد الحسين طلبها منه القنصل الروسي :

- شارل يا حبيبي... تخيل... المصريون في الجمالية وقصر الشوق وعند حارة المشهد الحسيني يقولون «ميرسي وبنجور وبردون »! وهي كلمات من الدروس والجمل والمعاني التي تشرحها لهم قولا وصورًا. لقد نجحنا يا أجمل زوج في الدنيا .

ثم أضافت بحماسة أكبر :

- ليس هذا فقط، بل لفت نظري بعض الكلمات الفرنسية المكتوبة بالطباشير

على الحيطان والأسوار، والعجيب أن هجاءها وحروفها سليمة وصحيحة مثل الله Dieu ، رسول prphéte ، عمل Travail ، حرية Liberté ، الحب L’amour ، نظافة Soin. الأولاد ينقلون لأهاليهم ما تعلموه هنا والناس سعيدة بذلك .

- ممتاز... جميل جدا... أين كنا؟ وكيف أصبحنا؟

وفجأة أقبلت ياقوتة وتساءلت مستخدمة بعض المفردات الفرنسية :

- بردون مدام هيلين... ماذا أعد لكما لتناول الغداء؟

فلونت ضحكات شارل وزوجته دارهما الفسيحة بالمرح والسرور .

50

دون سابق إنذار فوجئ بوغوص بك بإبراهيم باشا يقتحم مكتبه بالقلعة ويسأله بعصبية :

- ما أخبار والدي؟ هل حقا أن أتباع ابن عبد الوهاب يناورون ويستعدون للانقضاض على مكة والمدينة لخطفهما مرة أخرى؟

وقف الرجل احترامًا، وضع ريشة الكتابة في دواة الحبر وقال بهدوء :

- لم تصلني أية أخبار بهذ الشأن .

كلا الرجلين كان صادقا، فثمة إشاعة قوية راجت في مدينة المنيا بوسط الصعيد حيث مقر حكم إبراهيم باشا تقول إن جيش محمد علي يتعرض لهجوم مضاد شرس من قبل الوهابيين عند مشارف مكة، لكن الغريب أن صدى هذه الشائعة لم يتردد في القلعة أو في القاهرة أصلا.

لكن الغضب المرسوم في قسمات ابن الوالي دعا بوغوص بك إلى أن يسعى لتخفيفه بعبارات ذكية، فقال :

- سموكم يعرف يا باشا أن الإشاعة أحد أسلحة الحرب، فلا يجب أن ننصت لمكرها الرنان أو نأبه بهدفها المغرض .

وقال أيضا :

- إن والدكم وليّ النعم، حفظه الرب ورعاه، يملك من الخبرة العسكرية والجيوش ما يجعله قادرًا على دحر أي هجوم، وإنه يعرف جيدا كيف يشق صفوف الأعداء باستمالة ضعاف النفوس والطامعين والحاقدين من قياداتهم ومنحهم الأموال والوعود البراقة بسخاء .

تفكر إبراهيم باشا للحظات ثم قال :

- ثقتي بوالدي وحكمته بلا حدود !

ثم شرد قليلا وهتف :

- لقد مررت على شركان الناغي قبل قليل، أكد لي أن والدي بخير وجيشنا ينجز مهامه على أكمل وجه، وبخطوات وخطط محكمة، وإن تكن بطيئة نسبيا، لكنّ طبيعة أرض المعارك تستلزم ذلك وتفرضه .

قال بوغوص بك بابتسامة مجاملة :

- نشكر الرب على كل شيء .

فأعلن إبراهيم بحماسة صادقة :

- كم أتوق إلى محاربة هؤلاء المتعصبين !

وبخبث وفضول لم يستطع إخفاءه :

- ما أخبار طوسون وجاريته صوفيا؟

اكتفى بوغوص بك بهز منكبيه إعلانا عن عدم معرفته بشيء !

51

وقت أصيل هذا اليوم وصل بوغوص إلى داره بالحي الإفرنجي منشغل البال. على الباب استقبلته زوجته بابتسامة جذابة، وفور ترجله عن فرسه، أمر الخادم بإطعامها جيدًا وغسلها وتنظيفها بالماء الدافئ والصابون، ثم ربت ظهرها بحنان، وما إن اصطحب الخادم الفرس نحو الاسطبل الكائن خلف الدار حتى سألته زوجته :

- ما بك يا بوغوص؟

ضمها تحت كتفه اليمنى وقال بنبرة منهكة :

- أبدًا يا حبيبتي... العمل كثير اليوم وأنا جائع جدا .

بعد أن تناول الطعام تمدد على الأريكة الكبيرة في الصالة،

ثم خاطب زوجته بمودة قائلا :

- تخيلي... دارنا الصغيرة هذه مشمولة بالحب والسلام والمسرّة أكثر ألف مرة من قصور الوالي نفسها .

اندهشت زوجته من هذه المقارنة وسألت باهتمام وهي تمسح على شعره :

- الرب يغمرنا بمحبته دومًا، ولكن لِمَ تقول هذا؟

اعتدل الرجل متخذا وضعية الجلوس، وبحركة لا إرادية جال ببصره في الغرفة كمن يريد الاطمئنان أنه لا يوجد من يسمعه، وهمس قائلا :

- يخيل إليّ أن إبراهيم باشا يتمنى في قرارة نفسه موت أبيه في أرض الحجاز !

شهقت المرأة وصاحت :

- يا خبر... لِمَ؟

عاتبها بنظراته وقال :

- اخفضي صوتك يا زوجتي العزيزة... الجدران لها آذان .

ثم اقترب منها أكثر حتى صار لصيقا بها تمامًا، وأضاف :

- إنه يحلم بالسلطة. إن ما فعله من بطش بأهل الصعيد يفوق الوصف، فقد وصلتني الأخبار أنه استولى على أراضي الناس وأموالهم بالقهر، ومن يرفض تتولَّ زبانيته كيّه بالنار .

- ياه... قسوة بلا حدود... حرام أن ينكل بالمصريين، فهم أناس طيبون، ولكن هل باح لك برغبته في استلام سلطة؟

- لا لا لا... لكني شعرت بأجنحة طموحاته المجنونة ترفرف مع جفون عينيه عندما زارني فجأة صباح اليوم، وقد حاولت أنـ ...

لم يكمل. فقد أوقفت طرقات عنيفة على

الباب كلمات الرجل فوق حافة لسانه، هب واقفا مرتبكا، وصاحت المرأة بعصبية وهو يخطو متطلعًا نحو الباب :

- فليرحمنا الرب !

52

لم يتخيل بوغوص بك لحظة أن إبراهيم باشا يمكن أن يقدم على زيارته في داره، ولكن عندما رأى أن ابن الوالي يصطحب معه القنصل الفرنسي وحاكم القاهرة محمد لاظ أوغلو شعر أن كارثة قد حدثت وأن الشمس يمكن أن تكون قد هوت فوق القلعة فأحرقتها. ولما تفرس في وجه القنصل تيقن تمامًا أن ثمة أمرًا جللا .

في البداية دعاهم للدخول بحلق جاف وذهن مشوش، ثم اعتذر لأنه يستقبلهما بملابس الدار، رجاهم أن ينتظروا قليلا حتى يبدل ملابسه، لكنهم رفضوا الدخول وظلوا واقفين عند المدخل بكامل ملابسهم الرسمية المهيبة، ثم أمسك إبراهيم باشا ذراع صاحب الدار وبادره قائلا :

- معذرة بوغوص بك... جئت إليك بلا موعد، لكن الأمر جدّ خطير .

يبدو أن مماتي سيكون على يد أسرة محمد علي، فإذا لم يكن الوالي نفسه هو الجاني، فإن ابنه إبراهيم جدير بإنجاز تلك المهمة، ها هو يقتحم داري بقلقه وعبوسه. وتذكر الجملة المرعبة (فليُسَقْ من قدميه)، فتسارعت دقات قلبه. ولاحت منه نظرة خاطفة على زوجته التي اختبأت خلف باب الغرفة الجانبية تتلصص عليهم، فأشفق عليها، وتمنى للحظة أن تنبت لها أجنحة لتطير إلى أرمينيا فرارًا من المصيبة المنتظرة، لكن القنصل أخرجه من شروده المفاجئ قائلا :

- يا عزيزي بوغوص بك... نريد تحميل عشرين سفينة بالقمح وإرسالها إلى فرنسا فورًا، فالوضع خطير وباريس معرضة لمجاعة، ودول أوروبا تسعى إلى محاصرة بلدنا، بعد أن فقد الإمبراطور بونابرت الآلاف من جنودنا البواسل في معاركه الطاحنة مع الروس .

تنهد الرجل ارتياحًا، وأدرك أن شبح الموت

تراجع مؤقتا عن إيذاء أهل الدار، لكنه قال بأدب جم :

- ولكن ما نملكه في الصوامع لا يكاد يكفي المصريين هنا، فكيف نصدّر لكم هذه الكمية الكبيرة كلها من القمح؟ حتمًا سترتفع أسعار الغلال وبقية السلع، وقد نشرف على مجاعة مخيفة .

تذكر إبراهيم نصيحة والده بضرورة إرضاء قناصل الدول الأوروبية قبل أي شيء، فهتف بسرعة :

- لا يهم، إنقاذ حياة أصدقائنا الفرنسيين مهمة إنسانية لها الأولوية الكبرى، أما المصريون فهم قادرون على تدبير أمورهم بأنفسهم مهما كانت قسوة الظروف .

وأردف حاكم القاهرة وهو يرمي ابن الوالي بنظرة نفاق فجة :

- المهم يا بوغوص بك ألا ينقطع أو يقل

معدل توريد القمح لحظة عن قصور مولانا وليّ النعم وسمو الأمير إبراهيم باشا .

فأكمل الأخير :

- ولا تنسَ أيضا ضرورة توفير القمح لبقية أصدقائنا وحلفائنا من قناصل الدول الأوروبية وكبار التجار من الأجانب والمصريين وقاطني الحي الإفرنجي هنا .

وقلب سبابة يده اليمنى عموديًا مشيرًا نحو الأرض للتأكيد !

53

مرت أيام طويلة حتى استرد عصفور الحداد صحته وعافيته، وقد ترك له الاعتداء الغادر في المقابر ندبة في عنقه جهة اليسار أخفاها بكوفية لم يعد يخلعها أبدًا.
قال لأمه معاتبًا :

- تدخلاتك في حياتنا أفسدت زواجي وكادت تقتلني !

هتفت بقلب موجوع وهي تربت ظهره :

- الله لا يسامحها هذه المجرمة رقيّة بنت خديجة هي وشقيقها محروس البلطجي، ما المشكلة إذا ضربتها مرة، كل الأزواج يضربون نساءهم والحياة تسير، يوم حلو ويوم مر، لكن المجرمة فقط هي التي تدعو البلطجية ليضربوا زوجها وتبارك ذلك .

ثم بعتاب تدرك جيدًا أنه لن يجدي نفعًا :

- ولكن يا بني أهلها ضربوك لأنك طلقتها فور ضربها، وكان يجب التريث والصبر والانتظار لترى هل أتى الضرب بنتيجة أم لا؟

رفض عصفور رفضًا قاطعًا نصيحة صديقه عويس الفرارجي بأن يستأجر مجموعة من البلطجية ليهدموا بيت رقيّة على من فيه، ويلقنوا شقيقها محروس النجار وأصدقاءه درسًا في الأدب لا ينسونه، إذ قال له :

- لا أريد صدامات أكثر من ذلك، ولا تنس أنهم قوم مجرمون لن يتورعوا عن إيذاء أمي وأشقائي الصغار إذا استفحلت المعارك بيننا .

ثم بنبرة ندم :

- لقد أخطأت عندما ضربتها ولعنتها، كان يجب عليّ أن أسرحها بإحسان كما قال ديننا الحنيف، ولأني لم أفعل فقد عاقبني

الله في الليلة نفسها .

أردفت أمه وقد زاد إشفاقها وحزنها عليه :

- لو كان أهلها أصلاء ومُبقين عليك لكانوا أرسلوا لنا، أو انتظروا حتى نذهب إليهم ونصالحهم وترد اليمين وتعود بها إلى داركما، لكنهم قطعوا خط الرجعة بتصرفهم الهمجي المشين .

رماها بنظرة لوم، فغضت بصرها اعترافا بخطئها أيضا، لكنها لم تعلق، ثم طوى صفحة الماضي الأليم قائلا :

- فليسامحها الله على العذاب الذي جرعته لي وعلى عنادها المنفر .

54

ارتطام خفيف بين الطفل أيوب أيوب السبع وعصفور الحداد أشعل شرارة اهتمام مفاجئ في القلبين المحرومين. التقاها للمرة الأولى أمام دار الخواجة شارل في منتصف نهار دافئ من أيام مارس، حيث وقفت سعدية تنتظر انتهاء دروس الرسم لتصطحب ابنها وتعود به إلى دارها، لكن الطفل خرج مسرعًا سعيدًا بما رسمه، فارتطم بعصفور الذي كان يهم بالدخول. تعثر الولد وكاد ينكفئ على وجهه لولا أن أسعفه عصفور وحمله قبل أن يسقط. هرولت الأم سريعًا نحو ابنها، واحتضنته بقوة وهي تشكر الشاب الغريب. التقت العيون في نظرة خاطفة باركها طقس جميل، فاندلعت شرارة حانية في الجسدين، وافترقا دون كلمة واحدة !

استقبل الخواجة شارل عصفور بترحاب كبير، وفوجئ بمأساته مع طليقته وما تعرض له من اعتداء، اعتذر لأنه لم يكن

يعرف، وإلا كان عاده في مرضه. قال له مواسيًا :

- حظوظنا في الحياة ليست طيبة على الدوام، ولكن علينا الاعتصام بالأمل .

وأضاف مؤيدًا ومادحًا :

- حسنا فعلت عندما رفضت الامتثال لنصيحة صديقك بالانتقام، فالانتقام سلاح القابعين في الماضي، العاجزين عن النظر إلى المستقبل .

وسأله عن ورشة الحدادة وكيف أحوالها، فطمأنه أن العمل يسير بهمة رغم انقطاعه فترة طويلة، وأنه بصدد العودة إليها من الغد. أقبلت هيلين مرحبة، ولاحظ أن طيور السعادة تحوم في فضاء الدار، فتمنى لهما الخير بصدق، قال لنفسه إن تجربته المُرة في الزواج أكدت له أن التفاهم الوجداني والعقلي والنفسي التام بين الرجل والمرأة قبل عقد القران

أمر حاسم لنجاح الزواج .

قال له شارل :

- سأمر عليك غدًا بالورشة في تمام الرابعة عصرًا، فأنا أريد أن أرسم لوحة للصناعات اليدوية والحرف الفريدة بالمنطقة كالنقش على النحاس وغيرها .

اعتذر عصفور قائلا :

- في تلك الساعة سأكون في انتظار شقيقي الأصغر عند خروجه من دروس تحفيظ القرآن الكريم بالأزهر الشريف .

رد شارل على الفور :

- حسنا، فلنبدأ بزيارة الأزهر، ثم نعود إلى درب الجماميز .

في تلك الليلة انتشى عصفور بأول حلم جميل مكتمل اللذة بطلته سعدية التي رآها للمرة الأولى في هذا الصباح !

55

توجه الخواجة شارل إلى الأزهر قبل موعده مع عصفور بساعتين، إذ اكتشف أنه لم يتجول داخل المسجد العتيق من قبل رغم استقراره في مصر منذ سنين. قضى الوقت في الدوران حول الجامع الشامخ ورصد زخارفه ونقوشه، راقب حركة رواده وملابسهم وعاداتهم، ولج إلى الصحن والأروقة الخارجية التي لا تستلزم خلع النعال، كما شاهد وسأل وعرف بالقدور والأواني المحفوظ فيها الماء اللازم للغسل والوضوء. وأخيرًا خلع نعليه ومرق إلى البهو الرئيسي وساحة الصلاة فانبهر بالرسوم والنقوش وأعداد الثريا المعلقة بالسقف، كما رنا بإعجاب إلى أعمال الأرابيسك والنقش على الخشب، وأنهى زيارته السريعة بالنظر تحت قدميه، حيث تأمل بافتتان فنون السجاد وزخارفه المدهشة، تحسس براحتيه وقدميه القطيفة الطازجة اللامعة التي تغوص فيها قدماه بأريحية وانسياب . ثم خرج مضطرا

حتى لا يفوته موعد عصفور .

تقابلا عند باب خروج التلاميذ والصبيان. بعد دقائق خرج التلاميذ مهللين فرحين وبينهم الشقيق الأصغر لعصفور، ثم تبعتهم مجموعة أخرى تسير ببطء شديد برفقة عمال الجامع، فلما اقتربوا من الباب أدرك شارل أنهم حفنة من الصبية العميان، تفرّس في وجوههم مليًا، وسأل عصفور باهتمام كبير :

- ماذا يفعل هؤلاء هنا؟

- إنهم يتعلمون حفظ القرآن الكريم تلقينا سماعيا على يدي شيخ جليل .

تفحصهم الرسام بمزيد من التركيز والإشفاق، وعاد يسأل صديقه :

- وماذا سيحترفون عندما يكبرون؟ ما مهنتهم أو عملهم؟

- لا شيء... قد يقرأون القرآن في المآتم،

أو على المقابر نظير أجر أو صدقة يتلقونها من فاعلي الخير .

- ولماذا لا يتعلمون القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والعلوم؟

ضحك عصفور وقال :

- إنهم عميان يا عزيزي الفنان... كيف سيتعلمون ذلك؟ ليحمدوا اللّٰه على أن حباهم نعمة حفظ القرآن بعد أن فقدوا بصرهم .

ثم أمسك بيد شقيقه الأصغر، ومضوا ثلاثتهم يقطعون الطريق المزدحم خارج الأزهر، بينما راودت الرسام الفرنسي فكرة عجيبة أسرّها في نفسه .

56

عكرت رياح الخماسين حواري القاهرة ودروبها وأزقتها، واكتسى الأفق بصفرة باهتة منذرة بعاصفة ترابية كاسحة، وإذا كان عمال النظافة في الحي الإفرنجي من اليونانيين والمالطيين قد بدأوا في تنظيف الحي كله من الأتربة وأوراق الشجر المتساقط بعد سكون الرياح، فإن أصحاب الدكاكين في الأزهر والسيدة زينب والقلعة ودرب الجماميز اكتفوا بإزاحة التراب جانبًا من أمام دكاكينهم، فامتلأت أحياء المدينة بأكوام وقباب من التراب والقمامة تحوم فوقها حشود من الذباب ثقيل الظل. توترت الجمال وصهلت الخيول ونهقت الحمير وماءت القطط ونبحت الكلاب بشكل متواصل، فغرفت المدينة في معزوفة منفرة من الأصوات المزعجة، وعبق الجو بروائح التراب والغبار وروث البهائم، وظن الناس أن نهاية العالم آتية لا ريب فيها، وقال الخواجة شارل لزوجته وهو يُحكم إغلاق النوافذ: طوال إقامتي

في القاهرة منذ عام 1796 لم تتعرض المدينة لعاصفة ترابية بهذه الكثافة والقسوة. اعتلى بعض الشيوخ المآذن ودعوا الأهالي إلى الصلاة والاستغفار قبل أن تقع الواقعة. وتجمع قوم كثيرون داخل أروقة الجامع الأزهر، حيث صاح نفر من الناس :

- إن الله غاضب علينا لأننا نسينا دين الإسلام، وانشغلنا بالحياة الدنيا .

قال رجل معمم على مشارف العقد الرابع :

- لعل الله يعاقبنا لأن الوالي يحارب دون وجه حق أتباع ابن

عبد الوهاب في أرض الحجاز، وهم قوم مؤمنون يدعون إلى إعلاء كلمة الحق .

وتساءل بعضهم متحيرًا :

- حق ماذا؟ إنهم يحاولون الاستيلاء على

مكة والمدينة، فماذا يبقى للمسلمين؟

- وما ذنب الأقباط واليهود الذين يعيشون بيننا؟

وأضاف آخر يرنو بعطف إلى قطة مرتعبة على باب الجامع الموارب وقد حشرت رأسها بين ضلفتيه :

- وما جريرة الحيوانات التي تتعذب معنا في هذا الجو المرعب؟

صاح أحد الشيوخ :

- إن الله لطيف بعباده، فلا تقنطوا من رحمته .

تمنى آخرون أن يسقط المطر ليغسل الجو المغبر، وشرع الجميع في الصلاة وتلاوة الأذكار ورفع الأيدي بالدعاء والاستغفار، وتمادى بعضهم في اليأس فودّع أهله وأصدقاءه وطلب منهم الصفح والغفران قبل أن يبيد الله الأرض ومن عليها. وفجأة

عقب أذان العشاء هدأت الرياح، وسقط مطر شديد لمدة خمس دقائق فغسل الهواء والأجواء، واسترد الطقس حالته الطبيعية وتعانق الناس بمحبة شاكرين الرحمن على لطفه بهم، واستقرت الدواب في حظائرها، وتابعت الكلاب والقطط ممارسة هوايتها المفضلة في البحث بين أكوام القمامة عما تقتات به، وانطلق الأطفال والصبية في الأزقة والحواري يهللون ويصرخون ويتشاكسون، بينما كان خان الملذات بالحي الإفرنجي ينتظر الحدث الأخطر منذ تأسيسه قبل ربع قرن !

57

لم ير أحد القنصل الفرنسي في هذه الحالة من السوء من قبل، فالرجل وصل إلى خان الملذات عقب سكون العاصفة الترابية وانقطاع الأمطار، عابس الوجه مضطرب البال. نزع معطفه وقبعته وعلقهما على مشجب واحد خلف الباب الداخلي وجلس مهدودًا على المقعد الرئيس في الصالة. طلب كأس كونياك، تجرعه على الفور. تجمع الرواد والندماء حوله يتهامسون. تساءلت آماليا باضطراب :

- ما بك سعادة القنصل؟

رنا إليها بيأس وقال :

- سقط إمبراطورنا العظيم نابليون بونابرت... سقط العبقري الفذ الذي جعل جيوش أوروبا كلها ترتعد من مجرد ذكر اسمه... سقط مَنْ نشر العلوم والمعارف

في بلاد الشرق والغرب. أجبرته قوات تحالف دول أوروبا على التنازل عن العرش في 11 أبريل، أي منذ عشرين يومًا، وجاء الرسول بالخبر المشؤوم اليوم . إنه يوم أسود، سيكتب التاريخ بحبر حزين إن العلم والإبداع والعبقرية كلها سقطت في 11 أبريل من سنة 1814.

انبرى له شاب على مشارف الثلاثين، طويل القامة، أحمر الوجه، تصادف وجوده بالخان للمرة الأولى، قال له بلكنة فرنسية غير أصيلة :

- هل أسقطت دول أوروبا إمبراطوركم بونابرت لأنه ينشر العلم والمعرفة، أم لأنه نشر الخراب والدمار والموت بالاعتداء على خلق الله وقتلهم واغتصاب أرضهم وحقوقهم؟

- مَنْ الرجل؟

قالتها آماليا وباباندريو في نفس واحد

وهما يحملقان في ملامح الشاب الساخط !

- لا دخل لكما بالرجل، ردّوا جميعًا على سؤالي إن كان لديكم رد !

ثم أردف بنبرة أعلى :

- لا شيء يبرر الاعتداء على الدول والأوطان والبشر الآمنين مهما كان. لا الدين ولا المجد ولا السياسة ولا الاقتصاد ولا العلم ولا الزعامة... كفاكم كذبًا ورياءً ونفاقا، فكلكم يعرف ذلك جيدًا ولا يفوه به أمام سعادة القنصل خوفا على مصالحه .

ثم قام بحركة عصبية وضرب المنضدة بكعب الكأس التي احتسى ما بها، وترك ثمنها بجوارها، وغادر المكان غاضبًا وسط ذهول الحضور. على الفور هرعت آماليا إلى العبد هلال لتسأله عن هذا الشاب، من هو؟ ومتى وصل؟ فأخبرها أنه روسي وأنه يزور مصر للمرة الأولى، وسمع عن

خان الملذات، فتمنى زيارته كما أخبره.
وبخته آمرة بحدة أمام الجميع :

- لا تسمح لأحد بالدخول إلى هنا قبل إخباري .

ثم بنبرة عالية قاسية ومهينة :

- إذا تكرر ذلك... سأطردك !

كظم هلال غيظه، وتوجه نحو المطبخ مشحونا بغضب مكتوم، بينما تجاهل الجميع انتقادت الشاب الروسي وعادت هزيمة بونابرت لتستحوذ على الحديث في خان الملذات، وسأل باباندريو بقلق :

- هل سيؤثر ذلك على تجارتنا سعادة القنصل؟ هل سنتعرض لخسائر؟

- كل شيء وارد... فربما عاد الإنجليز مرة أخرى إلى مصر واحتلوها، وبالطبع سيضيقون على التجارة مع فرنسا وغيرها .

لم يمكث القنصل كثيرًا، وغادر الخان منكسر الخاطر، أما باباندريو فتوجه نحو الشرفة شارد الذهن. جلس على أحد كراسي الخيزران المتناثرة في المكان ومضى يتجرع المزيد من النبيذ ليطفئ توتره المتزايد. أشفقت عليه صاحبة الخان، فتبعته، وجلست بجواره وربتت ظهره قائلة :

- ما بك؟ لا تقلق... تجارتك هنا بأمان، ومحمد علي باشا داهية يعرف كيف يحمي التجار لأنهم سنده الرئيسي في مواجهة السلطان العثماني .

التفت نحوها، شعر للمرة الأولى بأن الحنان الحقيقي يسيل بصدق من نبرة صوتها. تأملها كامرأة ناضجة. اشتهاها. اقترب منها. طوقها بذراعه. لثم فاها بشهوة. تلقت شفتيه برغبة. اتفقا على البقاء معًا تلك الليلة وألا يغادر... وكانت الليلة المشؤومة !

58

لم تذكر آماليا كيف حدث هذا، ولن تذكر أبدًا، كل ما وعته، أنها كانت سعيدة، وأنها منحت جسدها بسخاء، وأن باباندريو أرق من القرنفل عندما يكون عاريًا في الفراش، وأن سفالته في السرير ألذ ألف مرة من وقاحته في الحوار مع الناس، وأن النبيذ يصبح أكثر حلاوة برفقة الحب المشتعل المُطعّم بالفُجر والفحش، لكن الزمن شحيح غدار، والغيرة حارقة كالنار، فما أتعس العاشق الذي يرى محبوبته عارية في حضن رجل آخر !

هكذا إذن اقتحم العبد هلال مخدع آماليا في الرابعة فجرًا. في البداية لاحظ أن باباندريو لم يغادر مع المغادرين بعد انفضاض الليلة الماجنة، بحث عنه في الحمام، ولما لم يجده ظن أن الرجل قد انصرف دون أن ينتبه له، لكنه قبل أن يذهب إلى كوخه بالحديقة سمع صوت ارتطام ثقيل مفاجئ قادم من الطابق

الأعلى، حيث غرفة معشوقته. ارتبك. توتر. خايلته الهواجس الحمراء. هرع إلى مخدع آماليا. وضع أذنه لصق الباب، فتسللت إليه التنهدات والتأوهات ساخنة ملتاعة. تمزقت حواسه الذكورية كلها. جن جنونه وشُلّ تفكيره. دفع الباب بقوة ثور هائج فانخلع. رآهما عاريين ملتحمين. صرخ وقفز كقرد مجنون. انقض على باباندريو وحمله كدجاجة وقذف به بعيدًا بعصبية فارتطمت رأسه بالخزانة الخشبية فأغمي عليه، وبسرعة البرق استلّ خنجره الذي لا يفارقه من غمده وانكفأ فوق آماليا المذعورة وطعنها عدة طعنات عشوائية منتشيًا بالقتل والدم وسط صراخها العنيف الذي شق سكون الفجر .

59

استيقظ الخواجة شارل وزوجته على طرقات قوية على الباب في السادسة صباحًا. السقاء أمين الدواخلي يعتذر بشدة ويلهث قائلا :

- كارثة... مصيبة... مدام آماليا قتلت ... إنها ضائعة بين الحياة والموت... وهي تلح في طلبك فورًا يا مدام هيلين !

توترت صاحبة البيت وتساءل باطنها ماذا تريد مني؟ وبسرعة شديدة ارتدى الزوجان ملابس الخروج، وأمرت ياقوتة بإخراج الجواد من الحظيرة وتجهيزه. امتطى شارل جواده برشاقة وصعدت خلفه زوجته بمساعدته. شق الطريق من حارة الدرب الأصفر في اتجاه الأزهر، ثم انعطف يمينا نحو الأزبكية. قرص الشمس يتسلل علنا نحو السماء بنجاح فيفضح نفسه بنفسه، والجو صفو بعد يوم مترب ساخن. الطيور استعادت عافيتها وملأت القبة الزرقاء

برفرفة أجنحتها. في الطريق ارتفع معدل توتر هيلين وسألت زوجها :

- ماذا تريد مني؟ أنا لا أحب هذه المرأة ولا أحب بيت الدعارة الذي تديره !

- هوني عليك... عما قليل سنعرف .

وجدتها في النزع الأخير محاطة بدموع العاهرات الجميلات وذهولهن، بينما يحاول طبيب يوناني إنقاذها بكل همة وإخلاص دون جدوى. بعينين ذابلتين وصوت واهن طلبت آماليا من الجميع أن يغادروا الغرفة ويتركوها مع هيلين للحظات، ثم رجتها أن تقترب أكثر حتى لا يسمعها أحد وقالت لها :

- معذرة يا بنيتي... الطمع أفعى خبيثة تلتهم مكارم الأخلاق. ورغم أن أباك أندرياس كان صديقا مخلصًا، إلا أنني لم أراع هذه الصداقة وقتلته. دفعت مالا كثيرًا لمجرم مالطي اسمه موسكات قتله

وسرق صندوق الأموال والذهب والفضة الذي يخفيه في مكان سري بالخمارة لا يعرفه أحد سواي .

وأشارت إلى مكان الصندوق تحت السرير، وقالت :

- هذه كنوزك وأموالك... خذيها عسى أن يغفر لي الرب .

وواصلت بصوت ضعيف هربت منه نبضات الحياة :

- لقد أعماني الطمع، فقتلت موسكات بالسم عندما مارس ابتزازه وطلب المزيد من الأموال، ثم دفنته هنا في حديقة الخان بمعاونة من قتلني عبدي هلال المجرم !

أنصتت هيلين إليها دون أن يرف لها جفن، رأت شبح الموت يتجول في الغرفة فلم تتأثر. انحنت وجثت على ركبتيها وسحبت

الصندوق من تحت السرير، حملته وخرجت دون أن تنطق بكلمة واحدة وسط صمت وذهول العاهرات المكلومات والطبيب العاجز !

60

طوت هيلين تاريخها وذكرياتها بحلوها ومرها مع خمارة أبيها الخواجة أندرياس وباعتها بسعر لا بأس به، قالت لزوجها وهي تصفف شعرها أمام المرآة :

- لا أحتاج إلى أرباحها، فقد صرنا نمتلك الكثير من الأموال، كما أن نفسي عافتها لأنها تذكرني بالمجرمة التي قتلت والدي !

قال لها وهو يبدأ رسم لوحة جديدة لسوق النحاسين طلبها منه القنصل الفرنسي :

- افعلي ما يحلو لك، لكن إياك أن تستسلمي لتيار الحقد، فالحقود أسير ظلمة القلب لا يعترف بشروق الشمس. لقد ماتت آماليا ملطخة بفضيحة مجلجلة، وهذا يشفي غليلك وينزع المرارة عن صدرك كما أتخيل، فيدفعك إلى نسيان جريمتها .

ثم صحح عبارته الأخيرة سريعًا :

- أعرف جيدًا أننا لا ننسى، وإنما يجب أن ندرّب أنفسنا على التوقف عن رعاية الحقد والانتقام، حتى لا يفسد الماضي المؤلم حاضرنا ومستقبلنا .

وضعت المشط جانبًا بعد أن نظفته بأناملها الرقيقة، اقتربت منه وأحاطت خصره بذراعها الناعمة العارية وهمست :

- ما أجملك يا زوجي النبيل. فأنت ينبوع الحب الصافي، بوجودك تحلو الحياة وتزدهر أيامي وتهنأ روحي .

لثم خدها بحنان وقال :

- وأنت زهرتي الجميلة التي يجدد عطرها الفوّاح طاقتي الإبداعية مع إشراقة كل صباح .

قالت ضاحكة وهي تغادر غرفة الرسم :

- هذا الغزل الجميل يحرضني على أن أعدّ لك القهوة بنفسي فورًا .

شرع يضع لمسات لونية زرقاء في سماء اللوحة، بينما خايله فجأة طيف مسعدة حجاب، فتوتر وشرد كثيرًا وتساءل بحسرة: (أين أنت الآن يا معشوقتي الأولى... يا أم محمد؟).

61

لم ينصرف النبوي سرحان مع بقية الطلاب بعد انتهاء دروس اللغة الفرنسية، حيث استبقاه الخواجة شارل قليلا. لاحظ الأستاذ أن الحزن ينهمر من عيني تلميذه هذا المساء، ففسر النبوي حالته النفسية قائلا بغضب :

- الغلاء المسعور في ازدياد يا خواجة، والحصول على الرغيف صار عسيرًا جدا حيث ارتفع سعره، إن وجد، بشكل مخيف، والحاج جاد الله الديروطي طرد ثلاثة عمال اليوم من الوكالة بحجة توفير النفقات، ولما حاولت الدفاع عنهم زجرني وهددني بالطرد أنا أيضا .

لا أمان لأصحاب رؤوس الأموال، ولا حدود للطمع، ولا حقوق للعمال، لا وجود لجمعيات تدافع عن المظلومين مثلما يوجد لدينا في فرنسا. قال شارل محاولا مواساة النبوي وباحثا عن حلول للخروج

من المأزق :

- ألا يوجد رجل رشيد يتواصل مع أصحاب السلطة هنا ويطالبهم بتخفيف الأعباء عن الناس !

ابتسم الشاب بسخرية من قلة الحيلة وهتف :

- من أسف، فالوحيد الذي كان يملك الجرأة على مواجهة أي تجاوز في حق الأهالي هو السيد عمر مكرم ! ولكن الوالي لم يرتح لوجوده في القاهرة فنفاه إلى دمياط قبل خمس سنوات !

- دمياط؟

- لقد تركها منذ عامين واستقر به المقام حاليًا في طنطا بعد أن قدم أكثر من التماس للوالي لأنه لم يكن مرتاحًا في الإقامة بدمياط.

برقت الفكرة كالنور المفاجئ في ذهن

الرسام الفرنسي !

62

لم يستطع عصفور الحداد أن يقاوم رغبته أكثر من ذلك، فباح بما يعتمل في صدره إلى الخواجة شارل. كان قد تقصّد الذهاب إليه في أثناء إعطائه دروس الرسم، وبعد انصراف التلاميذ، سأله بوضوح عن والدة الطفل أيوب السبع. وكم كانت المفاجأة السعيدة عندما علم أنها أرملة !

لم يضيّع الفرصة، فبعد أن تابع خلسة تحركات سعدية لعدة أيام، قرر اتخاذ الخطوة الجريئة. انتظرها ذات صباح أمام دارها بحارة المشهد الحسيني وسط أجواء صيفية لطيفة. إنه الموعد المحدد لخروجها اليومي بصحبة ابنها للتوجه نحو مدرسة الخواجة شارل. القلق يعتري العاشق المتلصص على باب الدار فيعبث بشاربه بحثا عن هدوء نفسي لا يتمكن من اصطياده وتدجينه. أخيرًا فتح الباب فزقزق قلبه وارتجف. خرجت سعدية وابنها. بدت رائقة الملامح في جلبابها الأسود النظيف

رغم أنها لم تبدله منذ حشرت حشرًا قبل الأوان في قافلة الأرامل. انعطفت يمينا في اتجاه حارة خان جعفر ثم بيت القاضي فبين القصرين، حتى وصلت إلى حارة الدرب الأصفر. سار خلفهما بتؤدة ومن مسافة مناسبة حتى لا يلحظ السابلة وأصحاب الدكاكين شيئا. اقتحم خصوصيتها عند بيت القاضي في طريق عودتها إلى دارها. سار بجوارها وأوقفها بإشارة من يده وقال بأدب وبثقة لا نهائية :

- يا ست سعدية... أنا اسمي عصفور الحداد، أملك ورشة حدادة صغيرة بدرب الجماميز، وأطلب من الله أن توافقي على الزواج بي !

بهتت المرأة من جرأته لكن قلبها تمايل طربًا، لأن توقعاتها تحققت. وما لم يعرفه عصفور أن سعدية استشعرت ثم لاحظت مراقبته لها، وأنه مهتم بتتبعها، فسألت عنه الخواجة شارل، وعرفت قصته وتوقعت نواياه، لكنها أخبرته باحتشام

يليق بسيدة مهذبة :

- يا أسطى عصفور هذه الأمور لا تناقش في الطريق العام... البيوت جعلت للزيارة والتشاور وعقد الاتفاقات السعيدة !

فانتشى وقفز قلبه إلى عنان السماء فرحًا وحبورًا .

63

جمع بينهما حب الحياة وغريزة البقاء والحزن الشديد، فقد ذاقت حنظل الترمل فجأة ومازالت دون تذمر، بينما كادت حياته تضيع في فوضى القتل، سواء كان قاتلا أم قتيلا، لا يهم. واليوم التقيا بجوار شجرة مورقة تدعوهما إلى الاحتماء في ظلها من حر الشمس وغدر الزمن. وأدت سعدية الصوت المعارض الخفي داخلها، وواجهت قدرها بقوة وعزيمة، وقالت: (أجل... لقد عشقت أيوب السبع بجنون، لكنهم قتلوه، وتركوني أتعذب في صحراء الترمل تسع سنوات كاملة، وهذا يكفي) وقالت أيضا تعاطفا مع أيوب الطفل: (ما أحوج ابني إلى أب طيب وكريم، وما أشد توقي إلى رجل يهبني الأمان والحنان). تناقشت في الأمر مع الخواجة شارل وزوجته، فشجّعاها ودفعاها دفعًا إلى الموافقة، وقالت هيلين وهي تقدم لها العرقسوس المثلج، بينما ترمق زوجها بنظرة محبة وامتنان :

- نحن النساء لا نثمر إلا في حضرة زوج محب وعطوف .

ودعّم شارل الزوج المنتظر بقوله :

- إن عصفور شاب طيب سيغمرك بالمودة والحنان .

وواصل ضاحكا :

- يبدو أن للقدر قوانين لا نعرفها، فقد ظهرتِ يا سعدية في أصعب لحظات حياته حرجًا .

فهمت الإشارة، وأدركت أن عليها اقتلاع بذور تجربته المُرة في الزواج من صدره حتى لا تترك في روحه أثرًا سيئا. قالت لنفسها لتعزيز قناعتها قبل أن تعطي الموافقة النهائية: (صوته الهادئ يسيل عطفا ورجولة).

64

استأجر لها بيتا صغيرًا من غرفتين في الطرف الآخر من دار الخواجة شارل بحارة الدرب الأصفر على مشارف بين القصرين، فرشه بأثاث جيد، وقال لأمه بحزم :

- لا أمل في استمرار الزواج بوجود امرأتين عدوتين غريزيا تحت سقف واحد .

واستشهد بعبارة قاسية تجاوزت عنها والدته :

- المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين !

رمقته بنظرة عتاب وتساءلت بحيرة :

- ولماذا تهجر درب الجماميز وتذهب إلى حارة الدرب الأصفر؟

- من أجل بناء بيت جديد أنعم فيه بالهدوء والسكينة يجب أن أبتعد قليلا .

كاد يقول لها: (يتطاير الشر في فضاء الدار باجتماع الزوجة والحماة) لكنه أمسك حتى لا يؤذي مشاعرها، ثم لثم جبينها، فامتثلت لقراره ودعت له بالتوفيق والسرور .

65

استيقظ أهالي القاهرة على صوت المدافع المنطلقة من القلعة، فساورتهم الظنون وأربكتهم التخمينات، وعمّ اللغط أحياء الأزهر والدرب الأحمر ودرب الجماميز وبولاق، وعرف الناس الخبر اليقين، إنها مدافع الانتصار والفرح، حيث هزم الباشا محمد علي الوهابيين في مدينتي (تربة وبيشة) بأرض الحجاز واستردهما وأسر العديد من رجالهما وربح منهما غنائم كثيرة من الجمال والماعز والخيول. في الضحى نودي بتعليق الزينات أمام الوكالات والدكاكين، وأشيع أن الأسعار ستنخفض وأن الوالي سيوزع الخيرات الكثيرة على الفقراء عند عودته من أرض الحجاز، فضحك رجل مُسن وقال ساخرًا لجلسائه على مقهى الفيشاوي :

- تجاوزت السبعين عامًا، وكلما انتصر مملوك أو جنرال فرنسي تتردد هذه الأمنيات الضائعة، ومع ذلك لم أر طوال

حياتي الطويلة سلعة واحدة سعرها ينخفض في مصر المحروسة إلا سعر الإنسان باعتباره سلعة مملوكة للحاكم !

66

تعرضت زوجة بوغوص بك لوعكة صحية طارئة مطلع هذا الأسبوع، نحلت سريعًا وضربت الصفرة وجهها الرقيق. تألم الرجل وارتبك وبقي بجوارها ولم يذهب إلى مكتبه بالقلعة يومين متتالين. غمرها بحنانه ورعايته واستدعى لها فورًا الطبيب الإيطالي الذي يتمتع بشهرة كبيرة في الحي الإفرنجي، وبالفعل استردت السيدة عافيتها سريعًا، وطلبت منه التنزه على شاطئ النيل، حيث قالت وهي تصفف شعرها :

- ليس لي في هذا البلد سواك يا زوجي الحبيب ... فكم أحب الخروج معًا والجلوس أمام النهر الساحر خاصة في ليالي الصيف .

في الطريق هبت نسائم لينة تناسب شهر يونيو، ولاحظت الزوجة الطيبة الحجم الضخم للزينات التي علقها الناس ابتهاجًا

بنصرة الوالي على الوهابيين، وقالت عن طيب خاطر وهي تشير إلى الزينات :

- المصريون شعب طيب حقا، إنهم يعشقون الفرح ويتفنّنون في جلبه وابتكاره .

ابتسم الرجل مجاملة وذوقا، وقال وهو يساعدها على الجلوس على حجر مستو بجوار شجرة طلح :

- معذرة يا حبيبتي... هذا فرح بالأمر. أتاهم فرمان أن يفرحوا. إذن لابد أن يفرحوا .

قطبت جبينها تعبيرًا عن عدم الفهم، فدنا منها حتى التصق بها وقال وهو يلتفت يمنة ويسرة :

- هذه الزينات علقت بأوامر الشرطة والناس هنا مضطرون إلى تنفيذ هذه الأوامر، رغم أنها تكلفهم الكثير، والوضع الآن بالغ السوء، فالفقر يتزايد ومطالب

الوالي والسلطان العثماني ودول أوروبا لا تنتهي، وأخشى أن يأتي يوم لا نجد في مصر شيئا نبيعه، بعد أن يكونوا قد استنزفوها تمامًا .

جفلت المرأة، وتساءلت :

- لم أعهدك متشائمًا هكذا يا بوغوص .

شرد قليلا وتأمل الشمس الذاوية إلى مستقرها الليلي وقال :

- أخشى على هذا البلد كثيرًا من مغامرات الوالي. صحيح أنه انتصر على الوهابيين في الحجاز، واسترد منهم مدينتي (بيشة وتربة) اللتين تبعدان مئات الكيلومترات عن مكة، ومع ذلك، فالأخبار تقول إنه كان عنيفا جدا مع الوهابيين، وأنه دمر مدنهم وقراهم، وأتخيل أن أهالي الحجاز لن ينسوا هذا العنف، ولن يغفروا هذا التدمير .

- وليكن؟

ابتسم لطيبتها أكثر من سذاجتها السياسية وقال :

- لا يا زوجتي العزيزة. إن المشكلة تكمن في أن المرارات ستظل عالقة في الصدور عشرات السنين، وسيزدهر الحقد وينمو مع الزمن في نفوس أهل الحجاز على مصر والمصريين جيلا بعد جيل، بسبب جرائم الوالي، لكن المحزن أن المصريين لا ذنب لهم في هذه المعارك، فهم لم يحملوا السيوف ولم يضربوا المدافع لأنهم ليسوا جنودًا. إن جيش الوالي الذي دحر الوهابيين مكون من الأتراك والأرناؤوط والمغاربة، ولا يوجد به جنود مصريون! لكن التاريخ سيلصق هذه المعارك بمصر والمصريين، ومن هنا قد يتعاظم، بكل أسف، الغل في نفوس أهل الحجاز من عصر إلى آخر دون أن يدري المصريون عن هذا الغل شيئا !

مرّ بهما بائع ذرة مشوية مهلهل الثياب ضامر الملامح، فهمس لزوجته قائلا :

- انظري... كيف بلغ الحال بأهل البلاد؟

ثم ابتاع منه (كوزين) ذرة وأجزل له العطاء .

تجمّع الأعيان وشيوخ الأزهر وكبار التجار في ساحة القلعة في انتظار السماح لهم بالمثول أمام الوالي لتقديم التهاني والتبريكات بالانتصار على الوهابيين، وبحوزة كل واحد منهم جعبة من كنوز الذهب والفضة والتحف والسيوف والخناجر المطعمة بالأحجار الكريمة والأقمشة الفاخرة ليقدموها هدايا لمحمد علي باشا احتفالا بعودته سالمًا وبنصره الحاسم على الوهابيين واسترداد المدن المقدسة، علاوة على مدينتي (تربة وبيشة) من قبل أعداء السلطان العثماني. بينما انزوى رجال الخدم الخاصين بكبار القوم على مقربة منهم رهن الإشارة .

الشمس حارقة، والنسيم منعدم، والانتظار طال، والحرس الأرناؤوط ذوو البشرة الوردية والعيون الملونة ينتصبون كالأوتاد أمام الباب بملابسهم الرسمية وأسلحتهم العامرة ليمنعوا الجميع من

الدخول، ولا يقدمون تفسيرًا لذلك. إنهم صامتون... جامدون... متأهبون. وصاح الحاج جاد اللّه الديروطي يائسًا :

- متى سنشرف بالمثول في حضرة الوالي... نحن نقف هنا منذ خمس ساعات وشمس يوليو لا ترحم !

حاول شيخ الأزهر أن يستفسر عن السبب في عدم السماح لهم بمقابلة الوالي فلم يتلق أي إجابة، وبعد نصف ساعة أخرى من العذاب والعرق اللزج خرج عليهم إبراهيم باشا بكامل زينته وقال للملأ بنبرة جادة :

- حضرة ولي النعم سيمنحكم شرف الوقوف بين يديه عندما ينتهي اجتماعه مع سعادة القنصل الإنجليزي .

ثم ذهب من حيث أتى، فسار لغط وتساءل أناس أربكتهم الحيرة :

- لم نر أحدًا يدخل عرين الوالي، متى جاء هذا القنصل؟

- ربما وصل قبل حضورنا .

- نحن هنا منذ الثامنة .

- مقابلة الحكام ليست أمرًا سهلا، إنه أمل بعيد المنال معجون بالشقاء والعذاب .

مرّ بينهم السقاء ليوزع عليهم أقداح المياه، اضطر كبار السن إلى افتراش الأرض قبل أن يسقطوا من الإعياء، وبعضهم أمر خادمه بالذهاب لشراء بعض الطعام، وثالث طلب الخروب المثلج. ولما انتصف النهار انطلق أذان الظهر من مسجد السلطان حسن بصوت جميل، فتحيروا، هل يتركون مواقعهم ويذهبون إلى الصلاة، أم ينتظرون فقد يُسمح لهم بالدخول بين لحظة وأخرى؟

فجأة سمع صوت حوافر خيل مصحوبًا بغبار

رملي ساخن، التفت الجميع باهتمام فرأوا العربة الخاصة بالقنصل الفرنسي ذات اللون الأزرق والتي يجرها جوادان تخترق الباحة الكبرى بالقلعة، وتقف عند المدخل الرئيس تمامًا. لم ينزل منها القنصل، إلا عندما جاء إبراهيم باشا مسرعًا لاستقباله عند الباب بحرارة أشد من شمس يوليو، ثم اصطحبه إلى الداخل، وسط سخط مكتوم من قبل المنتظرين تحت سياط الطقس اللاهب !

وقبل أذان العصر بعشرين دقيقة، خرج إبراهيم باشا وبصحبته كل من القنصل الفرنسي والقنصل الإنجليزي، صافحهما بحرارة مودّعًا ثم شيعهما بابتسامة عريضة، ولما استقل كل منهما عربته واندفعتا مسرعتين للخروج من القلعة، تنحنح إبراهيم باشا بصوت عال، فانتبه الجميع الذين أنهكهم الانتظار والسأم ونيران الشمس. اقتربوا منه ووقفوا أمامه كيفما اتفق. رمقهم ابن الوالي بنظرة عميقة حادة قبل أن يقول :

- حضرة وليّ النعم يشكركم على مشاعركم وهداياكم، ويطلب منكم أن تسلموا الهدايا للحرس، لكنه لن يراكم اليوم، وقد يلتقي بكم في الغد !

كظم المنتظرون غيظهم وتبادلوا نظرات أسى واستنكار واحتقار للذات وشعور بالمذلة، تمتم الحاج جاد الله الديروطي بكلمات خفيضة خشية سماعها (لقد أذلنا الوالي بفلوسنا)، ثم غادروا القلعة يقتاتون خيبة الأمل وسط الغبار والقيظ والعرق !

68

لما عاد إبراهيم باشا إلى أبيه فوجئ بوجود شركان الناغي، فتساءل متعجبًا متى استدعاه؟ وقد لاحظ أن الرجلين ينظران إلى جبل المقطم من النافذة بتركيز شديد، فنهشه فضول كبير وسأل والده :

- هل من أمر يا أبي؟

التفت الوالي وقال بهدوء :

- لا شيء... دعهم يحضروا لي قطتي المفضلة .

ثم سأله فجأة :

- ماذا تقول يا إبراهيم في جبل المقطم؟

لم يفهم الأمير، لكنه قال بأدب ودبلوماسية وهو يوزع نظره بتوتر بين الحاكم والساحر :

- القول قولكم يا وليّ النعم. سموكم يأمر ونحن ننفذ .

ماذا يقصد الفتى؟ مذ عدت من الحجاز ونظراته مكسوة بشذرات مبهمة. لقد ذاق لذة السلطة في غيابي وهو بالصعيد، فهل كان يتمنى موتي ويستحوذ على السلطة في مصر كلها؟ توجه نحو كبير السحرة صائحًا بيأس :

- ألم أقل لك يا كبير السحرة؟ لا أحد في القلعة يفهم ما أريد .

تنهد الناغي وقال وهو مازال يرنو إلى سفح الجبل :

- للقادة الظافرين رؤى عظيمة لا تصل إليها أعين الآخرين، ومنكم يتعلم ابنكم البكر. حفظكما اللّه من كل سوء .

ثمل الوالي بالإطراء، وحضر الخادم حاملا القطة السيبيرية البيضاء، فتلقاها بحنان

بالغ وربت ظهرها بأنامله برفق وهو يتوجه نحو جلسته المفضلة على أريكته الخاصة وقال :

- حسنا يا ناغي... آه لو يرشدنا سحرك الفعال إلى طريقة نزيّن بها جبل المقطم باللون الأخضر .

ثم أضاف بحزن بيّن :

- للأسف، فقد وصلني تقرير من المهندسين الفرنسيين يعلنون فيه أن زراعة جبل المقطم مسألة مستحيلة لأنهم سيضطرون إلى تكسير صخوره، الأمر الذي سيهدد أمن القاهرة لأنه بوابة دفاع طبيعية جهة الشرق. ومع ذلك دعني أخبرك يا ناغي أنني كرهت هذه القساوة الرابضة أمام مقر حكمي، فهي دعاية سيئة، وتصدر انطباعًا كاذبًا عنا لدى قناصل الدول الأوروبية وكل شخصية مهمة تفد إلينا ونستقبلها ها هنا في مقرنا. بل ضد ما ينعم به رعايانا المصريون

من الرغد وسعة العيش والرخاء الذي يعم أرجاء مصر كما ترون أنفسكم بفضل قيادتنا الرشيدة وعملنا الدائب من أجلهم !

فهتف الرجل بجدية غريبة :

- كل علوم السحر سأخصصها لخدمة وليّ النعم وتحقيق رغباته .

رنا إليه بعمق وردد خاطره: (آه لو علمك هذا يكشف لي ماذا يدور في عقل ابني البكر؟ لقد صارت له نظرات غير مريحة لم أعهدها فيه من قبل). ثم بحركة عصبية جذب نفسًا من الشيشة، ثم أمر ابنه بهدوء :

- دعهم يجلبوا الهدايا لأعرف ماذا قدم لي أعيان المصريين وشيوخهم !

69

استقبلته في جناحها الخاص بجسد مكتنز وثياب شفافة ونظرات سعادة. كانت منكبة فوق سرير إيطالي فاخر تتفحص بنهم الهدايا الذهبية التي تلقتها من زوجات كبار الأعيان والتجار والشيوخ . قالت بفرح طفلة وهي ترفع براحتها اليمنى سوارًا من الذهب لتتأمله بصورة أفضل في ضوء الثريا المدلاة من السقف، وقد انعكست أضواؤها على محيط السوار جميلة براقة :

- ما أجمل الذهب حين يطوّعه صائغ ماهر... انظر إلى روعة هذا السوار يا محمد... شكرًا لك يا زوجي الحبيب .

وأضافت مازحة وهي تعبث بالحلي والأساور والعقود والأقراط سكرى بوسوسة الذهب :

- فلتبحر في الصحراء ولتنتصر كل يوم على عدو خسيس، لأتلقى الهدايا الثمينة

بغير حساب !

ثم أكملت وهي تشير إلى الأفعى اللولبية المكومة في صندوقها الزجاجي :

- هذه الأفعى تجلب الحظوظ الطيبة وتحقق الأمنيات المستحيلة، فالخيرات تنهمر علينا منذ جئتني بها قبل أعوام .

فلثم راحتها وهمس :

- أي انتصار أحققه فهو بفضلك يا أمينة، وكل هدايا العالم لا تساوي التراب الذي تسيرين فوقه .

قبلته بصوت مسموع، وقالت بدلال فتاة يتناقض مع أعوامها الخمسة والأربعين :

- أحبك يا محمد... أحبك يا باشا .

ضحك الوالي ولثم فاها في قبلة خاطفة وصاح :

- أحبك يا أمينة يا هانم... أنت الباشا ونحن عبيدك !

70

لولا عصفور الحداد لاستحوذ المتشردون الجائعون على الطيور القليلة في دكان عويس الفرارجي وذبحوها وربما أكلوها نيئة من شدة الجوع، فالغلاء الفاحش الذي يكوي الأكباد دفع الكثير من الناس إلى استعمال القوة والبلطجة وقطع الطريق للحصول على غذائهم، غير مبالين لا بأعراف ولا أصول ولا شرطة ولا قوانين، فالجوع كافر، والمعدة الفارغة لا تعرف الحلال والحرام، ولا تهمها فضيلة احترام قوانين البيع والشراء. ومادامت الجيوب بائسة بلا ريالات أو دراهم أو قروش فالأيادي سلاح المحرومين والعنف قانون اليائسين. هكذا انتشرت في حواري القاهرة ودروبها وأزقتها مجموعات هائمة من الفقراء والجوعى والمتسولين يخطفون ما تطوله أياديهم وهو شحيح ليسدوا به جوعهم المرذول. وقال عويس لعصفور قبل أن يهم بغلق دكانه عقب أذان المغرب :

- تخيل... لم أبع دجاجة واحدة طوال اليوم... الأجواء تنذر بقلق كبير ومخيف !

- احمد الله أن بحوزتك حفنة دجاجات... الناس مساكين... تسربت من بين أياديهم أموالهم الشحيحة .

تنهد صديقه وصاح وهو يجفف عرقه بكم جلبابه بسبب الحر الشديد :

- وتجارنا الكبار لا يخجلون... حملوا الهدايا الثمينة إلى الباشا تقربًا وزلفى، وصعدوا بها أمس إلى القلعة، ومع ذلك رفض لقاءهم، لكنه استولى على هداياهم !

غمغم عصفور حزينا :

- مصالحهم مع الوالي جعلتهم يقبلون إهانته لهم صاغرين وأنستهم واجباتهم نحو الفقراء... ما أكثر المظلومين في بلادنا يا صديــ

وفجأة اقتحم الدكان مجموعة شاردة من

الجوعى، عيونهم جاحظة وأبدانهم منهكة والعرق يسيل من جباههم بغزارة. دفعوا عويس بقوة فسقط على الأرض متعثرًا بأقفاص الطيور، لكن عصفور هرع إلى إغلاق باب الدكان على نفسه من الداخل قبل أن يقتربوا من أقفاص الدجاج، وصاح طالبًا النجدة. فهمّ أهل درب الجماميز والأزقة القريبة إلى طرد الدخلاء بعد معركة قصيرة أبلى فيها الشاب حمدان البلتاجي بلاءً حسنا، ثم فتح باب الدكان وقال عويس لصديقه شاكرًا وهو يلهث :

- لولاك... لفقدت الدجاجات العشر الباقية !

وأضاف مشيرًا إلى حمدان الذي مضى يمسح عرقه بكم جلبابه الرمادي ويعيد ترتيب الأقفاص بهمة :

- هذا جاري الطيب حمدان البلتاجي الذي التحق بمدرسة المهندسخانة التي فتحها الوالي بحوش السراية مؤخرًا. لقد أدّب المهاجمين وأصاب بعضهم بقوته ورشاقته

.

فقال حمدان مفاخرًا بصوت عالي النبرة :

- أنت أخي يا عويس، واللّٰه العظيم لو تمادوا لكنت قضيت عليهم جميعًا .

ابتسم عصفور وربت كتف صديقه الذي دعاه إلى تناول الخروب على مقهى المعلم فجلة، لكنه اعتذر قائلا :

- معذرة... مشواري طويل حتى الدرب الأصفر، ولا أريد أن أتأخر عن زوجتي !

تمنى له عويس السعادة والهناء وقال ممازحًا بمحبة :

- عقبى لنا يا صاحبي .

فضحك حمدان البلتاجي وهتف :

- يارب .

اخترق عصفور درب الجماميز بين شبكة من الحواري والأزقة حتى بلغ الغورية، الهواء منعش والظلمة تتزايد مع اختفاء القمر . لاحظ عصفور أن معظم الدكاكين مغلقة بسبب الفقر والفوضى. عند جامع قنصوه الغوري لمح شبح امرأة. امرأة اتخذت موقعها بذكاء لتصطاد. هزته المفاجأة. إنها مبروكة بائعة الخضروات تعرض بضاعتها في الخفاء. صافحته بوجه حزين رغم الأصباغ التي لونت بشرتها. قالت بصوت ضعيف :

- أهلا سي عصفور... لم أرك منذ زمن... كيف أحوالك؟

- بخير... ما أخبارك أنت يا مبروكة .

- نحمد الله .

وبسرعة أخبرته لتطمئنه :

- لديّ مكان أفضل من الخرابة. غرفة قريبة

في الباطنية !

أشفق عليها وقال لها بقلب موجوع :

- أشكرك... لن أستطيع .

ثم دسّ راحته في سيالة جلبابه وأخرج قطعة معدنية فئة الريال الفرانسة ووهبها لها وهو يقول بصوت هامس :

- ربنا يتوب عليك .

وأسرع الخطى نحو سعدية بقلب عامر بالحب يهفو إلى اللقاء الحلال .

71

ما أجمل الحب، وما أعذب الزواج عندما يسود التفاهم النفسي بين الزوجين، وحين تتحول الحماة من كائن مقيم يشعل الحرائق إلى زائر لطيف يلهج بالدعاء

والستر للأحباب. وها هو عصفور الحداد ينعم بعروسه الجديدة ويقول لنفسه :
(ليس للحياة طعم بدون سعدية، ولا أمل في هذه الدنيا إذا لم يتربع قلب امرأة عطوف ومحبة على عرش زوجها).
وهمس ذات مساء في أذنها برقة شديدة :

- كل هذا الحنان في قلب امرأة واحدة، فماذا أبقيت لنساء العالمين؟ ما أجملك يا زوجتي الحبيبة .

أما سعدية، فقد اكتشفت في زوجها مزايا جديدة مثل الكرم الزائد والحنان الجارف وحب الشعر والعطف على صغيرها والاهتمام به، فقالت لنفسها: (محظوظة المرأة التي تعثر في طريقها على رجل له قلب كبير وروح طيبة)، وباحت له ذات ليلة بعد سهرة ساحرة من الاندماج الساخن الجميل :

- ليتني أنجب لك عشرة أبناء لنملأ مصر المحروسة بالمحبة والوئام .

حرصت سعدية أشد الحرص على عدم ذكر زوجها الراحل أيوب السبع بطيب أو ردي قط أمام زوجها الجديد، هذا الحرص أتى من غريزتها الأنثوية التي ألهمتها بأن أي رجل لا يطيق أن يعرف أو يتذكر أن امرأته كانت يومًا بين أحضان رجل آخر حتى لو صار من الأموات. حتى الصورة الوحيدة التي رسمها له الخواجة شارل في عام 1805 ، أزالتها من فوق الجدار وأخفتها في أشيائها الخاصة. قالت لنفسها عن قناعة تامة: (عندما يكبر أيوب الصغير، فليحمل معه صورة أبيه أيوب الكبير ويزين بها داره). نعم الزوجان بحياة رخية لا شائبة فيها، وتوطدت علاقتهما بالخواجة شارل وزوجته هيلين حتى أبلغها عصفور ذات ليلة من ليالي الخريف بقراره المفاجئ !

72

انطلقت القافلة قبيل الفجر بنصف ساعة لتحتمي بالظلمة. الهدف واضح ومحدد، وهو الوصول إلى دار السيد عمر مكرم بطنطا وإنشاء صورة له بالألوان الزيتية. اتفق الخواجة شارل مع عصفور الحداد والنبوي سرحان على القيام بالرحلة سرا، فهو يعرف جيدًا أن عمر مكرم شخص مغضوب عليه من قبل الوالي، وأنه منفي هناك منذ سنوات طويلة، وقد قال لهما بوضوح :

- إذا تعرض لنا رجال الشرطة، فكلامنا ينبغي أن يكون واحدًا وهو : أنا ذاهب لأرسمه بناءً على طلب من ذويه، وأنتما المساعدان لي .

وهكذا أعد العدة جيدًا للرحلة، وتكفل بنفقاتها كلها . استأجر جوادين لرفيقيه، بينما امتطى جواده الأصيل، وأعدت لهم هيلين بمعاونة ياقوتة الزاد والعتاد

اللازمين للطريق، وزودتهم سعدية بالكثير من الفواكه والخضروات الطازجة. وأصر شارل على التزود بالمياه فحملوا معهم العديد من القنينات رغم أن عصفور قال له أمس ضاحكا :

- في مصر المحروسة، ما أكثر المياه، فنحن نعيش بجوار النيل، فلا تقلق يا خواجة .

وحين أخبر عصفور زوجته بالرحلة انقبض قلبها، تذكرت الماضي الأليم وكيف قتلت الشرطة زوجها أيوب السبع في ليلة غدر سوداء، فقالت له بقلق :

- لا تقتربوا من رجل أزعج الحاكم فنفاه. وقالت أيضا :

- لا أمان لمحمد علي .

لكنها لم تشأ أن تبدي خوفها أمامه أكثر من اللازم عندما لمحت الإصرار يشرق في

عينيه .

أما النبوي سرحان فقال للخواجة بثقة شديدة :

- أعرف أن الحراس الأرناؤوط يقفون بالمرصاد أمام دار السيد عمر مكرم، لكن الأموال تفتح دومًا الأبواب المغلقة .

ثم أضاف :

- كل الجنود يعشقون المال من أول الباشا محمد علي نفسه حتى أصغر جندي يقف حارسًا أمام دار رجل عارض الباشا قديمًا .

فعقّب الرسام مصححًا :

- الناس كلها تعشق المال، ولكن صاحب الضمير فقط هو الذي يرفض الحصول عليه دون وجه حق .

قبيل الفجر بنصف ساعة انطلقت القافلة من الدرب الأصفر نحو الأزبكية وسط أجواء

خريفية رائعة، حيث وضع كل من عصفور والنبوي خنجرًا في جانبه، بينما تسلح الخواجة شارل بطبنجة تحسبًا لغدر الطريق. وامتلأت صدور الرجال بآمال كبيرة، رغم الضجيج الصوتي الذي يسببه نباح الكلاب وصياح الديكة. داروا حول بركة الأزبكية لينحدروا باتجاه بولاق وساروا بمحاذاة النيل حتى بلغوا شبرا الخيمة مع شروق الشمس، فتهلل وجه الرسام الفرنسي وصاح :

- ما أجمل منظر الريف .

لكن مع مواصلة السير اكتشف حجم البؤس الذي يغمر حياة الفلاحين المصريين. شاهد الفقر المدقع يقف بصلافة ساخرًا أمام القرى والبيوت المهترئة. تأمل العرق السائل من جبين رجل مُسن يحرث الأرض بهمة. تابع امرأة عجوزا تجر جاموسة لترعى، لكن قدمها انزلقت في الأرض الطينية فانكفأت على وجهها فانخلع قلبه وهو يرى الرجال

يسعون لنجدتها. تمزقت حواسه وهو يشاهد الذباب يعبث في عيون الأطفال شبه العرايا الذين يلهون أمام دورهم المتقشفة. تساءل مستنكرًا: (كيف يُقبَل أن يعيش الأثرياء في مصر المحروسة في ظل النعيم بينما الناس هنا ينهشهم الفقر والحرمان بصورة لا تصدق؟).

عند بنها أخذوا قسطا من الراحة، وأدى كل من عصفور والنبوي صلاة الظهر في مسجد قريب، بينما تولى الرسام ابتياع كميات من البرسيم من سوق المدينة لتقتات الخيول. تناولوا غداءً بسيطا تحت ظل شجرة طلح معمرة كثيفة الأغصان، حيث قال لهما الرسام :

- دعونا لا نسرف في الطعام حتى لا يهاجمنا سلطان النوم .

ثم انطلقوا نحو مبتغاهم بسرعة أكبر، فبلغوا مشارف طنطا مع أذان العشاء، قصدوا دار السيد عمر مكرم بسهولة

عندما سألوا أحد العابرين عن مكانه .

كما توقع النبوي سرحان، فأكياس المال أسالت لعاب الحراس الأرناؤوط بعد تردد قصير، ففتحوا الأبواب الموصدة مرحبين بالزائرين وسط ظلمة كثيفة، فدلف المغامرون الثلاثة إلى صحن الدار، بينما تسرع ضربات قلوبهم ويزداد خفقانها .

73

استقبلهم المنفيّ الحزين مذهولا، وسألهم وهو يصافحهم بحرارة :

- هل جئتم من مصر المحروسة حقا؟

بدا السيد عمر مكرم رجلا مُسنا في منتصف عقده السابع، نحيل القوام ذا بشرة خمرية غامقة، تتجلى في عينيه السوداوين الغائرتين آيات الحكمة التي تلقاها من غدر الأنام والأيام، أما لحيته فرمادية مشذبة بعناية. وقد ارتدى جلبابًا ناصع البياض واعتمر عمامة خضراء ضخمة، في ظهره انحناءة بسيطة بفعل النفي والزمن والانكباب على القراءة. جال الخواجة شارل ببصره سريعًا في الغرفة البسيطة التي جلسوا فيها، فلم يجد سوى أريكة خشبية مغطاة بسجادة فارسية قديمة، وحصيرة تنهب مساحة الغرفة، بينما في الركن القصي وضعت قلل المياه وأدوات القهوة والأقداح

الفخارية .

على ضوء قنديل مثبت في الجدار تولى عصفور الحداد شرح المهمة التي جاءوا من أجلها، وكيف أن الخواجة شارل يحلم منذ فترة برسم لوحة تصوّر وجه الزعيم النبيل. أنصت إليه الرجل باهتمام وهو يتفحص الزوار بعينين مجهدتين، ثم تساءل بهدوء :

- لماذا فكرت في رسم صورتي؟ وما الهدف من ذلك؟

قال شارل بحماسة :

- رسم صورة لرجل عظيم مثل جنابكم هو هدف في حد ذاته، كما أنني عايشت الكثير من مواقفكم النبيلة قبل حملة بونابرت على مصر وفي أثناء وجودها وما بعدها حتى أجبروني على مغادرة القاهرة في نوفمبر 1805 ، وأعلم جيدًا مقداركم عند رجل الشارع والصنايعي والفلاح وحتى

الموسرين من أبناء البلد. الكل يحترمكم ويعتز بكم، لذا فرسم صورة لكم مهم وضروري كمثل يحتذي به شباب مصر وشعبها. وقد رسمت الباشا الوالي بأمر منه، والآن أحلم برسم صورتكم برغبة شخصية خالصة لتذكير شعب مصر بكم دائمًا .

ابتسم الزعيم القديم وغمغم قائلا :

- الرسم شيء جميل، والحلم أجمل منه !

ثم رنا بعمق إلى الرسام ذي العينين الخضراوين وقال بأسى :

- ليتهم مثلك جاءوا إلى مصر حالمين !

تبودلت نظرات استفهام بين الحاضرين، فقال الرجل بأسى بعد أن أمر خادمه بإحضار القهوة وإعداد طعام العشاء سريعًا :

- من أسف أيها الفنان الفرنسي، فكل

الذين دخلوا مصر من الأجانب كانوا طامعين، لا حالمين. يرفعون السيف أو البندقية لا القلم أو الريشة. لقد قرأت تاريخ مصر بامتداد القرون الذي سجله كل من ابن تغري بردي في كتابه الضخم (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)، وابن إياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور)، واكتشفت أن المماليك والعثمانيين والفرنساوية بقيادة بونابرته والإنجليز وأخيرًا الأرناؤوطي محمد علي باشا، كلهم دخلوا مصر غزاة ومحاربين وطامعين، يتقاتلون من أجل الوصول إلى السلطة والاستحواذ على أموال الناس بالباطل. كلهم قتلوا ونهبوا وحكموا وأمروا، حتى الوالي الحالي الذي ظلمني ونفاني أخلف وعوده معنا، تظاهر بأنه طيب ورحيم وأنه على الشعب عطوف وحنون فصدقناه وبايعناه، وأنا بنفسي من ألبسته عباءة الحكم، لكنه خدعنا جميعًا، فلما تمكّن من الحكم بطش ونفى وقتل ليصبح الحاكم الأوحد الذي لا يعرف الرحمة، فأذل الناس وفرض عليهم الضرائب الباهظة، وجمع

الأموال الطائلة بالقوة ليبني لنفسه وعائلته القصور الباذخة في شبرا والقلعة وبولاق ورأس التين. ألم أقل لك أيها الفنان الفرنسي : ليتهم دخلوها حالمين .

بداية لم تكن في الحسبان، فالمرارة مازالت تتأجج في الصدر، والحزن لم يزل مقيمًا في الصوت والنبرة والوجدان ونظرة العينين، وسأله النبوي :

- كيف يدخلونها حالمين يا شيخنا الجليل؟

تناول الرجل رشفة من قهوته وقال :

- المصريون يا بنيّ شعب طيب يستقبلون الغرباء بمودة واحترام إذا جاءوا ليعمّروا ويبنوا، ألا تذكر قول الله عز وجل في القرآن الكريم: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين؟)، لكن كل من حكم مصر في القرون الأخيرة كانوا من الأجانب الذين دخلوها طامعين ليسيطروا وينهبوا وينعموا بخيراتها، وقد تركوا الشعب غارقا في

الفقر والجهل والمرض، ولو كان هؤلاء الأجانب دخلوا مصر عشاقا لها ولأهلها، حالمين بتحقيق العدل وتطوير البلد وتعليم أبنائه من أجل أن تصبح مصر دارًا ضخمة للعشاق، لوضعهم الناس فوق رؤوسهم، لكن للأسف، الكثير من هؤلاء الأجانب دخلوا مصر سعيًا وراء السلطة وجني المال الحرام، وهو ما نرفضه تمامًا تمامًا تمامًا، إذ يجب أن يحكم مصر واحدٌ من أبنائها الشرفاء المتعففين كي يقيم العدل بين الناس، أما الأجانب، فأهلا وسهلا بهم لو شاركوا في بناء وتعمير البلد، لا ليحكموا وينهبوا ويبطشوا .

تشجع النبوي وقال :

- ولكنهم إذا دخلوها حالمين فلن يربحوا الأموال الطائلة يا مولانا !

قطب الرجل المزوّد بحكمة السنين جبينه وأجاب بصوت رخيم :

- لا... لا... غير صحيح يا أبنائي، فالأحلام الطيبة مربحة أيضًا... مربحة للمال وللوطن ولراحة الضمير.

ساد صمت للحظات، ثم انبرى عصفور هاتفا :

- ولكن الناس تقول إن محمد علي باشا يبني الجسور وينشئ المصانع وينشر الأمن، ويســ

فقاطعه السيد عمر مكرم صائحًا :

- لكنه لا يقيم العدل، والعدل أساس الملك. وعندما يسود العدل تجد المواطن يبذل الجهد ويبتكر ويخترع ويطور مهاراته وهو ضامن حقه في التقدير والتقييم، كما أنه لا يمكن إرساء قواعد العدل إلا من خلال أنظمة الحكم الحديثة التي طورتها أوروبا كما عرفنا، أي إنشاء نظارات لترسيخ العدالة الاجتماعية والحماية والأمن وتعزيز نظام شورى يقرره الشعب نفسه ويرتضيه

وتسري قوانينه وأعرافه على الجميع دون تمييز بسبب اللون أو العرق أو الثروة أو الدين أو القرب من السلطان. هل أنا الذي يقول لك ذلك يا خواجة شارل؟ أنت فرنسي أوروبي وتعلم كل ذلك، لكن الباشا محمد علي رجل غادر مهووس بالسلطة خدعنا جميعًا بالكلام المعسول، وها هو يحكم مصر بالحديد والنار منذ عشرة أعوام، ومع ذلك فأحوال الناس من سيئ إلى أسوأ، والدليل أن مصريا واحدا لم يُعيّن مسؤولا ذا منصب رفيع في نظارة أو إدارة، بل كل معاوني الوالي ومستشاريه وعساكره من الأجانب !

ثم بنبرة أستاذ خبر الحياة بحلوها ومُرّها :

- ما قيمة أي بناء إذا تركت الإنسان خربًا من داخله، يشعر بالظلم ويكابد المذلة؟

انفعل الرسام بهذا الرأي وأمعن النظر في ملامح الرجل بإعجاب، وعاد السيد عمر مكرم يقول بأداء حاسم وحازم :

- يا أبنائي... لقد منحني المنفى وقتا طويلا لتأمل هذه الحياة بتناقضاتها وصراعاتها وحلوها ومرها، وتوصلت إلى أن العدل ثم العدل ثم العدل هو الذي يزيل الأحقاد ويؤكد الانتماء ويقضي على السلبية واللامبالاة. والعدل لا يعني حكم القضاء العادل فحسب، بل يعني النهوض بالزراعة والصناعة والتعمير والتجارة في كل ربوع مصر، لا القاهرة فقط. العدل يعني عدم بخس الناس أشياءهم أو الاستيلاء على مجهودهم بنظام بغيض مثل نظام الالتزام والاحتكار الذي أقره الوالي الظالم. العدل يعني صرف موارد الدولة في بناء المدارس والمصانع والمستشفيات، لا إنفاقها على الجيوش وبناء القصور الفارهة فقط، بينما صار غالبية المصريين قاب قوسين أو أدنى من الموت بسبب الفقر والمرض. باختصار يا أبنائي، العدل هو الذي يحقق الانسجام الاجتماعي ويؤسس المدن الفاضلة .

74

قضى الخواجة شارل وصاحباه ليلتين في دار السيد عمر مكرم. رسم له شارل خلالها عدة اسكتشات سريعة من زوايا مختلفة بقلم الفحم وألوان المياه، على أن يشرع في رسم صورة ضخمة له بالألوان الزيتية عندما يؤوب إلى داره ومرسمه. وفي طريق العودة إلى القاهرة ظلت ترن في مخيلته نصيحة الرجل المنفي وهو يودعه مصافحًا بحرارة :

- قل لأصدقائك من الفرنسيين، ولكل بني أوروبا: تعالوا إلى مصر... ادخلوها... عيشوا فيها، انصهروا مع أهلها، ولكن لا تدخلوها قتلة وطامعين وجشعين ونهازي فرص، وإنما ادخلوها حالمين بتحقيق العدل وإنشاء المدارس وبناء المصانع ونشر الفنون الجميلة في مصر المحروسة. لقد سبقتمونا إلى التقدم والحضارة فعلمونا بالرفق والمحبة، لا بالبغي والعدوان، واجعلوا مصر دارًا كبيرة للعشاق.

وصدقني... لن تخسروا، بل ستربحون الكثير والكثير من الأموال .

عند بنها، ترجلوا من فوق خيولهم لينالوا ودوابهم نصيبا من الراحة بجوار شجرة الطلح نفسها التي ظللتهم في رحلة الذهاب. تناولوا ما تيسر من طعام ثم توجه الشابان لأداء الصلاة، بينما استلقى الرسام على ظهره متأملا القبة الصافية الزرقاء مستمتعًا بدفقات الهواء المنعشة. استعاد ملامح السيد عمر مكرم وحواراته فابتسم وقال بصوت مسموع: (لقد أوتي هذا الرجل من الحكمة الشيء الكثير)، قرر أن يقص على زوجته تفاصيل اللقاء النادر، لكن حديث النفس عن الزوجة استدعى ذكرى المرأة الغائبة في النسيان مسعدة حجاب وابنهما محمد، فاختلج فؤاده بالحنين، ولما عاد رفيقاه استأذن منهما، وقام يفتش عنهما في المدينة عله يعثر على أثر أو خيط يوصله إليهما. عاد بعد ساعة حزينا، لكن صوت السيد عمر مكرم تجلى فجأة في أذنه وهو يقول: (ادخلوها

حالمين ولتجعلوا مصر دارًا للعشاق)، فصاح مباهيًا دون سابق إنذار :

- أنا أول فنان يرسم السيد عمر مكرم في منفاه !

75

نودي بتعليق الزينات في الحارات والأزقة وأمام الوكالات والدكاكين احتفالا بعودة الأمير أحمد طوسون باشا ظافرًا من أرض الحجاز. لكن عويس الفرارجي رفض الامتثال إلى الأوامر الصادرة من القلعة، ولم يعلق الزينات، فبدا دكانه عاريًا مثل دجاجة مسلوخة ومنزوعة الريش، وفي المساء حذره عصفور الحداد قائلا وهما يحتسيان القرفة على مقهى المعلم فجلة :

- لا تكن عنيدًا... رجال الشرطة يرصدون المخالفين لأوامر الوالي ويتوعدونهم بسوء العذاب .

ابتسم عويس وتساءل :

- الأمير طوسون باشا انتصر في الحجاز وعاد إلى مصر المحروسة، فما لنا نحن؟ هل انخفضت الأسعار؟ هل تراجع الفقر؟

هل تحسنت أحوال الفقراء؟ يا رجل... رطل العنب الشرقاوي الذي كان يباع بنصف فضة صار بعشرة، والبطيخة الواحدة التي كانت تباع بنصفين صارت بعشرين وثلاثين فضة. أي زمن أغبر هذا؟

- معك حق، الغلاء بات وحشا كاسرًا يذل أعناق أعتى الرجال !

- أقسم بالله يا عصفور، ما أكثر الأيام التي تمر بي دون أن أبيع دجاجة واحدة !

ثم بغضب لم يستطع كتمانه :

- أليست الزينات تحتاج إلى أموال؟ من أين وحركة البيع والشراء متوقفة؟

أشار له عصفور براحته أن يخفض صوته، ثم همس محذرًا وهو يتلفت حوله :

- نحن في المقهى... الجم مشاعرك وحاسب في كلامك !

فتنهد يائسًا وأجاب بنبرة تهدئة وهو يهش ذبابة تحوم حول قدح القرفة :

- سأعلق الزينات يا سيدي... سأعلّقها غدًا... هل ارتحت؟

وواصل ساخرًا :

- وليفرح طوسون باشا بزينة عويس الفرارجي !

76

لم تستطع صوفيا مقاومة المشهد الساحر للنيل ساعة الغروب، فوقفت في شرفة قصرها بشبرا تتأمل صورة الشمس الغارقة في الماء العذب قبل أن تختفي تمامًا، وتملأ صدرها بالنسائم الشاردة القليلة لأغسطس بفرح وسعادة، ورغم أن حبيب القلب وعدها بأنه لن يغيب أكثر من يومين، إلا أنه أخلف وعده، وها هو اليوم الخامس يكاد ينقضي دون أن يلوح طيف الحبيب الغائب. من جلستها في الشرفة بثياب وردية اللون تأملت بفرح المراكب الراسية في الماء وتابعت بحبور الطيور السابحة في السماء، وقبل أن تنحسر بقايا الشفق الأحمر هلّ الأمير طوسون بابتسامته المشرقة تسبقه لهفته الدائمة. ضمها إلى صدره بشوق وحنان وهمس في أذنها :

- معذرة يا حبيبتي... تأخرت كثيرًا عليك، لكن الاحتفالات والعزائم بعودتي من قبل

النظار والأعيان وكبار التجار في مصر المحروسة لا تتوقف ويجب أن أكون حاضرًا .

فقالت بأداء يؤكد الصفح :

- أفهم يا حبيبي ذلك... فأنت البطل المحبوب .

ثم بدلال وهي ترنو إلى النيل :

- ياه... يا طوسون... ما أجمل مصر، وما أرق النيل. تخيل... خمس سنوات تقريبًا ونحن بعيدان عن هذا المنظر الساحر. خمس سنوات ونحن نهيم في صحراء قاسية تدمّر الروح وتفسد الوجدان وتقصف العمر .

لثم خدها بشوق ثم اصطحبها إلى الداخل وقال مؤكدًا :

- معك حق يا صوفيا، ولولا وجودك معي لصارت حياتي في أرض الحجاز بالغة التعاسة والكآبة .

ثم توجه نحو الشمعدان الذهبي الكائن في ركن الغرفة فوق منضدة إيطالية الطراز مصنوعة من خشب الأبنوس، فأشعل الشموع الست التي تكوّن مسدسًا منتظم الأضلاع . ورمقها بنظرة شغف وهتف بنبرة من يطلق مفاجأة :

- سأعوضك عن سنوات الجفاف والحرب والدم، سأدعو المطرب إبراهيم الورّاق وفرقته لأقيم لك حفلة رقص وطرب وموسيقى كما تحبين .

تهلل وجهها بالبشر وصاحت :

- متى فقد أوحشني غناؤه كثيرًا؟

ابتسم وقال وهو يصب النبيذ الأحمر في كأسين من الزجاج الفرنسي :

- قريبًا جدا... ولكن عندما تنتهي الاحتفالات الرسمية ونغادر إلى رشيد بعيدًا عن صخب مصر المحروسة !

ثم دنا منها فشمت رائحة الشهوة تفوح من مسام جلده، اضطربت مثل فتاة بكر، فنزع عنها ملابسها برفق، وتأمل جسدها المرمري على ضوء الشموع، فاستعرت حواسه كلها، ضمها إلي صدره بقوةٍ فعزفا موسيقى الاندماج حتى انتشيا معاً، وهمست وهي تتكوم في صدره واضعة ساقها اليسرى فوق ساقيه :

- ما أروع الحب في مصر! إن له طعمًا آخر... إنه السحر يا طوسون !

77

في نهار اليوم التالي فوجئ بوغوص بك بحضور الأمير طوسون إلى مكتبه بالقلعة. بدا الشاب بملابسه الرسمية مفعمًا بالحيوية والنضارة، وكأنه كان في رحلة إلى الجنة لا في معمعة حرب ضروس في صحراء قاحلة. سأله بأدب :

- هل من أخبار جديدة وردت من الحجاز؟

شتان الفرق بين أدب الأمير الصغير وعنجهية الأمير الكبير، فقال بوغوص بك :

- لقد وصل عدد من الجرحى إلى ميناء السويس وهم الآن في طريقهم إلى القاهرة ليتلقوا العلاج اللازم .

غمغم الأمير قائلا :

- خضنا معارك طاحنة. الوهابيون جماعة لا تيأس أبدًا، ورجالها يعرفون تضاريس

أرضهم وخبروها وتدربوا عليها جيدًا .

عقب ناظر المالية وهو يناوله قدح قهوة :

- إنهم يدافعون عن مصالحهم يا سمو الأمير، لقد فقدوا بفضل قيادتكم العسكرية الحكيمة السيطرة على المدن المقدسة للمسلمين، وهذا يمثل خسارة مالية ضخمة دائمة لهم .

شرد الشاب قليلا فارتسمت على جبينه علامات حزن غامض، ثم قال بأداء خافت :

- للأسف ... مازال الوقت مبكرًا لنقضي على هؤلاء الشراذمة الغلاظ ونعلن انتهاء الحرب تمامًا. للأسف كنت أظن أن الحرب مجرد نزهة لطيفة، لكني اكتشفت بعد الدم والقتل ومئات الضحايا الذين دفنوا في الصحراء أن الحرب ليست نزهة على الإطلاق... إنها الجحيم الذي يشعله الإنسان على الأرض بغباء وقناعة !

ثم قلب الصفحة وقال بأدب جم قبل أن يغادر المكتب :

- من فضلك بوغوص بك... أرسل أحدًا يستدعي المطرب إبراهيم الورّاق ودعه يقابلني هنا في القلعة بعد غد .

ابتسم الرجل وهمس باطنه: (أنت كما أنت يا طوسون... لم تنسك الحرب الطويلة الموسيقى والطرب والغناء... حقا... ما أجمل الشباب والمرح والحب).

78

عندما انتهى من تناول العشاء رمقته زوجته باهتمام وسألته :

- بوغوص ... ما بك؟ منذ وصولك وأنت هائم مع نفسك شارد البال، حكيت لك كيف أن السيد باباندريو التاجر اليوناني المشهور اشترى خان الملذات الذي كانت تملكه الراحلة آماليا والكائن في الشارع الخلفي وحوّله إلى وكالة للفحم فلم تعلق. ما بك يا حبيبي؟

ابتسم وهو يهم بالتمدد على الأريكة وقال :

- أبدًا يا زوجتي... أتأمل هذه الحياة وغرائبها .

ثم دعاها لتستلقي بجواره، فأقبلت، لكنها ظلت جالسة، وقد جعلت رأسه يتوسد فخذها الطازج ومضت تداعب شعره البني

بأناملها الرقيقة وهي تتساءل :

- وما الغريب في هذه الحياة؟

فاعتدل فجأة وجلس لصقها ومضى يحكي لها بحماسة كيف أنه استقبل اليوم الأميرين: الصغير والكبير، وكيف لاحظ أن إبراهيم باشا يغار من شقيقه الأصغر طوسون، وأنه يقلل من أهمية انتصاره على الوهابيين بزعم أنه انتصار منقوص، وأنه سوف يقنع والده بضرورة إعداد حملة عسكرية جديدة تتوجه إلى الحجاز يقودها إبراهيم بنفسه ليقتلع جذور التشدد الوهابي. كما أن علاقة شقيقه بالجارية الجميلة صوفيا تزعجه جدا، لا أعرف لماذا؟ إنه يمتلك العديد من الجواري، ويستطيع شراء ما شاء منهن؟ فلماذا الغيرة أصلا .

تلقت كلامه باستغراب وتساءلت :

- غيرة بين الشقيقين؟

فتنهد الرجل وقال لها وهو يرنو إلى الفراغ :

- يبدو أن مشاعر الحقد والغيرة والحسد تندلع بين الأشقاء بأكثر مما نتخيل .

فوجئ الخواجة شارل بزيارة غير متوقعة من القنصل الفرنسي، فأن يأتي الرجل في منتصف النهار حيث الشمس تصب كتل النار كل دقيقة على سكان القاهرة، فهذا يعني أن الأمر جلل. قال القنصل وهو غارق في العرق رافضا حتى أن ينزل من عربته :

- الوالي ينتظرك غدًا في المساء .

تكدست فئران الفزع في صدر الخواجة. ماذا يريد الباشا؟ هل علم بزيارتي إلى السيد عمر مكرم؟ من أخبره؟ الحراس الأرناؤوط لا أمان لهم. أخذوا المال واطمأنوا ثم قاموا بواجبهم الأمني وأبلغوه. حماقة... فلتعترف بأنك ارتكبت حماقة يا شارل وأنت في الخامسة والأربعين. لا سن محددة لتجنب ارتكاب الحماقات. وكنت تظن نفسك مثقفا وحكيمًا وواعيًا بما يجري، وها هو الفضول الحارق وشغفك بالرسم

وتاريخك الثوري يدفعك دفعًا لتصرف صبياني. هل نسيت؟ أنت في بلاد الشرق، أي أن الحاكم هنا إله، فكيف تعصى أوامر الآلهة؟ لقد أنقذك القنصل مرة قبل أكثر من عشر سنوات ونجوت بأعجوبة، فهل تخبره بأنك زرت العدو الأول لمحمد علي باشا لعله يكرر عملية الإنقاذ؟ واسترد وعيه على صوت القنصل وهو يودعه :

- سأمر عليك في السادسة مساء الغد لأصطحبك معي لنصعد إلى القلعة .

فسأله بحلق جاف :

- ولكن لِمَ يريدني الوالي؟

- لا أدري... على أية حال، لقد تسلمت دعوة من قصره لحضور الاحتفال بعودة ابنه طوسون من الحجاز .

احتفال؟ ما أكثر الاحتفالات التي يقيمها

محمد علي باشا، لكنه لم يقدم على دعوتي إلى أي منها قط، فلماذا الآن؟ هل أخبر هيلين بهذه الدعوة المريبة؟ هل أبوح لها بوساوسي؟ حساسية النساء بلا حدود، والتوتر الذي يصيب المرأة قادر على نسف الأمان في أي دار؟ هل أفر الليلة وأهرب إلى الإسكندرية ففرنسا وأقطع علاقتي بمصر وأهلها؟ لا يا فنان يا كبير... عيب... وماذا تقول هيلين؟ وماذا يقول عصفور والنبوي وتلاميذك؟ وكيف ستواجه ضميرك إذا نجحت في الهروب؟ ثم هل فقدت الأمل تمامًا في العثور على مسعدة حجاب وابنكما محمد؟ إن لك ذرية في هذا البلد، ومن له ذرية في مدينة لا يفر منها أبدًا. فلتلتزم بالصمت، ولتواجه قدرك، ولتخبر الباشا أن هدفك من الذهاب إلى السيد عمر مكرم كان هدفا فنيا لا غير، وأنك لم ولن تعمل بالسياسة كما وعدت قبل العفو عنك والسماح لك بالعودة إلى مصر !

قضى شارل ليلة تعيسة بلا نوم، واستعان

بالكذب ليهدئ من روع هيلين عندما لمحت القلق يتسكع في عينيه، فادعى التعب وتصنّع النوم !

80

في طقس صيفي رائع أقيم الحفل الكبير في باحة القلعة المطلة على ميدان الرميلة، أضواء القناديل ترمي أنوراها في كل اتجاه لتحول ليل القلعة إلى سجادة مضيئة. قناصل الدول الأوروبية والنظار ورجال الحاشية وكبار التجار الأجانب والمصريين وقيادات الأزهر وشيوخه يملأون المكان بأحاديثهم وصخبهم وضحكاتهم. الخدم يمرون على الجميع حاملين كؤوس النبيذ وأقداح القهوة وصحون المكسرات والفواكه الطازجة. الأمير طوسون باشا يتلقى التهاني بعودته ظافرًا وهو يتحرك بعفوية ونشاط بين المدعوين، بينما عينا شقيقه إبراهيم باشا تتابعانه بخبث من طرف خفي . محمد علي باشا يحمل قطته السيبيرية ويقف في المنتصف محاطا برجاله يوزع بسماته على الضيوف بحساب. تنتابه بين الحين والآخر ذكرى المذبحة التي دبّرها هنا قبل خمس سنوات فتعتريه رعشة توتر يقاومها

بابتسامة مفتعلة .

القنصل الفرنسي كان آخر الواصلين وبصحبته الخواجة شارل المشمول بالقلق والذعر. توجها نحو المكان الذي يقف فيه وليّ النعم وقدما له التحية الواجبة، فتلقاهما الوالي بترحاب وسأل الرسام باهتمام :

- أين أنت يا فنان؟ لم أرك منذ زمن .

استقبال طبيعي لا ينبئ بشر، فلتوقف ضربات قلبك، ولتعتصم بالهدوء حتى لا يفضحك خوفك. ابتسم شارل وقال مجاملا بأدب شديد :

- أنا موجود يا أفندم أنعم بالعيش في كنف سموكم .

حرّك الباشا رأسه ممتنا للثناء، ثم رنا إلى ابنه الصغير الذي يحادث أحد المدعوين وغمغم قائلا :

- أريدك أن ترسم صورة لابني البطل طوسون باشا في بزته العسكرية، ولا تنس أن تبرز الأوسمة والنياشين التي يزدان صدره بها .

تنهد شارل بارتياح وانهار جبل الرعب الجاثم فوق صدره منذ أمس وهتف مبتهجًا :

- يشرفني ذلك كثيرًا يا وليّ النعم .

ولاحت من الوالي نظرة خاطفة إلى إبراهيم باشا، فقال بسرعة :

- ولترسم أيضا ابننا البكر إبراهيم .

- وهذا شرف آخر أفخر به وأعتز .

فابتسم الوالي وصاح :

- حسنا.. فلتشرع فورًا، لأزين القاعة الكبرى في قصر الجوهرة بصورتي وصور أبنائي وأسرتي .

ثم دعا القنصل الفرنسي إلى تناول النبيذ وتبادل معه حديثا حميميا خافتا، فتراجع شارل إلى الخلف حتى اتخذ زاوية قصية بجانب السور العتيق للقلعة، حيث يستطيع تأمل المشهد كله. تابع الرسام باهتمام حركة الخدم وهم يفرشون السجاجيد على الأرض وفوقها التكايا والوسائد والمساند قبل أن يضعوا صواني الطعام العامرة بما لذ وطاب . أهاجت أنفه رائحة اللحم المشوي المنتشرة في الأجواء بفعل تيارات الهواء المتلاطمة في الأعالي. تعجب من كمية اللحم الكبيرة وقال في أسى: (ربما يكفي هذا الطعام نصف سكان القاهرة)، وقال أيضا متذكرًا الأحوال البائسة للقرى التي مرّ بها في طريقه إلى طنطا: (كيف ينام الباشا مرتاح الضمير، بينما قرى مصر كلها مرصودة للفقر والفاقة والحرمان الدائم؟).

81

رغم أن غيوم القلق قد تلاشت تمامًا من نفس الرسام الفرنسي، إلا أنه مضى يرسم السيد عمر مكرم في سرية تامة، فلم ير مراحل تأسيس الصورة وتطور تنفيذها إلا ثلاثة فقط: زوجته وصديقاه النبوي سرحان وعصفور الحداد، وكم كان يشعر بالسعادة عندما يؤكد الشابان أنه تمكن من اقتناص ملامح الزعيم القديم بشكل رائع. لقد استعان الخواجة شارل بالاسكتشات السريعة التي رسمها للرجل عندما زاره قبل أسابيع طويلة في منفاه بطنطا، وفي إحدى المرات وهو منهمك في الرسم أقبلت عليه زوجته فلاحظت أنه يبتسم فتساءلت عن السر فقال ضاحكا :

- يبدو أنني مجنون، ففي الصباح أرسم ابنيّ محمد علي باشا، وفي المساء أرسم المعارض الشرس لمحمد علي باشا .

وفي مرة أخرى بينما يضع اللمسات شبه النهائية على اللوحة السرية تذكر العبارة المدهشة التي قالها السيد عمر مكرم: (ادخلوها حالمين واجعلوا مصر دارًا للعشاق) فتفتق عقله عن فكرة عجيبة قرر تنفيذها مهما واجه من صعاب !

82

مع مطلع عام 1816 أجهشت السماء بالأمطار الغزيرة واشتعلت الأرض بالنقاشات الحادة، وكادت القاهرة تحترق على جمر من التوتر الأحمر عندما انقسم المصريون بصورة لم يسبق لها مثيل، حيث احتشد الناس في المساجد والمقاهي يجأرون بالشكوى من الغلاء الفاحش ويصبون اللعنات على محمد علي من جهة، بينما انبرت قلة تدافع بالصوت العالي عن الوالي وقراراته وأفعاله من جهة أخرى، وقد اتفق الجميع على التذمر من برك الوحل والطين التي امتلأت بها الدروب والحارات والأزقة فأعاقت سير البشر والدواب. وفي إحدى الليالي بلغت سخونة النقاش مستوى مؤسفا حين أقبل حمدان البلتاجي الطالب العشرينيّ في مدرسة المهندسخانة على مقهى المعلم فجلة وهتف بعد أن طلب لنفسه قدحًا من اليانسون :

- نحمد اللّه أن وهبنا أعظم رجل حكم مصر... سيدي الوالي محمد علي باشا .

التفت الجميع نحوه مستنكرين، ولأنه من أبناء درب الجماميز، فقد تعاملوا معه برفق في البداية، حيث علق عويس الفرارجي ساخرًا وهو يحدّق في عينيه الضيقتين :

- طبعًا... أعظم والٍ يا حمدان... والدليل أنه تمكن من جعل المصريين يكابدون الفقر والمذلة كل ساعة كما لم يحدث من قبل !

انزعج حمدان، وصاح :

- إنه يبني البلد بعد سنين من الخراب يا عويس... ألم يأمر ببناء المهندسخانة العام الماضي والتي تشرفت بالالتحاق بها، حيث أتى بمعلمين من فرنسا؟ ألم يأمر ببناء مصنع للصابون قريبًا من جامع الظاهر بيبرس وقام بتشغيل العديد من العاطلين؟ ألم يأمر بعمل مشروع ضخم لتربية دودة القز بمدينة بلبيس لإنتاج الحرير وتصديره؟

ألم يأمر ببناء مصنع لسبك النحاس قريبًا من هنا بمنطقة تحت الربع؟ ألم يأمر بإنشاء مصنع لصناعة البارود بجزيرة الروضة؟ ألم يأمر بتشييد مصنع لسبك النحاس بالقلعة؟ ألا تعجبكم كل هذه المشروعات العملاقة؟ حقا... أنتم قوم لاتعترفون بالجميل !

أنصت إليه عويس الفراجي باهتمام شديد، ولما انتهى قال متهكمًا :

- لكنك نسيت أن تقول... إن الأسعار ارتفعت في عهد واليك الباشا المعظم حتى ضج الناس وتذمروا، فالقمح ارتفع سعره أضعافا مضاعفة والرغيف غاب أو اختفى وأغلقت المخابز، واللحم صار من النوادر، وثمن ثوب القماش ارتفع من قرشين حتى بلغ سبعة قروش، وثوب البفتة المحلاوي وصل إلى أربعة عشر قرشا، كما ارتفعت أسعار الفول والسمسم والأرز والكتان التي احتكر تجارتها كلها وليّ النعم، ولا تنس أيضا أن

الباشا أمر بهدم الدور والوكالات والحمامات والأثريات التي كانت ملكا للمصريين ونهب أحجارها ورخامها وتحفها ليبني له ولأسرته وحاشيته وعساكره قصورًا أخرى في القلعة والجزيرة التي تفصل إنبابة عن بولاق، كما أمر بقطع رأس كل معترض أو مقاوم لظلمه وتعليقه على باب زويلة؟ ولا تنس أيضا يا سيد حمدان أن الباشا يملك ألفي حمار تتولى عملية نقل الحجارة وما احتوته الدور المهدمة من كنوز وتحف، ولا تنـــ

فقاطعه أحد الحضور مؤكدًا بصوت جهوري :

- صحيح... فكل يوم نشاهد طوابير من حمير الباشا تملأ الدروب والحارات التي تهدمت فيها الدور والوكالات لتحمل الرخام والتحف والأيقونات والأحجار دون أن يقدر أحد على الاعتراض !

انزعج طالب المهندسخانة من سيرة

الحمير وصاح بصوت رفيع حاد :

- وهل تريد الباشا وأسرته وعساكره أن يقطنوا في دور عادية مثل تلك التي يقيم فيها العامة والغوغاء؟ إنهم سادة القوم، ويجب أن يعيشوا في القصور الفخمة وينعموا بالحياة الرخية !

- فليشيّد القصور الباذخة من جيبه، لا من أموالنا وخيراتنا ودورنا ووكالاتنا نحن المصريين، ألم يرسل السيد حسن المحروقي إلى الهند وفي حوزته خمسمئة ألف فرانسة ليبتاع البضائع الهندية ويأتي بها إلى مصر؟

- وما العيب في ذلك؟ إن وليّ النعم يعمل على تطوير التجارة مع البلدان الأخرى !

- ولكنه يتاجر لحسابه، ويحرم المصريين من العمل في التجارة ليوصد أبواب الرزق في وجه آلاف الأسر المصرية .

ثم بأداء عنيف :

- يا حمدان... إنه حاكم وليس تاجرًا... هل نسيت عندما هاجم دكاني بالأمس القريب الجوعى والمتشردون وأنت دافعت عني وطردتهم؟ الحاكم عليه أن يقيم العدل ويحمي الحق قبل أي شيء آخر، لا أن يتاجر ويراكم الأرباح لنفسه، بينما يترك الناس تتلظى في جحيم الفقر والظلم والجوع !

انفعل الطالب وهتف هازئا بالجميع :

- أنتم هكذا، أصحاب قلوب سوداء، لا تعترفون بالفضل، ولو منح محمد علي باشا كلا منكم قصرًا منيفا لظللتم تستخفون به وتستهزئون !

عقب عويس سريعًا وبعصبية :

- بل أنت منافق وجاهل ولا تهمّك أحوال الملايين من الفقراء !

لم يتمالك حمدان نفسه، فقذفه بما تبقى من اليانسون، فانتفض الشابان واشتعلت معركة بالأيادي في التو واللحظة، حيث رمى عويس نفسه فوق طالب المهندسخانة وأسقطه أرضًا، ولكمه بعنف حتى سال الدم من أنفه، في الوقت الذي ظل فيه الجميع يتابع المعركة دون تدخل، حتى وصل عصفور الحداد المقهى، فأسرع نحو فض الاشتباك وهو لا يعرف السبب وراء هذا الدم المسال .

83

- أنا حامل .

قالتها ببسمة معطرة بالحب وقلب مترع بالأمل. استقبلته على باب الدار بروح جديدة تمامًا أنسته معركة عويس وحمدان حول محمد علي باشا، فحملها عصفور بين ذراعيه وغمرها بقبلات محبة وامتنان وقال لها وهو يُجلسها برفق على الكنبة المكسوة بفروة خروف :

- ما أجملك يا سعدية... أخيرًا سأصبح أبًا .

فابتسمت وقالت بتردد :

- لقد أصبحت فعلا، فهل تريده ولدًا أم بنتا؟

سؤال صعب لم يفكر فيه من قبل، لكنه تذكر آراء السيد عمر مكرم وتعلم منه أمورًا كثيرة حول الأمل والحلم والعدل، فلثم خدها وقال وهو يبدّل ملابسه :

- ما يهبه لنا الله فهو جميل، فإذا كان المولود بنتا، فسأسميها آمال، وإذا جاء ذكرًا فسأطلق عليه اسم عمر تيمنا بالسيد عمر مكرم وبطولاته ومواقفه .

دنت منه حتى كادت تلتصق به ومسحت خدها في شعر صدره العاري وقالت :

- سيفرح أيوب الصغير كثيرًا عندما يتمتع بوجود أخ أو أخت له !

فغمغم قائلا :

- كلنا سنفرح، فأنت نهر البهجة في هذه الدار يا سعدية... دمت لي ولنا ولمولودنا القادم .

84

توتر بوغوص بك وهو يحدّق في وجه القنصل الفرنسي الحزين وكرر السؤال بهدوئه المعتاد :

- ماذا يعني أنك غير قادر على تنفيذ طلبات محمد علي باشا؟

رفع القنصل سبابته وقال معترضا بأدب دبلوماسي :

- لم أقل ذلك بالضبط بوغوص بك، وإنما كل ما قلته إن الأوضاع في فرنسا بالغة التوتر بعد القبض على الإمبراطور نابليون بونابرت ونفيه إلى جزيرة سانت هيلانة، ولا أستطيع أن أضمن إتمام صفقة السلاح التي طلبها الوالي من الحكومة الفرنسية في الوقت المناسب. حقا... الأوضاع غامضة جدا في فرنسا كلها والإنتاج يتراجع في المصنوعات كافة، وليس في السلاح فقط.

تفكر بوغوص مليًا، ثم ضبط عمامته فوق رأسه وقام ودار حول مكتبه وجلس أمام القنصل مباشرة ودعاه بإشارة من يده إلى أن يواصل تناول القهوة، ثم قال بابتسامة ناعمة مشجعة :

- إذن... عليك إبلاغ وليّ النعم بهذا الأمر، فأنت أفضل من يوضح الصورة أمامه !

وأردف متفائلا :

- إنه يقدّرك ويعرف قيمة ما تفعله من أجل تعزيز العلاقات بين مصر وفرنسا !

ارتاح الرجل لهذا الإطراء وقال بنبرة غرور :

- أعرف ذلك، فالوالي صديقي وسيثق بما أخبره به .

أدرك بوغوص أنه نجح في إقناع القنصل بمواجهة محمد علي باشا، فمضى يتلذذ برشف القهوة، ورفع رأسه فجأة كمن تذكر شيئا، وسأل القنصل :

- هل تعرف فنانا جيدًا ليرسم صورة لزوجتي أهديها لها في عيد زواجنا؟

ابتسم القنصل ووقف وربّت كتف بوغوص بك وقال مهنئا بابتسامة واسعة أظهرت ضروسه كلها :

- كل عام وأنتما في سعادة وحبور يا عزيزي بوغوص .

ثم بفخر واضح :

- أعرف طبعًا... صديقي شارل أمهر رسام أوروبي يقيم في مصر .

بعد دقائق توجه القنصل الفرنسي بصحبة ناظر المالية والشؤون الإفرنجية إلى مقر الوالي الذي اتخذ مجلسه المعتاد، وحكى له المشكلات التي قد تعوق إتمام صفقة السلاح في الوقت المحدد، هزّ الباشا رأسه موافقا وجذب نفسًا عميقا من الشيشة ورنا إلى القنصل وقال :

- مسكين بونابرت... كان قائدًا عسكريا فذا ... لقد أضاعه غروره اللا محدود !

ثم قال وهو يداعب قطته البيضاء :

- أطمع في حنكتك سعادة القنصل، وأنا واثق بأنك قادر على توفير ما أحتاجه من أسلحة حديثة متطورة لأحمي البلد من أعدائها... وهم كثر !

ثم توقف عن الكلام منتظرًا رد فعل القنصل، إنه يقصد الإنجليز الأعداء

التاريخيين لفرنسا، لكن القنصل ظل صامتا ينتظر استكمال الحديث، فاضطر الباشا إلى المتابعة قائلا :

- أنت تعرف أن هذه الصفقة بالغة الأهمية لنا، ونحن مستعدون لتنفيذ كل احتياجات فرنسا من مصر، سنصدّر لها القمح والقطن والحرير والسمسم وخلافه .

ثم بابتسامة ماكرة :

- ولن أنسى معروفك سعادة القنصل، فهديتك الثمينة جاهزة من الآن !

انفرجت أسارير الرجل وتبادل نظرة ذات معنى مع بوغوص بك قبل أن يهتف :

- ثق يا وليّ النعم أنني سأبذل قصارى جهدي مع حكومتي لتوفير الأسلحة التي تحتاج إليها مصر بأقصى سرعة ممكنة !

تحمس الباشا واستطرد قائلا :

- لعلك تلاحظ الجهد الكبير الذي أبذله لتطوير البلد، وليتك تخبر صحف فرنسا بهذا الجهد، لتشرع في الكتابة عنه والحفاوة به، وللأسف ليس لدينا اختراعكم الجميل الذي يسمى الصحافة، وأعدك بأنني سأعمل على إصدار أول صحيفة هنا في مصر قريبًا .

ثم متصنعًا الحياء والتواضع :

- إنهم يقولون عني إنني باني مصر الحديثة، ويعلم الله أنني أقوم بهذا الجهد ابتغاء مرضاته. أليس كذلك يا بوغوص؟

فوجئ الرجل بالسؤال وتبادل نظرات سريعة مرتبكة مع الزائر الفرنسي وقال بسرعة :

- طبعًا طبعًا يا وليّ النعم .

اقتحمت عقل القنصل عبارات ذات دلالة: (فلتشرع في خلق أسطورة حول ذاتك

العبقرية يا باشا، ولنعمل نحن على نشرها بين الناس هنا وهناك إرضاءً لغرورك، فأنت الحاكم الأوحد، والويل كله لمن لا ينفذ رغباتك يا مولانا). ولما غادرا مجلس الوالي همس القنصل في أذن ناظر المالية والشؤون الإفرنجية سائلا :

- مَنْ أطلق عليه أنه باني مصر الحديثة؟

- أخفض صوتك، فنحن مازلنا في القلعة .

ثم بابتسامة خفيفة :

- لا أعرف... أظن أنه هو مَنْ أطلق على نفسه هذا الوصف !

عقب انصراف القنصل استدعى الوالي شركان الناغي على عجل. استقبله واقفا وقد أثارته رائحة البخور التي تفوح من الرجل، ثم اصطحبه نحو النافذة وسأله بجدية تامة وهو يطل على سفح المقطم :

- أخبرني يا كبير السحرة... ما أفضل وقت لمواصلة الحرب على الوهابيين في أرض الحجاز؟

وكأن الرجل كان ينتظر السؤال، إذ تراجع إلى الخلف قليلا وصاح :

- فلتنطلق حملتكم العسكرية المباركة في شهر سبتمبر... إنه شهر الانتصارات الكبرى بإذن الله .

التفت إليه الباشا بحركة مفاجئة وغمغم متسائلا :

- هل أنت متأكد يا ناغي من صحة كلامك؟

قطب الرجل جبينه احتجاجًا على السؤال وهتف بعتاب مبطن :

- يا صاحب السمو.. هذا ليس كلامي، بل إنه منقوش في الكتب والأسفار نقلا عن التراجم والأخبار وما يكشفه الجن من أسرار في الليل والغسق والأسحار، وأنا كبير السحرة الذي يوظف علمه الغزير بالجان والكهنوت من أجل أن يرفع اسم جنابكم السامي في جميع الحوانيت والدور والبيوت !

- حسنا يا ناغي... فلتنطلق الحملة في سبتمبر المقبل !

- والنصر حليفكم بإذن الله .

87

غادر الخواجة شارل دار بوغوص بك بالحي الإفرنجي سعيدًا ومبتهجًا، فقد أبرم عقدًا سخيا مع الرجل ليرسم صورة له ولزوجته وللسيدة مريم العذراء ولمنظر النيل عند منيل الروضة، كما أن ملامح ربة البيت أثارت خياله الفني بشكل غريب، فالمرأة تتمتع بقسمات متناسقة محددة تستفز موهبة أي رسام ماهر، كما أن روحها الهادئة تشع في لفتاتها وإيماءاتها وابتساماتها وحتى في رنة صوتها، الأمر الذي جعله متحمسًا جدا لرسم وجهها الفاتن .

استلم الفنان عربونا كبيرًا، بعد أن اتفق معهما على أن يشرع في التنفيذ مطلع الأسبوع المقبل، ثم مضى إلى حال سبيله قبل غروب الشمس بساعة. في أثناء عبوره شوارع ودروب الحي الإفرنجي اكتشف أنه لم يهبط هذا الحي منذ مدة، فسار على مهل وبدافع غامض في اتجاه

دار مسعدة حجاب التي كانت تقطنها في الزمن الخالي. في طريقه مرّ على خمارة الخواجة أندرياس فلاحظ أنه تم تجديد واجهتها وتغيّر اسمها إلى خمارة السعادة، فابتسم، وفوجئ بالانقلاب الذي اعترى خان الملذات، إذ تحول إلى وكالة للفحم، وأزيل لونه الأحمر الفاقع وأعيد طلاؤه باللون الأبيض، وتصدرت واجهته لافتة ضخمة كتب عليها (وكالة مصر أثينا للفحم لصاحبيها الحاج جاد الله الديروطي والخواجة باباندريو)، فقرر أن يخبر زوجته بهذه التغييرات العجيبة. تناهت إلى سمعه أصوات طيور تحلق فوق رأسه في طريقها إلى أعشاشها القريبة فوق أشجار التوت والجميز والطلح فطرب لها. تلقى نسائم مارس المشبعة بروائح الورد البلدي والقرنفل والياسمين فانتعش صدره. لكن عندما انعطف يمينا جهة بركة الأزبكية وجدها أمامه وجهًا لوجه... مسعدة حجاب بلحمها وشحمها وسحرها وأحزانها فصرخ الاثنان في وقت واحد من عبقرية المفاجأة !.

88

بدت امرأة مكتئبة وحزينة، ورغم أنها أقبلت على شارل بلهفة وأقدمت على عناقه في الطريق العام، إلا أن غبار الهموم تطاير حول عينيها فأفسد عليه حلاوة المصادفة. عاين ملامحها وجسدها بدقة أربكتها، فوجدها قد نحلت بشكل واضح واختفت البسمة في أزمنة الغياب. اعتراه قلق مشروع. أمطرها بأسئلته بإيقاع سريع متلهف :

- ما بك يا مسعدة؟ لست على ما يرام، أين كنت؟ وكيف حال ابننا محمد؟

فغمغمت بصوت منكسر :

- نحمد الله على كل شيء .

ثم اصطحبته إلى دارها وهي تفكر كثيرًا في طريقة تخبره عبرها بالمصيبة التي ألمت بها. لم يتغير شيء في الدار، ربما

قل الاهتمام بالحديقة الصغيرة التي تحيط بها، فذبلت الزهور وتساقطت أغصان الأشجار، وربما فقد الأثاث رونقه القديم، لكن رائحة الدار كما هي بكل عنفوانها وعطرها النفّاذ. دعته إلى الجلوس في الصالة الرئيسية على كنبة مكسوة بسجادة محلية الصنع منسوجة على نول خشبي من قطع القماش والخيوط القديمة، وطلبت من خادمتها التاريخية أم إمام إعداد القهوة . لم تصدق المرأة عينيها عندما رأته أمامها، فهتفت بلوعة :

- سيدي الخواجة شارل... يا خبر أبيض !

ثم انخرطت في نحيب شديد . الغموض سيد المشهد والأحزان تتناسل في عيون المرأتين. ساورته الشكوك ... تساءل خاطره بقلق: ماذا يجري في هذه الدار؟ ماذا أصاب السيدتين؟ أين ابني؟ ثم هب واقفا وصرخ :

- مسعدة... أين محمد؟

حدجت المرأة خادمتها بنظرات تأنيب، ومضت تحكي له فصول المأساة من بدايتها الموجعة وهي غارقة في بحر من الدموع والنهنهات . قالت له إن محمدًا أصيب بالرمد في صيف مشؤوم . وأنها لجأت إلى حلاق الصحة بالغورية ليعالج عينيه، ولما أخفق هرعت به إلى الإسكندرية عند رجل مبارك سمعت بأعاجيبه في العلاج، لكن الفشل كان من نصيبها أيضا على شاطئ البحر، حيث خفت نور عينيّ محمد أكثر فأكثر. قيل لها إن ثمة شيخًا مباركا يقطن في حرم مسجد السيد البدوي بطنطا يملك القدرة على شفاء المرضى، فانطلقت إلى طنطا مترعة بأمل كبير، وواظبت على تنفيذ تعليمات الشيخ بشأن التداوي بالأعشاب وتلاوة القرآن الكريم والتصدق على الفقراء والمساكين، لكن نور العينين ظل يتلاشى تدريجيًا حتى غرق الصبي في الظلام الدامس !

أنصت إليها مذهولا، وللمرة الأولى يشعر

شارل بالعجز، فنظر إلى الأرض ووضع رأسه بين راحتيه يأسًا، ارتخى جفناه فانهمرت الدموع الساخنة بغزارة لتحرق روحه وقلبه وعينيه، اقتربت منه لتواسيه، مسحت براحتها على شعره الرمادي الناعم، فالتفت نحوها وسألها بصوت مبحوح :

- أين هو؟

صمتت لحظة، ثم قالت :

- ألحقته بكُتّاب الأزهر ليحفظ القرآن الكريم، وسأذهب لإحضاره بعد قليل عندما ينتهي من دروسه .

امتعض وغشيه منظر العميان الذين رآهم على باب الأزهر قبل عامين عندما كان بصحبة عصفور الحداد، فانجرح فؤاده. ولما توجه معها نحو المكان المنشود، رأى فلذة كبده من مسافة قريبة. صبي في حدود الخامسة عشر. نسخة كربونية منه إلا لون

بشرته، بينما عيناه مغمضتان تهيمان في الظلام الأبدي، انصهر قلبه من شدة الحزن على حال ابنه، وقرر الشروع فورًا في تنفيذ فكرته الجريئة والعجيبة !

عاد إلى داره بحارة الدرب الأصفر بجيب مكتنز بالمال وقلب منفطر من الحزن. يخوض بحر الليل على إيقاع الهموم والأفكار، غائبًا عن ضجيج المقاهي في الأزهر والغورية والحسين وبين القصرين. على الفور شعرت هيلين بأن ثمة أمرًا غير حسن، ولم يطل انتظارها، إذ سرعان ما باح لها بكل شيء. أخبرها أنه تعرف إلى مسعدة حجاب قبل رحيل الحملة الفرنسية عن مصر بشهور قليلة، وأنها أرملة ثرية تملك تجارة كبيرة ودورًا كثيرة، وأنها أحبته وأنه أحبها أيضا، وأنها أنجبت منه طفلا دون أن يتزوجا، وأنه سعى إلى العودة من فرنسا بعد إبعاده في نهايات عام 1805 بحثا عن ابنه وعنها، وأنه أخفق في العثور عليهما، لكنه لم ينس أبدًا أن له ابنا يتنفس ويدب على الأرض في هذه البلاد، لكنه لم يخطر له في أسوأ كوابيسه أن يجد ابنه مصابًا بالعمى !

تلقت هيلين قصة شارل ومسعدة وابنهما بحواس متحفزة وقلب مضطرم. صدمتها المفاجأة، وأوجعها إخفاؤه خبر علاقته الغرامية بمسعدة وإنجابه منها. حاولت إطفاء توترها بحركات لا معنى لها مثل قضم أظافرها أو ترتيب المجلس، أو نقل الوسادة من مكان إلى آخر، لكن حين رنت إليه بعمق وهو منكمش في مقعده شارد البال أشفقت على حاله، توجهت نحوه بمشاعر متناقضة ووقفت قبالته وسألته بجدية :

- ماذا ستفعل؟

لم يفهم شارل أبدًا أنها تقصد علاقته بمسعدة حجاب، لذا جاءت إجابته عن أمر آخر تمامًا. كانت الإجابة جاهزة في مخيلته قبل شهور، وقبل أن يعرف أن ابنه محمدًا أسير الظلام، إذ قال لها بجدية تامة وكأنه يستلهم كلامه من مصدر سماوي نوراني :

- سأفتح مدرسة لتعليم العميان !

تمايلت صوفيا على صوت المطرب موفور الصيت إبراهيم الورّاق، ورقصت على موسيقى فرقته، فلم يمانع الأمير طوسون، بل هبّ واقفا وعانقها ليرقص الاثنان معًا في مرح وسرور وسط صخب الفرقة الموسيقية وتهليل رجال الحاشية الخاصة بالأمير. خمسة أيام وهما يستمتعان بالإقامة في قصره بمدينة رشيد، يتنزهان على شاطئ البحر ويسبحان في مياهه الدافئة ويمارسان الحب على الرمل وفي الماء وفي حمامات القصر وغرفه الفسيحة. في أي مكان تشتعل شهوته فيه، يسرع على الفور بنزع ثيابه وملابسها والالتحام بها دون حساب أي شيء، وعلى جميع العاملين الاختفاء تمامًا حتى ينتهي سمو الأمير من الاستمتاع والتلذذ بالجسد الشهي. وفي إحدى الليالي أخبرته وهما مستلقيان على سرير الغرام بأنها ضجرت من البحر، وتطمع في العودة إلى القاهرة، فقال وهو

يهم بتقبيل حلمة نهدها الأيسر :

- فلنرحل إلى الريف أولا... لأنه بالغ الروعة والجمال يا حبيبتي .

ثم بفخر واعتزاز :

- أملك قصرًا بديعًا بقرية «برنبال» قريبًا من هنا .

لكن خليل أفندي قوللي حاكم رشيد، وهو رجل ضخم البنيان ذو شارب مبروم يحكم المدينة بقلب قاس، حذره من انتشار الطاعون في القرية والقرى المجاورة لها، فلم يعبأ، وصاح ساخرًا :

- الطاعون يفتك بأولئك الذين لا يعرفون الحب... وأنا عاشق مخلص منذ أعوام طويلة، لذا سيحميني الحب من كل أوبئة العالم .

ثم بسخرية أكثر وهو يربت ظهر الحاكم :

- يا رجل... لقد حاربت الوهابيين في صحراء الحجاز سنين طويلة، فلم أصب بشيء، فهل يعقل أن أتعرض لسوء في بلدي؟

ثم بحكمة لا تناسب سنوات عمره الاثنين والعشرين :

- الحب خير وقاية من الأمراض .

وارتحل العاشقان إلى قصر الأمير بقرية برنبال مشمولين بالسعادة والهناء ومحاطين بكوكبة من الحراس المدججين بالسلاح، واعترى الذهول صوفيا وهي تتأمل السجادة الخضراء الممتدة إلى مالا نهاية من الحقول الواسعة، وهتفت بسعادة طفلة مدللة :

- ما أجمل الريف، فلنبق هنا إلى الأبد !

فابتسم الأمير وقال :

- كما تشائين يا حبيبتي، فلنبق هنا إلى الأبد .

- ألن نسافر مرة أخرى إلى الحجاز؟ لقد قلت لي إن المعارك لم تنتهِ بعد !

ضحك وقال :

- لن نسافر... أخي إبراهيم هو من سيقود الحملة هذه المرة، وأبي يشرف على تجهيزها وتوفير ما يلزمها من السلاح والعتاد .

تهلل وجهها بالبشر، وكما غنى إبراهيم الورّاق في رشيد، صال وجال بصوته الساحر في قصر برنبال حتى احتشد الفلاحون حول القصر ينصتون إليه ويطربون، وقد خرج لهم الأمير طوسون، وأطل عليهم من شرفة القصر وحياهم بابتسامة عريضة وألقى عليهم الدراهم والقطع الذهبية فجن جنون الناس ومضوا يدعون له بالفرح وطول العمر، وبعد ليلة طويلة سهر فيها الغرام وعربد الحب، نام العاشقان ملتصقين، وفي الظهيرة استيقظت صوفيا على فجيعة !

91

مات الأمير طوسون. هربت صوفيا. غابت في الحقول الممتدة. امتصتها القرى المنسية فلم يعرف لها أثر. أرسل حاكم رشيد رجاله للبحث عنها فلم يعثروا عليها. ومع ذلك استبعد المقربون من الأمير الميت أن يكون لها أي دور في وفاته، فعشقها للشاب تألق أمام الملأ في عينيها ودلالها وشغفها وتأوهاتها. وقد قيل في العلن إن طوسون باشا راح ضحية الطاعون الفتاك عندما لاحظوا انتفاخ جثته، وقيل همسًا إنه مات من فرط الحب، وخاف المسؤولون إبلاغ والده بالكارثة، فوضعوا جثته في تابوت وحمله مركب في النيل من رشيد حتى القاهرة، وتركوا التابوت مفتوحًا في قصره ببولاق. وقالوا لوالده إن ابنك متوعك قليلا، فغادر الوالي قصره سريعًا وانحدر إلى بولاق للاطمئنان عليه. زلزلت أركان محمد علي باشا عندما رأى جثة ابنه، وبكاه كالأطفال، وأقيمت جنازة مهيبة سارت بالنعش من بولاق فوصلت

إلى باب الخلق فالدرب الأحمر فالتبانة فالرميلة حتى مقابر العائلة التي بناها محمد علي لنفسه ولأسرته، وأغلقت الدكاكين ببولاق ولطخوها بالوحل تعبيرًا عن الحزن. اعتكف الباشا في غرفة نومه بالقلعة عدة أيام منكسرًا ملتاعًا محترق القلب. حاولت جاريته المفضلة نايلة قادين التخفيف عن مأساته بالهمس واللمس والدلال والغنج، لكنه زهد فيها وصفعها وطردها من جناحه بقسوة. زارته بكثافة أشباح المماليك في نومه، فبات أسيرًا لكوابيس مرعبة، كان أكثرها شراسة عندما شاهد مجموعة من رجال المماليك يمزقون جسد ابنه طوسون في باحة القلعة ويلتهمونه بنهم وسعادة، فانتفض من نومه مرتعد الأطراف غارقا في العرق والدموع. استدعى شركان الناغي على الفور طالبًا الرحمة من أجل الحصول على نوم هادئ، واضطر تنفيذا لتعليمات كبير السحرة إلى تناول الكثير من كبد الذئب النيئة في الصباح والظهيرة والمساء وهو يتقزز ويلعن، لعله يطرد الأشباح المملوكية

وتصرفاتها الدموية المجنونة !

وفي صباح حزين خرج من عزلته بكامل ثيابه الرسمية وبعينين محمّرتين من قلة النوم ومن عذابات الأرق. اتخذ مجلسه المعتاد وانكب على تدخين الشيشة بشراهة، ثم أمر باستدعاء ابنه إبراهيم في التو واللحظة. جاء الشاب مضطربًا متوترًا، فألقى الوالي لاي الشيشة جانبًا وهبّ واقفا وقال له بلهجة حازمة :

- ستتولى قيادة الحملة العسكرية بنفسك كما وعدتك، وستنطلق بعد أيام قليلة نحو أرض الحجاز في الموعد الذي حددته عقب استشارة شركان الناغي، أي في 23 سبتمبر الجاري !

ثم بنبرة حزينة تقطر منها الدموع :

- إن موت شقيقك طوسون يحتم علينا أن نواصل معركته، فلكي نحافظ على السلطة في مصر يجب أن نسترضي

السلطان العثماني في اسطنبول، والسلطان يلح على هزيمة الوهابيين سريعًا !

انحنى الابن بأدب، وقلبه مترع بالفرح للمهمة التي أوكلت إليه بعد طول انتظار، وقال بأداء محشو بالغلظة والغرور :

- سأحقق كل الانتصارات التي لم يحققها طوسون، وسأمحق الوهابيين محقا .

عاينه الوالي بنظرة غامضة وقال لنفسه بحسرة: (هذا الولد خطر على سلطتي)!

92

في عصر اليوم الذي أبحر فيه إبراهيم باشا بحملته العسكرية نحو الحجاز عقد الخواجة شارل اجتماعًا طارئا مع عصفور الحداد والنبوي سرحان في داره بحارة الدرب الأصفر، وأعلن لهما نيته في فتح مدرسة مستقلة يخصص بعض فصولها لتعليم العميان، حيث خاطبهما بجدية قائلا :

- إن أفضل ما توصل إليه الإنسان في العالم مدوّن الآن في كتب باللغة الفرنسية، لذا يجب علينا تعليم المصريين هذه اللغة ليطلعوا على أحدث المعارف الأخرى مثل الحساب والعلوم والطب والهندسة والفنون، كما أن علينا التفكير في ابتكار طريقة نلقّن بها العميان العلوم المختلفة حتى لا يكونوا أسرى العاهة المرعبة والجهل العقلي والتسول الأبدي .

ثم أشار إلى النبوي وقال :

- أنت الآن تتقن الفرنسية بشكل مدهش، لذا ستتولى تعليم أبناء الأجانب المقيمين هنا أصول اللغة العربية، كما ستقوم بتعليم المصريين اللغة الفرنسية، أما المبادئ الخاصة بالكيمياء والفيزياء والحساب، فسأوافيك بكتب في هذه العلوم وسأساعدك، وربما نستدعي أساتذة متخصصين في ذلك مع تطور العمل في المدرسة .

ثم شرد لحظة وتذكر ابنه الذي ضاعت عيناه بسبب الجهل وقال بأسى :

- تضيع حواس الأبرياء في ظلمة الجهل، لذا يجب علينا اقتلاع هذا الجهل من جذوره .

تساءل عصفور بعد أن احتسى رشفة من السحلب :

- ولكن هذا مشروع ضخم، فمن أين سنأتي بالأموال؟

أجاب الرسام الفرنسي بحماسة :

- عندي ما يكفي لتأسيس مدرسة بسيطة، ثم أننا سنحصل على مصروفات مرتفعة من الأجانب الذين يرغبون في تعليم أبنائهم اللغة العربية .

- وهل سنحظى بعدد وافر من التلاميذ الأجانب؟

- نعم... مصر طوال تاريخها تحتضن العديد من الأجانب، ولن يتوقف هؤلاء الأجانب عن المجيء إلى مصر للعمل والإقامة بها، لذلك سيظل تعلم لغة أهل البلد هدفا دائمًا لهم .

ثم قام وأتى بكتاب صغير وناوله لعصفور قائلا :

- هذا الكتاب سيفيدك كثيرًا... عليك بتطوير لغتك الفرنسية لتتولى مهمة تدريسها للمصريين بجوار النبوي. كما ستتولى

بنفسك شرح الجغرافيا والتاريخ المصري موضحًا الكنوز والموارد البشرية والاقتصادية لمصر، بعد أن تتعرف عليها جيدًا عبر مطالعة الكتب التي سأرسل في طلبها من فرنسا، والتي وضعها أساتذة متخصصون .

تلقى عصفور الكتاب بفرح وصاح :

- وسوف أعلم ابني الذي سيرى النور قريبًا لغتك الفرنسية يا خواجة .

- ألف مبروك مقدمًا ... وما أخبار سعدية مع الحمل؟

- الحمد لله... بخير .

ثم باهتمام حقيقي تساءل النبوي :

- وماذا بخصوص مدرسة العميان؟

شرد شارل للحظة ثم صاح بحماسة شديدة :

- سنبدأ في تلقين المكفوفين المبادئ الأولى في المعارف كلها التي سنقوم بتدريسها حتى نبتكر أسلوبًا ييسر لهم ولنا تعليمهم بشكل أفضل، ولعلنا سنعتمد على ما يتمتعون به من قوة شديدة في حاستي السمع واللمس، فضلا عما اختزنوه في عقولهم من صور ومشاهد قبل إصابتهم بالعمى اللعين. حتمًا سنحتاج إلى تدريب أناملهم وتوظيف ملمس أيديهم وشفاههم، وربما أصابع أقدامهم عند التعليم النظري والتدريب العملي، كما أن مساعدة ذويهم لهم في المنزل ليراجعوا دروسهم حسب إرشاداتنا أمر مهم جدا وحيوي .

وبنبرة تقطر أسى هتف :

- سجلا بيانات أول تلاميذ مدرسة العميان... اسمه محمد وأمه السيدة مسعدة حجاب وعمره خمسة عشر عامًا .

- وأبوه؟

بعد تردد للحظات قال الخواجة وهو ينظر إلى الفراغ :

- أبوه رحل وهو طفل صغير، كان صديقي الحميم، لكننا لن نترك أبدًا الابن أسيرًا يتعذب في سجون العمى والجهل واليتم .

93

بعد بحث سريع استأجر الرسام الفرنسي الدار المجاورة لداره بحارة الدرب الأصفر لتأسيس المدرسة، وقال لزوجته هيلين ذات مساء شتوي شارحًا قراره :

- سأغلق فصلي الدراسة اللذين فتحتهما هنا في دارنا . يجب أن تصبح المدرسة في مبنى مستقل ليشعر التلاميذ بأهميتها وهيبتها مثلما يحدث عندنا في أوروبا .

بدت دارًا فسيحة تضم خمس غرف مربعة. وقد استعان الرجل بعدد من النجارين وعمال ورشة عصفور الحداد لعمل اللازم حتى تستوعب أكبر عدد من التلاميذ، زوّد المدرسة بمقاعد وسبورات وطباشير وأوراق وأدوات كتابة، كما صمم شعارًا للمدرسة عبارة عن وجه طفل يمسك كتابًا وقلمًا، وكلف خطاطا ليصنع لافتة كبيرة علقها على واجهة المدرسة كتب عليها

باللغتين العربية والفرنسية (مدرسة المستقبل)، ثم صمم عدة إعلانات ضخمة على ورق مقوى عن أهداف المدرسة وأهميتها وطلب من النبوي وعصفور تعليقها على مداخل الحارات المهمة في الغورية والسكرية وبين القصرين وباب النصر والأزهر ودرب الجماميز والسيدة زينب. ثم طلب من عصفور أن يكتب قصيدة عن أهمية الوطن والعلم والاعتزاز بهما، فسأله :

- لماذا؟

فأجاب الرسام :

- لتصبح النشيد الذي يؤديه التلاميذ يوميا قبل الدخول إلى فصول الدراسة .

ثم استطرد :

- وليكن نشيدًا بسيطا ومعبرًا حتى يستوعبه التلاميذ، ولنكلف المطرب

الشهير إبراهيم الورّاق بتلحينه وتدريب الأولاد على أدائه .

قال النبوي بتردد :

- لكنه قد يطلب مقابلا ماليا كبيرا .

أجاب الرسام سريعًا :

- وليكن، المهم أن نؤسس لمدرسة عصرية بالمفهوم الحديث، فالموسيقى الجميلة والنشيد الجيد يسهمان في تعزيز المشاعر المهذبة وترسيخ حب العلم وتشجيع العمل بروح الفريق .

ولكي يأمن غضب الوالي أو يضمن عدم انزعاجه طلب الخواجة شارل من القنصل الفرنسي مساعدته في إلحاق أبناء الجالية الفرنسية الذين يرغبون في تعلم اللغة العربية بالمدرسة، وقال له هامسًا :

- أظن أن التحاق الأطفال الفرنسيين بمدرسة المستقبل سيطمئن الباشا،

ويرده عن إغلاقها أو إيذائنا .

كما رجاه أن يبلغ الباشا أن هدف المدرسة علمي بحت، ولا علاقة له بالسياسة، فاستجاب القنصل وتمنى له التوفيق .

وفي يوم الافتتاح احتشد أهالي الأزهر والغورية والحسين والدرب الأصفر والجمالية وقصر الشوق وبين القصرين ودرب الجماميز ليشهدوا الحدث الغريب والعجيب، حيث اصطحبوا أطفالهم وصبيانهم ليلحقوهم بالمدرسة في أجواء فرح ومرح واندهاش. وتولى عصفور الحداد وهيلين تسجيل أسماء الراغبين في التعلم من أبناء المصريين والأجانب . وجاء الفنان إبراهيم الورّاق وفرقته الموسيقية وقاد التلاميذ وغنوا النشيد الذي كتبه عصفور وراجعه وضبط أوزانه مع شيخ أزهري يتقن الشعر، وكانت المفاجأة أن المطرب الشهير، بعد أن عرف الهدف النبيل والمسعى الحميد، رفض أن يتقاضى أية أموال، وقال للخواجة شارل :

- تلحيني لهذا النشيد هدية بسيطة أقدمها لأبناء بلدي ليدركوا قيمة العلم .

جلست سعدية ببطنها المنتفخة في مطبخ المدرسة تعاون ياقوتة في تنظيف الفواكه الشتوية التي اشتروها ليلة أمس وتتذكر زوجها الراحل أيوب السبع وتهمس لنفسها: (سيتعلم الناس كما كنت تحلم وتأمل، وابننا أيوب أول الملتحقين بالمدرسة، فارقد بسلام).

وجاءت مسعدة حجاب بابنها محمد وثلاثة من أصدقائه العميان واستقرت في المقعد الخلفي لتنصت إلى الدرس الأول الذي يلقيه أبوه في تعليم اللغة العربية والفرنسية، وقد تابعت الدرس باهتمام بالغ لتستعيده مع ابنها فيما بعد .

وفي الغرفة الأخرى باشر النبوي سرحان مهمته في تعليم سبعة طلاب فرنسيين أصول اللغة العربية، كان ضمن الطلاب ابنٌ وابنةٌ للقنصل الفرنسي نفسه، ثم انتقل

إلى فصل آخر لتعليم عشرين تلميذا مصريا مبادئ اللغة الفرنسية .

بعد انتهاء اليوم الدراسي الأول بنجاح تولت سعدية وهيلين توزيع العنب والجوافة على كل تلميذ قبل انصرافه. وقال شارل للجميع موضحًا لهم السبب في توزيع الفواكه :

- حتى نعزز الحافز لدى التلاميذ فيفرحوا ويقبلوا على التعلم .

فقالت هيلين مؤيدة :

- لقد لاحظت بالفعل أن السعادة تتقافز في عيون الأولاد وهم يتناولون نصيبهم من الفواكه .

ثم التفت الخواجة شارل إلى ابنه واحتضنه بقوة وقال له أمام والدته :

- برافو يا محمد... لقد أبديت نباهة كبيرة في تعلم العربية، وكذلك في نطق

الفرنسية وفهمها ... إلى الأمام يا بطل... وأنا معك إلى الأبد .

وتذكر مقولة السيد عمر مكرم (ادخلوها حالمين واجعلوا مصر دارًا للعشاق) فابتسم باطنه وربت كتف ابنه بحنان، أما النبوي سرحان فوقف بين الخواجة شارل وهيلين وعصفور الحداد وصاح فرحًا بعمله معتدّا بذاته :

- فليسجل التاريخ أنني أول مصري يعلّم المصريين أصول اللغة الفرنسية !

****

القاهرة/ دبي

12/ 9/ 2016

15/ 2/ 2018

القسم الأول